

الموحِّدون الدروز

ثقافة وتاريخ ورسالة

عبّاس الحلبيّ





دار النهار

أُهدي هذا الكتاب إلى شريكة حياتي رنده

التي أَستقي من جوهر سريرتها النقيَّة

عزمًا وقوَّةً ورغبةً في خدمة أبناء طائفتي ووطني

الفهرس

تمهيد

حرص الموحِّدون الدروز على خصوصيَّة معتقداتهم ومسلكهم وسرِّيَّتها، في ردَّة فعلٍ طبيعيَّةٍ على الاضطهاد الذي عرفوه عبر تاريخهم، بالإضافة إلى إهمالهم التساؤلات المشروعة والفضوليَّة حول هوِّيَّتهم ومسلكهم، هذا كلُّه ساهم في إطلاق العنان لمخيِّلة الفضوليِّين في رسم صورةٍ مشوَّشةٍ عن معتقداتهم التوحيديَّة ونهج حياتهم.

وعزَّز نشوء هذه الصورة عملُ المستشرقين الذين لم يروا في الموحِّدين الدروز سوى مقاتلين مسلَّحين بخنجرٍ ومستعدِّين لذبح المسيحيِّين في كلّ حين. وقد آن الأوان لتصحيح هذه الصورة.

الموحِّد مقاتلٌ بالتأكيد، عندما يقتضي الأمر الدفاع عن مصالح طائفته وأبناء عشيرته، عملاً بوصيَّة أوليائه «حفظ الإخوان». لكن، للموحِّدين الدروز، أُسوةً بباقي الطوائف، حاجاتهم ومصاعبهم، وهم يتشوَّقون إلى حياةٍ ملائمةٍ وعادلةٍ ومستقرَّةٍ في علاقتهم مع إخوانهم في المواطنيَّة.

فهم لا يشكِّلون «جزيرةً» منعزلةً عن العالَم، بل إنَّهم يعانون من جميع مشكلات المجتمع اللبنانيّ، مثلهم مثل الآخرين، ويتأثَّرون بتصرُّفات الطوائف الأُخرى. لديهم نقاط قوَّة، ونقاط ضعفٍ أيضاً. وكونهم أتباع مذهبٍ توحيديٍّ يرتكز أساساً على العقل والمنطق، لا يجوز أن يتوهوا أو يفقدوا توجُّههم.

في هذا الكتاب، أسعى إلى تبديد الأفكار المسبقة وتحطيم الأساطير ورفع

المحرَّمات وتقديم صورةٍ أصيلةٍ خاليةٍ من الرياء والتزلُّف، للموحِّدين الدروز ولباقي اللبنانيِّين على السواء، ما يتيح للموحِّدين الدروز أن يشعروا بالفخر بانتمائهم تجاه «الآخر المختلف». وقد ساهم البعض مِنَ اللبنانيِّين بتعقيد هذه المهمّة إذ أنه بمناسبة أيّ خلاف في السياسة لا يتوَرَّع البعض عن محاولات التشويه والتشويش لا بل الإساءة بإلصاق التُّهَم الزائفة ومحاولة تظهير صورة مسيئة عن مواطنيهم الدروز.

لكن، أكثر ما يدهشني هو أنَّ المشكلات التي اعترضتني في بداية التزامي القضايا الدرزيَّة والوطنيَّة، منذ ثمانيةٍ وثلاثين عاماً، ما زالت تطرح نفسها اليوم، وبالحدَّة نفسها. ولاحظتُ بالمتابعة التاريخيَّة لهذه المشكلات، أنَّها تطرح نفسها سنةً تلو السنة، لا بل، وبدون مبالغة، قرناً بعد قرن. فالأمر يتعلَّق قبل أيّ شيءٍ آخر بمشاكل بنيويَّةٍ أساسيَّة، تضاف إليها مشكلاتٌ مرحليَّة، تُضفي مشهداً عامّاً أكثر تعقيداً.

من السهل تحميل القيادات السياسيَّة مسؤولية هذا الأمر كاملةً، كما لا أنفي ضلوعهم به. لكن، لا بُدَّ لي أن أُقرَّ بأنَّ النخبة الثقافيَّة الدرزيَّة التي أعطاها كمال جنبلاط أهمِّيَّةً قصوى، أصبحت شبه مغيَّبةٍ في البحث عن حلول لهذه المشكلات. كما أنَّه من غير الممكن تحميل رجال الدين الموحِّدين وحدهم هذا العبء، بسبب خصوصيَّة تنشئتهم وانتمائهم وإيمانهم أو زهدهم ونسكهم.

إذاً، كلُّنا مسؤولون، على مستوياتٍ مختلفة، عن الوضع الراهن، وإن لم يتساوَ مَن بيدهم الحلّ والربط والناس العاديُّون في تحمُّل المسؤوليَّة، إذ إنَّ بلوغ أيّ منصب قد يعوق مصداقيَّة أيّ عمل، والوصول إلى أيّ وظيفةٍ قد يبرِّر الخضوع لا بل إفقاد أيّ التزام خصوصيَّاته.

هذا الكتاب إنتاج جديد وإن اقتبستُ بعض مضامينه من كتابي بالفرنسيَّة *Les Druzes: vivre avec l'avenir*، الصادر عن دار النهار، سنة 2005، والذي سرعان ما نفذت طبعته الأولى لكي تُصدره دار النهار بطبعةٍ ثانيةٍ، سنة 2006. يتوجَّه الكتاب الحاضر إلى شريحةٍ أوسع من التي وجَّهتُ إليها كتابي بالفرنسيَّة.

ثمَّ إنَّ هذا الإصدار باللغة العربيَّة يُلقي عليَّ مسؤوليَّةً مزدوجة هي، أوَّلاً، أن يحظى باستحسان شيوخ الموحِّدين الدروز ومرجعيَّاتهم المعنيَّة مباشرةً بالإرث الثقافيّ والدينيّ؛ وأن يلقى من ناحيةٍ ثانية، اهتمام الآخر المختلف أكان لبنانيّاً أم عربيّاً، مسلماً أم مسيحيّاً.

لذا سعيتُ في إعداده، إلى أن أستفيد من ملاحظاتٍ وآراء وُجِّهت إلى كتابي الفرنسيّ، وعمدتُ بخاصَّةٍ إلى استكمال مراحل جديدةٍ دخلت فيها طائفة الموحِّدين الدروز، وهذه هي التسمية الجديدة التي كرَّسها القانون الجديد الصادر في 9/ 6/ 2006. ولطالما تحسَّرتُ في كتاباتي السابقة على عدم تنظيم شؤون الطائفة فوجدتُني هذه المرَّة أمام تنظيم جديدٍ قد لا يخلو من النواقص، لكنَّه يشقّ طريقاً جديدة، ويمنح فرصةً إضافيَّةً لمعشر الموحِّدين ليواجهوا الحداثة عبر المؤسَّسات.

ظننتُ أحياناً أنَّ القيادات السياسيَّة لا ترغب في تنظيم شؤون الطائفة أو على الأقلّ لا تستطيع، حتَّى لا تفقد إحكام سيطرتها المطلقة على القرار. واليوم أجدُني أُكبِر فيها هذه المبادرة بتسهيلِ إنتاج فرصةٍ جديدةٍ لتنظيم الشؤون المذهبيَّة. ولعلَّ هذه المناسبة ستتيح، مستقبلاً أيضاً، فرصةَ تنظيم الشؤون الدينيَّة التي تحتاج إلى تحديثٍ ومراجعةٍ وتجديد، بعد أن ركدت فترةً طويلةً من الزمن، حرَّكتها أحياناً بعض المحاولات الصادرة عن جهاتٍ لا تتمتَّع بالصدقيَّة الدينيَّة، أو هي قامت بذلك بدافع الاندفاع الزائد لإخراج المعتقد من أسره التاريخيّ، دون الأخذ بالاعتبار أنَّ الانتقال من حالةٍ إلى أُخرى يقتضي، لصحَّته وسلامته، مساراً فكريّاً وثقافيّاً متدرِّجاً ومدروساً.

لقد تحدَّثتُ عن الفراغ في التنظيم، والتسيُّب في الإدارة، والتشتُّت في حفظ أمانة الأوقاف، والخلل في الرئاسة الروحيَّة، وغياب المرجعيَّة المذهبيَّة والزمنيَّة، وسواها من الأمور التي غابت عن بال أجيالٍ جديدةٍ تربَّت على وقع المأساة عندما يلحظون الفرق بين التاريخ الحافل بالمآثر والمكرمات وبين واقع الحال المنبئ بصورةٍ قاتمة. وعلى الرغم من محاولات تقريب الجيل الجديد من معتقده، والتي يقوم بها

رهطٌ من رجال الدين الذين يعون مخاطر ابتعاد هذا الجيل عن مسلكه، فإنَّ الحاجة لا تزال كبيرةً لإعادة إحياء التراث والتجديد فيه لضمان مصالحة الموحِّدين الدروز مع العصر الذي يعيشون فيه.

هذا من جهة، ومن جهةٍ ثانية، وضعتُ في هذا الكتاب ملاحق تحمل كتاباتٍ أو مقالاتٍ أو كلماتٍ على صلةٍ بأعلام دروز أُتيحت لي فرصة الكتابة عنهم أو عن أعمالهم، فاستكملتُ مهمَّةَ الاعتراف بفضلهم. وسعيتُ خصوصاً إلى تعريف القارئ إلى أعمالهم وشخصيَّتهم وسلوكهم. ولعلَّنا بحاجةٍ اليوم، إلى تعزيز التعريف بهؤلاء الأعلام في سياق معهدٍ أو جامعةٍ تُعنى بالدراسات التوحيديَّة، فتشكِّل مركزاً لإعداد رجال الدين على قاعدة العلم الحقيقيّ والمعرفة العرفانيَّة، وتسعى أيضاً إلى إعادة إحياء تراث السلف الصالح ومواكبة التطوُّر والمستقبل.

وقد تلقَّيتُ بعد صدور كتابي باللغة الفرنسيَّة، انتقاداتٍ قليلةً تمنَّيتُ لو أنَّها اتَّصلت بالمنهجيَّة والمضمون، لكنَّها حصرت اهتمامها بعدم ذكر بعض الأسماء التي ربَّما تستحقّ الذكر. وعبثاً حاولتُ إقناع المتَّصلين بأنَّ منطق الكتاب حال دون ذلك، من دون أيِّ موقفٍ سلبيٍّ تجاه البعض الآخر. كما أنَّ عدم الاستفاضة بالناحية العقيديَّة شكَّل موضوع نقد البعض، دون أن يدركوا أنَّ الكتاب يهدف إلى تقديم لمحةٍ عن الطائفة، وليس كتاباً دينيّاً. وفي الوقت الذي راعيتُ فيه هذه الناحية، تتَّبعتُ حركة التأليف والإصدار فوجدتُ أنَّ أعمالاً كثيرةً صدرت في تلك الفترة وتحدَّثت بإسهابٍ عن هذه النواحي، ولستُ هنا في معرض تقييمها أو تصديقها أو نفيها، ومؤلِّفوها موحِّدون دروز وغير دروز.

ومن الناحية السياسيَّة، حاولتُ قدر المستطاع وصف الواقع دون إبداء موقفٍ شخصيّ، وفي كتاباتي المنشورة العديد من هذه المواقف، حاولتُ أن أنأى بها عن هذا الكتاب كي أحفظ للعرض موضوعيَّتَه، وللنصّ هدفه وغائيَّته.

إنِّي أشعر بالرضى والسعادة عندما أكتب عن «بني معروف»، أهل التوحيد والحقيقة، وقد كرَّستُ حياتي ووقفتُها للمساهمة في تقدُّمهم وإعلاء شأنهم

ومصالحتهم مع الحداثة. وقد دخلتُ هذا المعترك يافعاً متأثِّراً بتربيةٍ منفتحة، حاولتُ بثَّها في عائلتي الصغيرة، لأنَّ التقوقع والانغلاق مرض فتَّاك، والتعصُّب قتَّال، والتزمُّت ظاهرةٌ غير طبيعيَّةٍ في هذا العالم المنفتح على الثقافات والحضارات والتفاعل الخلاَّق، دون إنكار الجذور الصلبة والانتماءات الأوَّليَّة.

وقد أتاحت لي المشاركة في المؤتمرات والندوات في لبنان والعالم فرصةَ الانفتاح دون التخلِّي عن الثوابت الدينيَّة والثقافيَّة، مستقياً من العقيدة التوحيديَّة وفهمي لها أنَّها ثورةٌ على التقليد والتكليف. وتكبر معاناتي عندما أرى أنَّ بعض مَن هو مؤتمنٌ على هذه الثورة يعمد إلى الرضوخ إلى واقع سياسيٍّ ودينيٍّ أليم.

وبما أنِّي ناشطٌ درزيٌّ منذ سنة 1969، أصبحتُ متعلِّقاً جدّاً بطائفتي وأُسسها الفقهيَّة والتاريخيَّة والسياسيَّة والثقافيَّة. وأصبحنا، رفاقي وأنا، منذ ذلك التاريخ، مدفوعين بالحماسة نفسها، مهتمِّين بإبراز الموحِّدين الدروز كعنصر ضامنٍ لوحدة لبنان واستقلاله وسيادته، وكعامل استقرارٍ وتوازنٍ في الشرق الأوسط، أو على الأقلّ في محيط ما سُمِّي تاريخيّاً «بلاد الشام».

مسيرةٌ عمرها ثمانيةٌ وثلاثون سنة

قاضٍ سابق، وأشغل حاليّاً منصب نائب رئيس مجلس إدارة والمستشار القانونيّ في بنك بيروت والبلاد العربية ش.م.ل.، وأنشط أيضاً في تجديد الوظيفة العامَّة بصفتي عضو مجلس إدارة المعهد الوطنيّ للإدارة في لبنان ENA-Liban. لقد شاركتُ أيضاً في العديد من النشاطات، وفي تأسيس جمعيَّاتٍ عدَّة ثقافيّة وصحيّة وتربويّة ورياضيّة. وقد لا تخلو مؤسَّسةٌ درزيةٌ قائمةٌ من نشاطٍ ساهمت فيه، تأسيساً أو تفعيلاً. وفي تشرين الثاني 2006، تَوَّج نشاطي بانتخابي في المجلس المذهبيّ الجديد، وإسناد رئاسة لجنة الأوقاف إليَّ. كما لم أغفل أهميَّة الانفتاح على «الآخر» عبر تولّي مهمّاتٍ والقيام بنشاطاتٍ في ميدان الحوار الاسلاميِّ-المسيحيِّ على الصعيدَيْن اللبنانيّ والعربيّ. هذا، عدا العديد من المهمَّات التي تدخل في حيِّز اهتماماتي المصرفيَّة والقانونيَّة.

بالإضافة إلى هذه الوظائف والمهامّ، أحرص على البقاء يقظاً تجاه حياة الموحِّدين الدروز وحاجاتهم، والمحافظة على علاقة وطيدةٍ مع رجال الدين في الطائفة، ولعب دور فاعلٍ في المجتمع المدنيّ، محاولاً دوماً تنشيطه ودعمه لكي يؤدِّي دوره بفاعليَّةٍ حتَّى لا يبقى مهمَّشاً بسببٍ من ثقل القيادات السياسيَّة التاريخيَّة وبعض دوائرها التنظيميَّة.

أمام التحدِّيات المتمثِّلة بدور الطوائف اللبنانيَّة الأُخرى في الحياة الوطنيَّة، وأمام غياب الدور الذي من المفترض أن تقوم به النخبة الثقافيَّة الدرزيَّة التي تَمَّ تهميشها بسبب الدور الطاغي للسياسيِّين وسطوتهم، فإنَّ طائفة الموحِّدين بحاجةٍ لكلّ طاقاتها من أجل إبراز تراثها التاريخيّ والوطنيّ.

وعلى الموحِّدين التفكير بحكمةٍ وتمييز من أجل المحافظة على وجودهم في الشرق الأوسط، وتأمين مستقبلهم في المنطقةٍ والعالم حيث يهدِّد التطرُّف الأقلِّيَّات، لا بل الأكثريَّات المعتدلة أيضاً.

آمل أن يلقى كتابي هذا الموضوع بنيَّةٍ طيِّبة، ترحيباً جيِّداً وفهماً عميقاً. وإنَّني أُوجِّه تحيَّةً إلى جميع مَن سبقوني في الكتابة عن الموحِّدين الدروز، ولا أنتقص من عملهم بأيّ شكلٍ من الأشكال. وأعتذر مسبقاً عن أيّ نقصٍ قد يحويه هذا الكتاب، وهو بفعلِ السهو.

لقد وُضعت معظم فصول هذا الكتاب بعزم وشجاعة تُبرز أوجهاً توصيفيَّة تَمَّ استقاؤها من مراجع أُخرى. إلاَّ أنَّني أَضفتُ إلَيها من تجربتي الشخصيَّة وخبراتي وتوجُّهاتي التي لا تُلزم أحداً سواي. أمَّا الأقسام التحليليَّة فقد وُضعت بالتوازي مع التطوُّرات التاريخيَّة، في محاولةٍ لاستشراف المستقبل وطرح الإشكاليَّات كما أراها وكما تراها النخبة الثقافيَّة، كلَّما جرى طرح النقاش.

وأيضاً أعتذر مسبقاً من جميع الأشخاص الذين ارتبطوا معي بنشاطاتٍ مشتركةٍ لعدم تسميتهم شخصيّاً في هذا الكتاب. يجب ألاَّ تُفهم هذه النواقص كموقفٍ شخصيٍّ من قِبَلي، بل في سياق منطق الكتاب الذي لا يسع لذكر جميع الشخصيَّات. ناهيك عن خطر إغفال بعض الأسماء وما يستتبعه من ردود فعل.

لذا، حاولتُ الابتعاد عنها قدر المستطاع، ولم أَلجأ إليها إلاَّ من أجل إثبات أنَّ العمل الذي قمتُ به في نشاطات طائفتي لم يكن في أيّ وقتٍ من الأوقات عملاً فرديّاً، بل شاركني به أشخاص آخرون.

وأُوجِّه تحيَّةً من القلب وخالص الشكر لجميع مَن عملوا معي. وأطلب من الجيل الجديد أخذ زمام المبادرة وعدم نسيان الجذور والأصول التي نفتخر بها، والعمل لمصلحة وطنهم، دون إغفال الطوائف التي ينتمون إليها، ولو في جوٍّ أكثر تعقيداً من ذي قبل.

كما أريد توجيه تحيَّةٍ لروح المرحومة والدتي التي أحسنت تنشئتي وفقاً للقِيَم التوحيديَّة. وأُحيِّي أيضاً صبر زوجتي رنده، طوال هذه المسيرة الطويلة التي تشاركنا فيها الحلو والمرّ، وأشكرها على كلّ ملاحظاتها واقتراحاتها، مستقياً من جوهر سريرتها النقيَّة عزماً وقوَّةً ورغبةً في الخدمة العامَّة.

وأشكر أيضاً أولادي على الأسئلة التي طرحوها عليَّ حول تراث طائفتهم وثقافتها وهم يكبرون. وقد تسلَّحتُ بفضولهم وتوجَّهتُ مراراً برفقتهم إلى جلسات «المجلس» في رأس المتن، مسقط رأسي المظلَّل دوماً بالصنوبرات العتيقة، ونظَّمتُ في منـزلي جلساتٍ خاصَّةً لهم ولأولاد عمومهم، مع المشايخ الدروز في ليلة عيد الأضحى.

وأخيراً وليس آخراً، أَستذكر روح كمال جنبلاط التي كانت دوماً موجِّهةً لأيّ عمل ثقافيّ، ليس ضمن طائفة الموحِّدين الدروز فحسب، بل أيضاً في لبنان والعالم العربيّ والإسلاميّ.

أضع هذا الكتاب بين أيدي أصحاب النوايا الصافية، آملاً أن يتلقَّوه بخاطرٍ طيِّبٍ ونيَّةٍ صافية.

رأس المتن، في 20 تمُّوز 2007

مقدّمة

لم يكن التكوين الديموغرافيّ الخاصّ بطائفة الموحّدين الدروز في لبنان، عائقاً عن أن يؤدّي أبناؤها دوراً بارزاً على امتداد مراحل التاريخ اللبنانيّ، وعلى الصعد كافّة من سياسيَّةٍ واقتصاديَّةٍ وثقافيَّةٍ واجتماعيَّةٍ وروحيَّة. وكان من أبرز إسهاماتهم انخراطهم في الرؤية التأسيسيَّة لِما يُسمِّيه الأب يواكيم مبارك «الفكرة اللبنانيَّة»، أي التفكير بدولةٍ لبنانيَّةٍ مستقلَّة. وقد تلاقى هذا الانخراط مع تميُّز الموحّدين خلال تاريخهم بمعارضة كلّ أشكال الاستعمار والانتداب والوصاية، وفي المشرق العربيّ تحديداً. فقد قاوم الموحّدون الصليبيِّين والمغول والمماليك والعثمانيّين، وصولاً إلى المنتدِب الفرنسيّ، وفي يومنا هذا، ناهضوا الوصاية السوريَّة، ما دفع بالغرب، عبر العصور، إلى توصيفهم بالشعب المحارب والمتمرِّد والعنيد.

وإذا ما صحّ التوصيف المقاوم فقد لازمه جهلٌ عميقٌ بالحقيقة التاريخيَّة لهذه الطائفة. ومَرَدّ الجهل قائمٌ في تعمُّد الخصوم التشويه بقصد التنكيل من ناحية، وفي حرص سلطة الطائفة الدينيَّة على إخفاء العقيدة بغية الحفاظ عليها من التحريف، كما حماية أتباعها من الاضطهاد، من ناحيةٍ أُخرى.

وعقيدة التوحيد ذات طابعٍ عرفانيّ، تنفرد بسماتٍ متمايزةٍ عن الإسلام التقليديّ (الرسميّ أو الشرعيّ) في نواحٍ متعدِّدة، وتحديداً لناحية الشرائع العباديَّة والأدبيَّات المسلكيَّة. كلّ ذلك دفع في اتّجاه جعل العقيدة الدرزيَّة على قدرٍ نافرٍ من السرِّيَّة، بل قُلْ الباطنيَّة، يقتصر الاطّلاع على حقائقها على نخبةٍ مختارةٍ من العارفين العُقَّال.

وقد سمحت هذه الباطنيَّة بدرء كلّ محاولات التحريف عن العقيدة التوحيديَّة، كما باستمرارها حيَّةً على مرّ عصورٍ متتالية، ووسط محيطٍ معادٍ يُضيره كلّ تسامحٍ يظنُّه مخالفاً لمعتقده، حتَّى ليصل إلى حدّ اتِّهامه بالبدعة والهرطقة.

غير أنَّ الحرص المبالغ فيه على اعتماد النهج الباطنيّ المُكَنَّى بـ «التَّقيَّة»، أدَّى إلى شيوع تخميناتٍ وشائعاتٍ واتِّهاماتٍ باطلةٍ حول الموحِّدين الدروز، كوَّنت عنهم في أذهان الكثيرين، صورةً دينيَّةً زائفةً، تُضاف إلى صورتهم التاريخيَّة المشوَّهة. من هنا، استحالت فرادة معتقدهم مبرِّراً لطرح التساؤلات حول مدى انتمائهم إلى الإسلام، خصوصاً لجهة انتشار العديد من المطبوعات المضلِّلة التي تتناول هوِّيَّتهم ومعتقدهم. ولم تزل هذه التساؤلات معاصرة، وتحتلّ حيِّزاً مهمّاً من السِّجالات، مستنفِرةً بالتالي ردود الأفعال. ما يؤشِّر إلى المكانة التي يحتلُّها الموحِّدون الدروز في المشهد الطوائفيّ ليس في المشرق العربيّ فحسب، بل على امتداد الخريطة العالميَّة.

الجهل والمعرفة المبتورة، وتشويه الوقائع وترويج الأساطير وتلفيق الشائعات، ناهيك عن خلاصات السجالات والجدالات التاريخيَّة، كلّ هذا أحاط بالموحِّدين الدروز، وفاقم عندهم الحاجة لرفع ستار السرِّيَّة والغموض، ودحض المبالغة في الأسطوريَّة، وإعادة الحقيقة إلى جوهرها عبر اقتراح مقاربةٍ ثقافيَّةٍ معاصرة.

وكلّ سعيٍ للقيام بهذه المقاربة تعوزه إعادة رسم الإرث التاريخيّ والدينيّ والثقافيّ والاجتماعيّ لطائفة الموحِّدين الدروز بمجملها، دون قَصْر ذلك على دروز لبنان وحدهم. مع التأكيد على أنَّه من الأعقل تمييز دروز لبنان عن إخوانهم في سوريا وفلسطين، في المراحل المعاصرة، بالرغم من أنَّ ذلك لا ينسحب بالضرورة على المراحل التاريخيَّة السابقة، بل من المستحيل أن ينسحب عليها. ثمَّ إنَّ مقاربةً تاريخيَّةً-زمنيَّةً تسمح لنا، دون سواها، بكُنه الروح الحقيقيَّة لطبيعة إيمان الموحِّدين، وبالتحديد معتقداتهم وسلوكيَّاتهم، خصوصاً وأنَّها تندرج في سياقاتٍ مفهوميَّةٍ صيغت منذ نشوء طائفتهم في العصور الوسطى، وجُسِّدت في رُقَعٍ جغرافيَّةٍ متعدِّدة، منها لبنان. من هذا المنطلق، يتبدَّى المسلك التوحيديّ الدرزيّ وريثَ سلسلةٍ من الانقسامات الإسلاميَّة من جهة، ووريث سلسلة إسنادٍ متَّصلةٍ

من نَقَلَة المفاهيم الدينيَّة القديمة والخاصَّة من جهةٍ أُخرى، ما يُحتِّم الشروع بتفصيل هذين الإرثين كمدخلٍ تأسيسيٍّ لمقاربتنا.

الفِرَق الإسلاميَّة السابقة لنشأة العقيدة التوحيديَّة الدرزيَّة

عايش الإسلام عبر تاريخه انقساماتٍ إلى تيَّارات، وافتراقاتٍ إلى اتِّجاهات، أدخلت كلٌّ منها، على الرغم من نهلها من معينٍ واحد، عدداً من الاجتهادات الدينيَّة والعقائد الجديدة. وشكَّلت مسألة الخلافة الشرعيَّة للرسول محمَّد صلَّى الله عليه وسلَّم، السبب الرئيس لهذه الانقسامات، والتي تعدَّدت بحسب تكاثف تأويلاتٍ تعترف بشجرة أنساب هذا أو ذاك من الأئمَّة والخلفاء.

وقد سمح إدخال نظريَّاتٍ دينيَّةٍ جديدة، كما إنجاز صياغاتٍ حاذقةٍ بل غامضةٍ لبعض المعتقدات القديمة، بإضفاء شرعيَّةٍ دينيَّةٍ لهذه أو تلك من الأنساب. وبمعزلٍ عن الاعتبارات السياسيَّة، فإنَّ رسالة الإسلام، وبحسب العقيدة الدينيَّة للموحِّدين الدروز، قد تبلورت من خلال تكامل التيَّارات والاتِّجاهات، حتَّى اكتملت في المسلك التوحيديّ الدرزيّ. ويبدو لنا من المفيد بمكانٍ، الإطلالة على هذه التيَّارات والاتِّجاهات من حيث فِرَقها وإسهاماتها، ولو بلمحةٍ موجزة.

تستمدّ الدولة الإسلاميَّة مشروعيَّتها، وفق المفهوم-النموذج الذي تركه الرسول (صلعم)، من الله وحده، وتخضع بالتالي للقانون الإلهيّ دون سواه. وهكذا، ومنذ البداية، لم تنفصل السلطة السياسيَّة عن السلطة الدينيَّة، وهذا مختلفٌ بالتمام عن المفاهيم الغربيَّة والمسيحيَّة. وتحوَّل بالتالي، كلّ اختلافٍ سياسيّ، أيّاً كانت أسبابه وأُصوله، إلى اختلافٍ دينيّ، والعكس صحيح. وراح كلّ حزبٍ معارض يتمنطق بخطابٍ عقيديٍّ كلاميٍّ يجعل منه قدرةً على تغيير النظام القائم، قانعاً بخصوصيَّة انتظام مجموعاته دينيّاً.

وقد شهدت القرون الأربعة الأُولى للهجرة نشأةَ العديد من الأحزاب الإسلاميَّة وانتشارها، انطلاقاً من عوامل اجتماعيَّةٍ وسياسيَّةٍ وثقافيَّةٍ خاصَّةٍ بكلٍّ منها. مع الإشارة إلى أنَّ إطلاق هذه الأحزاب المستحدثة لخطابٍ عقيديٍّ جديدٍ

رغماً من تفرُّعه من الإسلام الأوَّل وفِرَقه الأُولى، انسجم كلّ الانسجام مع المحيط والتراث التاريخيَّين اللذين احتضنا نشأتها. من هنا، وجدت العقيدة الدرزيَّة، والتي صيغت وتبلورت ما بين نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر الميلاديّ، وجدت في ذاتها إنجازاً مكتملاً وحصيلةً نهائيَّة لمبادئ دينيَّةٍ وأفكارٍ قديمة، كان الإسلام قد حملها أو استعادها، لكنَّها نضجت وتحدَّدت أكثر من خلال التشيُّع، مروراً بالدعوة الإسماعيليَّة الفاطميَّة، ووصولاً إلى الدعوة التوحيديَّة.

أمَّا الانقسام الأكبر والأهمّ الذي عرفه الإسلام فقد وقع عام 632 م.، أي بعد فترةٍ وجيزةٍ جدّاً من وفاة النبيّ محمَّد (صلعم). وفيما لم يوصِ النبيّ بمَن سيخلفه، نشب خلافٌ حول هويَّة القائد الخَلَف. وكان يمكن لهذه الأزمة أن تُمزِّق جماعة المسلمين الحديثة الولادة والطريَّة العود، لو لم يُجمعوا، وبعد توتُّرٍ شديد، على ترئيس أقدم صحابة الرسول وأكثرهم احتراماً، أبي بكر الصدِّيق.

حمل الصحابيّ أبو بكر لقب الخليفة، أي خليفة رسول الله، ما وهبه سلطةً دينيَّةً وسياسيَّةً على السواء، وكرَّسه «أميراً للمؤمنين». فكان سيِّد الجماعة المسلمة، وأوَّل مَن أرسى دعائم المؤسَّسة الإسلاميَّة التاريخيَّة المعروفة بـ «الخلافة». لم يحكم أبو بكر إلاَّ سنتين وثلاثة أشهرٍ ونصف الشهر (11-13 هـ. / 632-634 م.)، لكنَّه حرص على تعيين خليفةٍ له قبل وفاته، هو عمر ابن الخطَّاب. حكم عمر حتَّى اغتياله عام 644 م. (13-23 هـ. / 634-643 م.). وعُني على غرار سلفه، بابتكار آليَّةٍ لتعيين خليفةٍ له. فانتدب لهذه الغاية مجلساً من ستَّة أشخاصٍ اختارهم من بين أقدم صحابة الرسول وأقربهم إليه، فانتخبوا عثمان ابن عفَّان، مَن بني أُميَّة، خليفةً جديداً للمسلمين (23-35 هـ. / 643-656 م.).

لكن، ومنذ اللحظات الأُولى للخلافة، وجدت جماعةٌ من المؤمنين، أنَّ هذه المسؤوليَّة لا بدَّ من أن تؤول شرعاً إلى أوَّل مَن أَسلم، عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام. وعليٌّ قريب الرسول، ابن عمّه وصهره. تقيٌّ وشجاعٌ في دفاعه عن الإسلام. سُمِّيت هذه الجماعة بدايةً، «شيعة عليّ» أي حزبه وجماعته، ثمَّ «الشيعة». لم تكن في بدايتها سوى جماعةٍ سياسيَّةٍ لا تحمل أيَّ ادِّعاءاتٍ عقيديَّةٍ أو دينيَّة. ولم

يُظهر عليٌّ اعتراضه في بداية الأمر، على اختيار غيره من الخلفاء، نظراً إلى العدل والمساواة اللذين ميَّزا حكم الخليفتين أبي بكر وعمر. إلاَّ أنَّ تنامي اللاَّعدالة بين أبناء الجماعة المسلمة، على عهد عثمان، واستئثار بني أُميَّة بالمكاسب والامتيازات بسبب المحاباة والمحسوبيَّة العائليَّة التي أظهرها عثمان، كلّ هذا أدَّى إلى احتجاجاتٍ عديدة، انتهت باغتيال عثمان عام 656 م.، ليُنصَّب عليٌّ خليفة. شهدت مرحلة خلافة عليّ (35-41 هـ. / 655-661 م.) مزيداً من الاضطرابات ونشوب حربٍ أهليَّةٍ بسبب انقساماتٍ سياسيَّةٍ ودينيَّةٍ كثيرةٍ ظهرت وسط المسلمين. واصطدم عليٌّ خصوصاً بعداوة بني أُميَّة، وعلى رأسهم معاوية ابن أبي سُفيان حاكم بلاد الشام منذ أيَّام عمر، والذي استمدَّ قوَّةً أكبر في حكمه على عهد عثمان. وقد رفض معاوية الاعتراف بعليٍّ خليفةً للمسلمين.

إغتيل عليّ عليه السلام، عام 661 م.، فانتهت بموته حقبة الخلافة الراشدة والخلفاء الراشدين الأربعة. وأشَّر وصول معاوية إلى الحُكم إلى بداية مرحلةٍ ملكيَّةٍ وراثيَّةٍ ستفاقم من الاختلالات والفروقات بين المسلمين، وتشجِّع على امتيازات أرستقراطيَّة جديدةٍ عند أهل الحُكم، وعلى بسط سيطرتها. ولاحظ الكثير من المسلمين أنَّ الدولة انحرفت عن طريق الإسلام الصحيح. وفي مجتمعٍ يحكمه الدِّين ويمثِّل المسؤولون فيه العقيدة الرسميَّة للدولة، كان لا بدَّ أن يتَّخذَ الاحتجاجُ شكل إنشاء أحزابٍ دينيَّةٍ تمثِّل ملاذاً واعداً وآمناً للمحرومين. وكان حزب عليٍ الذي استمرَّ بعد وفاته، مؤهَّلاً لتقديم المزيد من المطالب السياسيَّة والاجتماعيَّة والدينيَّة، فانقسم الإسلام فريقَين. ففي مواجهة «السُّنَّة»، أنصار الإيمان الأُرثوذكسيّ (المستقيم) والسلطة الرسميَّة، برز «الشيعة» يضمُّون إلى صفوفهم المزيد من المحتجِّين والمعارضين. وفي معركة كربلاء عامِ 680 م.، قُتل الحسين عليه السلام، أصغر أبناء عليٍّ وفاطمة بنت الرسول، وأُبيدت بالكامل جماعةٌ كبيرةٌ من الشيعة على يد الجيش الأُمويّ. فسقط أوَّل الشهداء الكبار من آل البيت، وانطلقت حركة التشيُّع بقوَّةٍ وحماسةٍ دينيَّةٍ مستمدَّةٍ من العذاب والقهر، معزَّزةً بالصلابة في الذَّود عن الدِّين الصحيح. منذها، تضاعفت حدَّة العداوات

والأحقاد حيال الأُسرة الأُمويَّة، وتكاثف ارتباط الكثير من المؤمنين بأحفاد عليٍّ من آل البيت. وانتهى حكم الأُمويِّين عام 750 م.، ليحلّ محلّه حُكمٍ بني العبَّاس الذين وصلوا إلى السلطة بفضل دعم الشيعة، إلاّ أنَّهم سرعان ما تنكروا لهم واختاروا الإبقاء على التراث السُّنيّ عقيدةً رسميَّةً للدولة. وبالتالي، أكَّد التشيُّع نفسه في آنٍ معاً، حركةَ اعتراض سرِّيَّةٍ وحركةَ ثورةٍ مكشوفة. بعدها، نشأت أحزابٌ عدَّةٌ داخل التشيُّع، بالتفاف الناسِ حول واحدٍ من رجال آل البيت. غذَّت كلٌّ هذه الأحزاب نقمةَ أتباعها على الحُكَّام، ودعمت بلوغ مَن التفَّت حوله إلى الحُكم. وفي نهاية القرن الثامن، وبسببٍ من صراعٍ حاسمٍ حول شخص الإمام، اهتزَّت حركة التشيُّع بعنف.

بالنسبة إلى العقيدة الشيعيَّة، الإمام شخصيَّةٌ مركزيَّةٌ، وهو زعيمٌ وقائدٌ دينيٌّ يحمل العِلم الإلهيّ المستودع في آل البيت من نسل عليّ، ويمتلك السلطة الشرعيَّة على جماعة المسلمين التي صارعت سلطة المغتصبين من أُمويِّين وعبَّاسيِّين. وقد توالى الأئمَّة، متسلسلين أباً عن جدّ، من نسل عليّ. وفيما اتَّفق الشيعة على الأئمَّة الستَّة الأوائل، وهم: عليّ (ت. 661)، والحسن (ت. 673)، والحسين عليهم السلام (ت. 680)، وعلي زين العابدين (ت. 714)، ومحمَّد الباقر (ت. 732)، وجعفر الصادق عليهم السلام (ت. 765)، نشب خلافٌ بينهم في ما يخصّ خلافة الإمام جعفر الصادق الذي عيَّن ابنه إسماعيل المبارك لخلافته. ولكنَّ موت هذا الابن، وأبوه بعدُ حيٌّ يُرزق، لم يحمل الوالد على تعيين بدلاً منه (يقول الشيعة الاثني عشريَّة إنَّه عيَّن ابنه الثاني موسى إماماً من بعده). وحين وفاة الإمام الصادق اعترفت غالبيَّة الشيعة بابنه الآخر موسى الكاظم إماماً لها، وبولده من بعده وصولاً إلى محمَّد ابن الحسنِ العسكريّ، وهو الثاني عشر في سلسلة الأئمَّة منذ عليّ، وفقاً لهذه الفرقة التي شكلت الأغلبيَّة؛ وسُمِّيت بسببٍ من ذلك بالشيعة الاثني عشريَّة. لكنَّ طائفةً صغيرةً من الشيعة استمرَّت تعترف بإمامة إسماعيل المتوفَّى، مُدَّعيةً أنَّه قبل وفاته، سمَّى ابنه محمَّداً لخلافته. وسُمِّيت هذه الفرقة الإسماعيليَّة، نسبةً إلى إمامها. وصارت سلسلة الأئمَّة التي التزموا بها من نسل إسماعيل سلسلة نَسَب

الخلافة الفاطميَّة.

لاحق العبَّاسيُّون محمَّد ابن إسماعيل وأصحابه، واضطهدوهم ممَّا اضطرَّهم للاختفاء. فيما انتقل أتباعه إلى السرِّيَّة في ممارسة شعائرهم وحياتهم وأعمالهم. وعلى الرغم من سرِّيَّة حركتهم وضرورة إخفاء أغراضهم وأهدافهم عن الأعين، فقد نجح الإسماعيليُّون في التشكُّل كحركةٍ دينيَّةٍ متماسكةٍ وشديدة التنظيم. أمَّا العقيدة الإسماعيليَّة فصيغت بشكلٍ معقَّد، ما سمح بقيام مستويات عدَّة من التفسير والتأويل. وقد انتشرت العقيدة الإسماعيليَّة في العالم الإسلاميّ عبر الدُّعاة الذين بشَّروا بدعوة الإمام وصاغوا رسالتها.

وتتمثَّل أعظم نجاحات الحركة الإسماعيليَّة في إقامة مملكةٍ مستقلَّةٍ في شمال أفريقيا. ذلك أنَّ تلك البلاد البعيدة عن مركز الخلافة العبَّاسيَّة، والتي كان سكَّانها من البربر وميَّالين أشدَّ الميل للثورة على الحُكَّام، هيَّأت أرضاً خصبةً لرسائل المعارضة الاحتجاجيَّة. وهكذا، فقد حضَّر الدُّعاة الإسماعيليُّون الأرضيَّة لقيام عُبيدالله المهديّ، وهو من المغرب ومن نسل إسماعيل، بالإعلان عن دعوته في العلن، في مطلع القرن العاشر للميلاد. وأُعلن عُبيدالله خليفةً وإماماً في العام 909 م.، مفتتحاً عهد الأُسرة الفاطميَّة في تونس، بعد أن نجح الإسماعيليُّون شيئاً فشيئاً في السيطرة الكاملة على شمال أفريقيا، وأعطوا عقيدتهم وإيمانهم أمانَ الدولة التي صارت دولتهم. وبغية التمايز وإضفاء شرعيَّةٍ على نضالهم أضاف الفاطميُّون إلى الآذان الإسلاميّ التقليديّ عبارة «حيَّ على خير العمل». وفي عهد المعزّ لدين الله، وهو الخليفة الرابع المنحدر من نسل عُبيدالله المهديّ، جرى فتح مصر التي أنشأ فيها المعزّ مدينة القاهرة، ونقل إليها عاصمة الخلافة. وظلَّت هذه المدينة مدَّة قرنين، المدينة الأُولى في العالم الإسلاميّ، ممثِّلةً مركزاً للخلافة، وعاصمةً لدولةٍ قويَّةٍ مزدهرة، ومنافسةً للخلافة العبَّاسيَّة في بغداد، ومكان إشعاعٍ فكريٍّ انطلقت منه الدعوة الإسماعيليَّة.

أمَّا الدعوة الدرزيَّة فتطوَّرت في مصر خلال حُكم الخليفة الفاطميّ السادس، الحاكم بأمر الله (996-1021 م.)، حين تميَّزت مجموعةٌ من الإسماعيليِّين عن

العقيدة الفاطميَّة الرسميَّة، وأعلنت أنَّ الخليفة والإمام «الحاكم» يملك طبيعةً تفوق تلك التي يعطيه إيَّاها منصب الإمامة العاديَّة. وقد غالت هذه المجموعة في دعوتها إلى حدّ القول بطبيعةٍ إلهيَّةٍ للحاكم، مستخدِمةً أساليب الدعوة الإسماعيليَّة التقليديَّة والرسميَّة عينها، حين قام دعاتها بنشر عقائدها الجديدة في كلّ الأقطار والبلدان، وصولاً إلى الهند. وبالرغم من أنَّ النظريَّات الجديدة لقيت تجاوباً وتأييداً في أوساط بعض الفئات، إلاَّ أنَّ الدعوة الرسميَّة في القاهرة لم توافق عليها، لا بل أدانتها. ومع غياب الخليفة «الحاكم»، اضطُهد أتباع الدعوة الجديدة وسُمُّوا بالدروز نسبةً إلى أحد الدُّعاة، نشتكين الدَّرَزيّ، ممَّا اضطرَّهم إلى الهرب من مصر والتيمُّم شطر البلاد التي كانت مهيَّأةً لتقبُّل أفكارهم ودعوتهم.

الإرث الروحيّ والدينيّ لعقيدة التوحيد الدرزيّ

وجدت طائفة الموحِّدين الدروز نفسها حاملةً للتراث التاريخيّ والدينيّ للحركات الشيعيَّة والإسماعيليَّة. غير أنَّ الجذور الحقيقيَّة والتأثيرات الروحيَّة لهذه الحركات أتت، بحسب بعض المصادر، امتداداً واستمراراً لأديانٍ وتياراتٍ فلسفيَّةٍ سابقةٍ للإسلام، لا بل تعود إلى مرحلة العصور القديمة. وبالرغم من أنَّ الانقسامات المتتالية للفِرَق الإسلاميَّة قدَّمت، وبشكلٍ منهجيٍّ، إضافاتٍ وصياغاتٍ دينيَّةً جديدةً، فإنَّ بعض تلك المفاهيم القديمة قد وجدت طريقها الى الخلود من خلال النفاذ على قلب العقائد الدرزيَّة. ومن الممكن تفسير هذه السلسلة من النَّسَب الفكريّ بسهولة، إذ ينبغي ألاَّ ننسى أنَّه، وخلال قرنٍ من الفتوحات، تمكَّن العرب من بناء إمبراطوريَّةٍ إسلاميَّةٍ تمتدّ من البيرينّه شماليّ إسبانيا إلى شماليّ غربيّ الصين. وشكَّل قلبُ هذه الإمبراطوريَّة الممتدّ على ضفاف الحوض الشرقيّ للبحر المتوسِّط، مكانَ التقاء أقدم الحضارات، ما أخضعه بالتالي لتأثيرات الهند وفارس في الشرق، واليونان في الغرب. وكانت عمليَّة انتقال الأفكار تتمّ بحرِّيَّةٍ على امتداد حوض المتوسِّط كله، في تناسقٍ مع حركة انتقال الشعوب.

وقد أظهر العرب خلال مرحلة توسُّعهم فضولاً شديداً وإرادةً حقيقيَّةً

للتعرُّف إلى كلّ ما في تلك الأراضي المفتوحة حديثاً، دون أن يخشوا من استيعاب عناصر جديدة تنتمي إلى منظوماتها الفكريَّة والعقيديَّة. وبالتوازي مع هذا الانفتاح الثقافيّ والفكريّ الذي عرفه العرب، دخلت الإسلامَ والجماعةَ المسلمة شعوبٌ من كلّ الأجناس والألوان والحضارات، واكتسبت امتيازات الفاتحين العرب وحقوقهم نفسها. وقد رافق اندماج هذه الشعوب فهمٌ للأفكار الجديدة واستيعابٌ لها. وهكذا، فإنَّ عناصر تنتمي إلى الإديان التوحيديَّة السابقة للإسلام (اليهوديَّة والمسيحيَّة)، وإلى الديانات الفارسيَّة، والأساطير القديمة، والتأمُّلات الفلسفيَّة اليونانيَّة، دخلت جميعها الحضارةَ الإسلاميَّة والنسقِ الفكريّ الإسلاميّ، وبدرجاتٍ متفاوتةٍ من الأهمِّيَّة والنفوذ، وتشكَّلت في قالب اللُّغة العربيَّة.

وإنَّ بعضاً من هذه العناصر القديمة غير الإسلاميَّة، والتي استوعبها الإسلام، قد انتقلت من خلال الشيعة الإسماعيليَّة، واستمرَّت ما يكفي من الزمن لكي تجد نفسها في قلب النظام العقيديّ الدرزيّ. وعلى الرغم من أنَّها صيغت بشكلٍ يُسهِّل عمليَّة ذوبانها في تلك الأنساق العقيديَّة الجديدة ويُسهم في تكوُّنها كعقيدةٍ مستقلَّةٍ متماسكة، إلاَّ أنَّ اقتفاء أثر جذورها وتحديدها سهل المنال. فإلى جانب العناصر الأكثر قِدَماً والموروثة عن التشيُّع الإسماعيليّ، بانت تأثيراتٌ دينيَّةٌ هنديَّة، وفارسيَّة[1]، وهرمسيَّة[2]، وأيضاً عناصر توحيديَّة. وامتلكت كلّ هذه التيَّارات الدينيَّة المؤثِّرة موضوعاً ناظماً واحداً، على الرغم من التنويعات العقيديَّة فيما بينها،ألا وهو طابعها التوليفيّ أو التوحيديّ. وشكَّلت الشخصيَّات المركزيَّة لهذه التيَّارات الدينيَّة، أكانوا حكماء الهند أو مصر أو اليونان الأقدمين، أو أنبياء الديانات التوحيديَّة، «أنواراً مشعَّة من النبع... الذي هو ينبوع كلّ الأنوار»[3]، وحاملي الرسالة الإلهيَّة. فأمسى هؤلاء هُداةً إلى طريق المعرفة الحقَّة لله عزَّ وجلّ.

---

1. حيث ثنائيَّة الخير والشرّ.
2. الهرمسيَّة هي توليفةٌ غنوصيَّةٌ باطنيَّة من العناصر اليونانيَّة والمصريَّة. رمزها الأساس هرمس رسول الآلهة.
3. نجلا عزّ الدين، الدروز، ليدن، 1993، (بالإنكليزيَّة)، ص. 121.

وتدفعنا الطبيعة الخاصَّة بكلّ واحدٍ من تلك الشخصيَّات إلى التفكير، بلا ريب، بالدور الخاصّ الذي يلعبه الإمام في الحركات الشيعيَّة والإسماعيليَّة. فإذا كانت الديانات التوحيديَّة الثلاث، اليهوديَّة والمسيحيَّة والإسلام، تجعل الأنبياء مُبَلِّغي الرسالة الإلهيَّة، فإنَّ العقيدة الشيعيَّة، إسماعيليَّةً كانت أم اثني عشريَّةً أم غيرهما، قد جعلت الأئمَّة «مستودع» تلك الرسالات. ويرتبط هذا الدور بشكلٍ وثيق بالطابع العرفانيّ والتوليفيّ الباطنيّ المستوحى من بعض الديانات القديمة، وبخاصَّةٍ الغنوصيَّة التي تعتبر ذاتها المعرفة الحقيقيَّة الموصِلة الى الحقائق الإلهيَّة، في تركيزها على ثنائيَّة الخير والشرّ.

وتقوم قواعد العرفان على السعي أو الكدح إلى معرفة حقيقة اللّٰه، التي لا يمكن بلوغها إلاَّ عبر حياة تقشُّفٍ وزُهدٍ تحرِّر النفس من شهوات المادَّة والجسد. وبالتالي، يتحقَّق خلاص الإنسان بالعرفان، أي بالمعرفة الصحيحة للحقائق الإلهيَّة. والعرفان هو معرفةٌ تختلف عمَّا يختبره جمهور الناس أو العوام، وتسمو عليه. وبغية التمايز عن المعتقد السُّنِّي الرسميّ الذي يحترم المعنى الظاهر للقرآن، طوَّرت العقائد الشيعيَّة، وخصوصاً الإسماعيليَّة، فكرة أنَّ المعرفة الحقَّة للحقائق الإلهيَّة تكمن في المعنى الخفيّ أو الباطن - من هنا التمييز بين السُّنَّة المتمسِّكين بحرفيَّة النصّ، وهم «أهل الشريعة» ؛ والشيعة المتمسِّكين بالتأويل وهم «أهل الطريقة» - من هذا المنطلق يتمتَّع الإمام المعيَّن وحده من قبل اللّٰه، والموكول إليه عِلم التأويل الصحيح للمعنى الباطنيّ، بأهليَّة تفسير القرآن وفق تعدُّد مستويات قراءته وفهمه، ومراتبهما. ويتوجَّب عليه بصفته قائداً روحيّاً، أي هادياً إلى طريق المعرفة الحقَّة للّٰه، أن ينقل هذه الرسالة الإلهيَّة ويشرحها للأتباع وفقاً لمستواهم الروحيّ واستعدادهم للفهم والتلقِّي. على أنَّ تلقِّي الرسالة الإلهيَّة وفهمها يستوجبان شروطاً ومستلزماتٍ مسبقةً لدى المؤمن. من هنا، فإنَّ غالبيَّة الفِرَق المنبثقة عن العقيدة الشيعيَّة والإسماعيليَّة، والتي أدخلت في تعاليمها عناصر عرفانيَّةً باطنيَّة، فرضت على أتباعها درجاتٍ مختلفةً من الاستعداد الذاتيّ المعنويّ، ومن المجاهدة الروحيَّة في طريق الوصول إلى الحقيقة.

والإسماعيليَّة التي وُلدت من رحم التشيُّع، بالغت في دمج العناصر العرفانيَّة الباطنيَّة والمسلكيَّة واستيعابها، ما أدَّى غالباً إلى وسمها بالشيعيَّة المتطرِّفة (أو غُلاة الشيعة). وبحسب عقائد هذه الفرقة فإنَّ الأئمَّة والخلفاء الفاطميِّين هم القادة الهُداة المعصومون للبشريَّة جمعاء، والمفسِّرون والمؤوِّلون لمعنى الوحي القرآنيّ الباطنيّ، والحرَّاس الحقيقيُّون للإسلام في وجه الخلافة السُّنِّيَّة في بغداد. وبما أنَّ المسلك التوحيديّ الدرزيّ قد نشأ وتبلور داخل الإسماعيليَّة الفاطميَّة، فقد ارتكز إلى هذا الإرث الروحيّ الخاصّ، محافظاً على الإضافات العرفانيَّة-الغنوصيَّة، الباطنيَّة والمسلكيَّة، لا بل مضاعفاً من قوَّتها وأهمِّيَّتها، الأمر الذي منح الدرزيَّة سمعة أنَّها ديانةٌ توليفيَّةٌ باطنيَّةٌ مغالية. غير أنَّ الموحِّدين الدروز لم يبنوا سعيهم إلى الحقيقة الإلهيَّة وبحثهم عنها، على المعنى الباطنيّ للقرآن فقط، بل استندوا أيضاً إلى كتب خاصَّةٍ بهم، من مثل كتب الحكمة. وهي مجموعةٌ من الرسائل كتبها الدُّعاة الدروز إلى الأتباع، وهي بمثابة تفسيرٍ للتراث الإبراهيميّ وتأويلٍ له، مع الاعتماد على التصوُّف من جهة، وعلى الفلسفة الإغريقيَّة من جهةٍ أُخرى، اتِّباعاً للتراث الإسلاميّ الباطنيّ. ويُحظَّر على غير الموحِّدين الدروز الاطِّلاع على هذه الكتب. كما أنَّ تفسيرها لا يجوز إلاَّ للسالكين منهم. وهذا أثرٌ صوفيٌّ عرفانيٌّ لم يقتصر على الباطنيَّة الإسلاميَّة، بل تعدَّاها إلى بعض المفكِّرين السُّنَّة كالغزالي مثلاً، وقوله في مشكاة الأنوار «صدور الأحرار قبور الأسرار»[4]، أو العُقَّال أي الداخلين المقبولين في المسلك العرفانيّ الخاصّ مع كلّ متطلِّباته، بحيث إنَّ «الحقائق» المتضمَّنة في تلك الكتب تتكشَّف لهم رويداً رويداً، كلَّما أوغلوا في مسعاهم الروحيّ وتقدَّموا في مستويات مسلكهم. وإنَّ الشروط المحدِّدة لِمَن له حقّ «الدخول» إلى المسلك (العُقَّال) مستوحاةٌ من ضروراتٍ مسلكيَّة، خصوصاً وأنَّ القاعدة المتَّبعة عند كبار «المشايخ» قائمةٌ على وحدة القول والعمل، أي وحدة المعرفة والسلوك، والتحقُّق يتأتَّى ثمرةً للتوازن الروحيّ الناجم عن هذه الوحدة.

---

4. الدكتور سامي مكارم، **العرفان في مسلك التوحيد (الدرزيَّة)**، لندن، مؤسَّسة التراث الدرزيّ، 2006.

وبعكس الشيعة والإسماعيليَّة، فإنَّ لكلّ شيخ الحقّ في تفسير النصوص الدينيَّة التي وضعها الأئمَّة، شرط أن يعتمد في تفسيره على النصّ. والرسالة الدينيَّة لدى الموحِّدين الدروز ليست مقصورةً على الإمام، بل يستطيع كلّ «شيخ» وكلّ مؤمن عاقلٍ سالك الطريقة، تأويلَها. من هنا، يتأكَّد أنَّه لم يكن لدى الموحِّدين الدروز أئمَّةٌ إلاَّ بصورةٍ استثنائيَّةٍ، إذ إنَّ الإمامة التأويليَّة خُتمت بالإمام الفاطميّ السادس. ولم يحمل هذا اللقب سوى الحدود الخمسة الأوَّلين لعقيدة الحاكم، وهم: حمزة بن عليّ، وإسماعيل بن محمَّد التميميّ، وأبو عبدالله محمَّد القريشيّ، وأبو الخير ابن عبد الوهَّاب السابق، وبهاء الدين المقتنى، وذلك طوال المرحلة الأولى من الدعوة الدرزيَّة، في مطلع القرن الحادي عشر للميلاد. وحمل اللقب أيضاً، السيِّد جمال الدين عبدالله التنُوخيّ في القرن الخامس عشر للميلاد. وورث الموحِّدون الدروز قواعد التفسير عن هؤلاء الأئمَّة الأوائل، النوَّاب الخمسة للحاكم. وقام الأمير التنُوخيّ وغيره من المشايخ الأجلاَّء، بتفسير العقائد التوحيديَّة، بهدف توضيح المسلكيَّات فقط، وليس لغرض التفسير بذاته.

ويفسِّر غيابَ أئمَّةٍ لدى الموحِّدين الدروز المبدأُ الدينيّ الذي جعل بين الدرزيَّة والإسماعيليَّة الفاطميَّة قطيعةً كاملة. وعلى الرغم من كونهم معيَّنين بالنصّ الإلهيّ ومعصومين، فإنَّ الخلفاء والأئمَّة الفاطميِّين عجزوا ادِّعاء أيّ طبيعةٍ إلهيَّة. وفي زمن الحاكم، انشقَّت مجموعة الأتباع الذين سيؤلِّفون ما سيُعرف لاحقاً بالدرزيَّة، عن الدعوة الفاطميَّة الرسميَّة في القاهرة، حين أعلنوا أنَّ الحاكم له طبيعةٌ أسمى من طبيعة بقيَّة الأئمَّة، وتوقَّفوا عن الاعتراف بإمامة خَلَفه. وتجاوزت هذه الدعوة، وفقاً لبعض التفسيرات، الأدوار العاديَّة للإمام كرسولٍ ومستودعٍ للرسالة الإلهيَّة. وحين غاب الخليفة الحاكم حملت الدعوة الشيعيَّة فالإسماعيليَّة، ومن ثَمَّ الدرزيَّة بُعداً جديداً عُرف بـ«المسيحانيَّة»، وهي عقيدة انتظار قدوم المسيح المخلِّص في آخِر الزمان، ويقابلها لدى الشيعة «المهدويَّة».

وتحوَّل انتظار عودة المسيح، ذو المنشإ اليهوديّ-المسيحيّ، فكرةً مركزيَّةً في العقيدة الشيعيَّة، تبلورت حول شخصيَّة الإمام. يقوم هذا المعتقد على مقولة عودة

قائد روحيٍّ يحمل صفاتٍ تفوق الطبيعة، وينتظره المؤمنون ليوم الخلاص. وهكذا ترقَّبت معظم الفِرَق الشيعيَّة قدوم المهديّ، وهو آخر الأئمَّة من بيت النبوَّة، قبل قيام الساعة، لكي يملأ الدنيا عدلاً بعد أن امتلأت ظلماً وجوراً. هذا المعتقد الذي أعطى المؤمنين الشيعة المضطهَدين من قبل الأُمويِّين والعبَّاسيِّين، شعوراً بالأمان والراحة، قد دخل إلى الإسماعيليَّة، ومن ثَمَّ إلى العقائد الدرزيَّة مع بعض التمايزات. وصار الانتظار المسيحانيّ أو المهدويّ، عند الموحِّدين الدروز، يتمحور حول شخص الخليفة الحاكم الذي قالوا بأنَّه لم يمت أو يُقتل، وإنَّما «غاب». والغيبة تعني مغادرة عالم الأحياء هذا، دون أن يعني ذلك الموت أو الفناء. وإنَّ عودته الأكيدة، والتي ينتظر الموحِّدون الدروز حصولها حتَّى يومنا هذا، ستكون إيذاناً بنهاية الزمان وبحصول الخلاص لكلّ المؤمنين الحقيقيِّين.

بالإضافة إلى العناصر الدينيَّة المأخوذة من تيَّاراتٍ قديمة العهد، فإنَّ التيَّارات الإسماعيليَّة والدرزيَّة دمجت في تعريفها الخاصّ للكون عناصر مستقاةً من الفلسفة اليونانيَّة الأفلاطونيَّة والأريسطوطاليسيَّة، وإلى حدٍّ ما من الأفلاطونيَّة المحدَثَة[5]. فقد تمثَّلت الأفلاطونيَّة المحدَثَة اللهَ في صورة المطلق المتعالي الذي لا يدركه العقل أو الفكر أو اللُّغة. ورأت أنَّ الكون والخلق ليسا سوى تتابع فيوضاتٍ من مبادىء نابعةٍ من الله. وكان الإسماعيليُّون الذين عُرفوا بتشدُّدهم في أمور التوحيد، حسَّاسين جدّاً حيال تلك الأفكار وذلك التعريف الذي أُعطي لله. من هنا، استيعابهم اللاَّهوتيّ لفكرة التسامي المطلق لله، واستحالة أن تدركه العقول البشريَّة. وربَّما مثَّلت أفلاطونيَّة الإسماعيليَّة سبباً من أسباب دفع الموحِّدين الدروز إلى الانشقاق عنها.

وجدت هذه العقائد مكانها داخل الدرزيَّة، إضافةً إلى المصطلحات التي استخدمها أفلاطون، والتي تصف الله بالواحد أو الخير، والتي غالباً ما نجدها في المصادر الدرزيَّة. واحتفظ الموحِّدون الدروز، من حيث المبدإ، بالتعريف

5. فلسفةٌ تأسَّست في القرن الثالث الميلاديّ، على يد أفلوطين (ت. 270 م.)، كامتدادٍ للتراث الفلسفيّ اليونانيّ القديم، وتطويرٍ له، وبشكلٍ خاصّ للفلسفة الأفلاطونيَّة.

الأفلاطونيّ المحدَث للكون، مع بعض الصقل ليناسب رؤيتهم الخاصَّة لأصل الكون والخلق والوجود. فالله، بحسب العقيدة الدرزيَّة، خلق بإرادته الخاصَّة «العقل الكليّ» الذي أعطى بدوره «النفس الكلِّيَّة». وهكذا وُلدت على التوالي خمسة مبادىء كونيَّةٍ كبرى، أتى كلّ واحدٍ منها من سابقه. فبعد العقل الكليّ والنفس الكلِّيَّة، ولدت «الكلمة»، ومنها «السابق»، ثمَّ «التالي»، وتتابعت هذه الفيوضات حتَّى وصلت إلى العالم المادِّيّ والكائنات التي تسكنه، والخلق بدوُ الحقّ ﴿اللهُ لطَّفَ ذاتَهُ فَسَمَّاهَا حقّاً وكَثَّفَ ذاتَهُ فَسَمَّاهَا خَلْقاً﴾. إنَّ نسبة التجلِّي الوجوديّ إلى الواحد الأحد كنسبة الدائرة إلى نقطة مركزها ﴿وإذا قضى أمراً فإنَّما يقولُ لَهُ كُنْ فيكون﴾[6]. فمعرفة العلَّة الأولى ومعرفة علل الكائنات هي أمر الله وإرادته وقضاؤُه وقوله ﴿إنَّما أمرُهُ إذا أرادَ شيئاً أن يقولَ لَهُ كُنْ فيكون﴾[7]. العقل الكلِّيُّ هو أمرٌ أو إرادة شيء، ومصدر فعل شاء والمشيئة هما النفس الكلِّيَّة، والقول هو الكلمة، وكُن السابق، فيكون التالي. وعلى عكس المسيحيَّة والإسلام، وبسبب من تأثير الفلسفات الإغريقيَّة، اعتبر الموحِّدون الدروز أنَّ العالم قديمٌ جدّاً، وأنَّه مرَّ 343 مليون سنة ما بين خلق هذه المبادىء الكونيَّة الخمسة الأولى وخلق الإنسان. ثمَّ إنَّهم طابقوا ما بين هذه المبادىء الخمسة وحدود الوجود الخمسة ودُعاتهم، وهم الداعية الكبير حمزة، ومساعدوه الدُّعاة : التميميّ والقريشيّ والسابق والمقتنى.

وانطلاقاً من هذا التعريف للكون قالت العقيدة الدرزيَّة بأنَّ النفس خالدة، والجسد المادِّيّ وحده الذي يموت. وفي تفسير خاصٍّ لبعض آيات القرآن الكريم توصَّل البعض إلى الكلام عن التقمُّص. فكان أن استوعبت العقائدُ الدرزيَّة نظريَّةَ انتقال الروح ذات الأصل الآسيويّ، مع التأكيد على أنَّ كلّ كائنٍ بشريٍّ لا بدَّ أن يتقمَّص بعد موته في جسد مولودٍ بشريٍّ جديدٍ أيضاً، وبالتحديد. فالموحِّدون الدروز يتقمَّصون داخل جماعتهم، بما أنَّ الروح عندهم هي، كما ورد في القرآن،

---

6. سورة البقرة، الآية 117.

7. سورة يس، الآية 82.

من ﴿أمر ربِّي﴾[8]، لذلك فهي من الإنسان كالمعنى من العبارة. كما أنَّ المعنى لا يمكن إلاَّ أن يتمظهر بعبارةٍ ما، يعتقد الموحِّدون الدروز أنَّ هذا المعنى أي الروح، يجب أن يتمظهر بالجسد ليرتقي بالمعرفة. وبذلك يستأهل كلّ مؤمنٍ فرصةً جديدةً ليواصل بحثه عن الحقائق الإلهيَّة في حيواته المتتالية، حتَّى يبلغ خلاصه في آخر الزمان. وبما أنَّ الموحِّدين يعتقدون أنَّ التوحيد هو أرقى درجات المعرفة، فقد استخلص مَن يعتقد بالتقمُّص أنَّ الموحِّد، وإن أراد الاستمرار في ارتقائه يتوجَّب عليه أن يولد موحِّداً بالقوَّة. أمَّا عناوين الكرامة البشريَّة، والقابليَّة لتلقِّي الحقائق المخفيَّة، أي الصفات التي ينبغي أن يتحلَّى بها المؤمنون، والتي تفسِّر الدرجات المختلفة لعمليَّة التأهيل والدخول إلى المسلك عبر طريق العرفان، فنجدها مستلَّةً من الفلسفة الفيثاغوريَّة.

وتشكِّل العقائد الدرزيَّة، في الخلاصة، مسلكاً صوفيّاً باطنيّاً عرفانيّاً مسيحانيّاً ذي منشإٍ وقواعد توحيديَّة، على الرغم من وجود عناصر مستقاةٍ من الفلسفة الإغريقيَّة. ويعتقد أتباع الدرزيَّة أنَّ عقيدتهم تتويجٌ نهائيٌّ للعقائد القديمة، تلك العقائد التي أخذتها اليهوديَّة والمسيحيَّة، ومن ثَمَّ الإسلام، وطوَّرتها لاحقاً الدعوة الشيعيَّة وحدَّدتها أكثر الدعوة الإسماعيليَّة، لكي تجد خاتمتها وكمالها عند الموحِّدين الدروز. وهي عقيدة تهدف إلى البحث عن المعرفة الحقَّة لله الذي يوصف في المصادر الدرزيَّة، بالواحد الأحد. ونظراً إلى كلّ تلك العناصر التوحيديَّة القويَّة الشاخصة في عقيدتهم، فقد أطلق الدروز دوماً على أنفسهم اسم «الموحِّدين»، ومن غير الإمكان إيجاد تسميةٍ أُخرى لهم في كتب الحكمة. ولأنَّهم يعتبرون أنفسهم حَمَلة المسلك الدينيّ المكتمل والإيمان الصحيح، فقد سمُّوا أنفسهم أيضاً «أهل الحقيقة» أُسوةً بتسمية السُّنَّة «أهل الشريعة»، والشيعة «أهل الطريقة».

وفي مطلع القرن العاشر الميلاديّ، عمل الدعاة الفاطميُّون على نشر هذه العقائد

8. سورة الإسراء، الآية 85: ﴿ويسألونَكَ عن الروحِ قُلِ الروحُ من أمرِ ربِّي وما أُوتيتم من العِلْم إلاَّ قليلاً﴾.

في كلّ الشرق الأوسط حتّى الهند. فوجدوا صدًى إيجابيّاً في سوريا الشماليّة، كما في مناطق من جبل لبنان والسلسلة الشرقيّة، وفي دمشق وشماليّ فلسطين. غير أنَّ باب الدعوة والدخول في المسلك الدينيّ الجديد لم يُفتح إلاَّ خلال مرحلةٍ محدَّدة : من سنة 408 هـ. (1017 م.)، وهو عام الإعلان العلنيّ عن العقائد الدرزيَّة، وحتَّى عام 434 هـ. (1043 م.)، حينها توقَّف آخِر الدُّعاة الرئيسيِّين عن الدعوة والتبشير وإرسال الرسائل إلى أتباعه. وعند نهاية هذه المرحلة والدعوة النشطة، أخذ كلُّ موحِّدٍ على نفسه وأمام الجماعة الدرزيَّة ميثاقاً، عُرف باسم العهد في التراث التأويليّ الشيعيّ، ومن المفروض أن يظلّ رمز انتمائه إلى الجماعة حتَّى آخِر الزمان، أي حتَّى عودة الحاكم.

الغاية من الكتاب

يكفي اليوم، ذكر اسم طائفة الموحِّدين الدروز حتَّى يراود ذهن الناس عددٌ من الصور الجاهزة والأفكار المسبقة والمعطيات التي لا أساس لها من الصحَّة، أَتعلَّق ذلك بمعتقدات الطائفة أم بواقعها التاريخيّ والاجتماعيّ. ومن بين الخصائص المميِّزة التي يشتهر بها الموحِّدون الدروز عن غيرهم نورد على سبيل المثال لا الحصر : السرِّيَّة المفرطة في حراسة العقائد وعدم كشفها، والاعتقاد بالتقمُّص[9]، والانتشار في الجبل، وعدم خضوع أتباع الطائفة لأيّ سلطة، وسمعتهم كمحاربين أشدَّاء. بالإضافة إلى ذلك تشتهر طائفة الموحِّدين بالشخصيَّات التاريخيَّة التي وسمت السيرورة السياسيَّة في هذه المنطقة من مثل الأمير فخر الدين، سلطان باشا الأطرش، والزعيم كمال جنبلاط ونجله وليد، وهؤلاء على أهمِّيَّتهم لا يمكن أن يختزلوا تاريخ الموحِّدين الدروز وواقعهم المعاصر.

أمَّا الغاية من هذا الكتاب فهي المساهمة في تصويب هذه المقاربات التبسيطيَّة، ورفع الحجاب الثقافيّ عن حقيقة طائفة الموحِّدين، عبر مقاربةٍ ثقافيَّةٍ معاصرةٍ

9. ينبغي التمييز في التقمُّص بين ما هو اعتقادٌ شعبيٌّ، وما هو معتقدٌ شرعيّ.

تحاول أن تُحدِّد الحقائق، وتكشفها قدر الإمكان، أو أن تُعيد بكلّ بساطةٍ، توضيحها وتمييزها عن الصور المسبقة والأفكار الجاهزة. وتتحقّق هذه المقاربة من خلال الإضاءة على حياة طائفة الموحِّدين في مختلف أوجهها : الثقافيَّة والاجتماعيَّة والقانونيَّة والسياسيَّة والتاريخيَّة. فليس من أهداف الكتاب تناول العقيدة الدرزيَّة، احتراماً لفروض العقيدة نفسها، على الرغم من أنَّ غاياته تطلَّبت استهلاله بمقدِّمةٍ تضع القارىء في صورة الإرث الدينيّ والروحيّ للطائفة، بهدف مساعدته على فهم روح الطائفة، والتعريف بها، وتحديد موقعها على خارطة طوائف الشرق الأوسط. ولن يكون من غاياتنا بالطبع، تقديم سردٍ تاريخيٍّ تفصيليٍّ بالأحداث والوقائع، بل سنكتفي بالتوقُّف عند تلك التي كان لها تأثيرٌ مهمٌّ على لبنان المعاصر عموماً، وعلى طائفة الموحِّدين الدروز خصوصاً.

وفي الختام، نضع هذا المؤلَّف بين يدي القارئ، بهدف إيضاح معطياتٍ تسمح له بإعادة اكتشاف المجتمع الدرزيّ المعاصر، وبفهم حقيقته وواقعه بصورةٍ أفضل. أمَّا المبتدئون فيقدِّم لهم هذا المؤلَّف جملةً من الموضوعات عولجت بأسلوبٍ منهجيٍّ يحمل ما يكفي من المعلومات لتعريفهم بالطائفة الدرزيَّة اللبنانيَّة، بالإضافة إلى مقارباتٍ ومنافذ للتفكير النقديّ والبحث العلميّ في حال رغبوا في التعمُّق في بعضها. أمَّا السالك طريق الحقيقة فيطرح الكتاب عليه إثراء بحثه وسعيه من خلال نظرةٍ جديدةٍ لواقع الموحِّدين الدروز اللبنانيِّين وفهمٍ أفضل لمجتمعهم.

الفصل الأوّل

الجغرافيا البشريَّة

طوال مرحلة «فتح باب الدعوة» (408-434 هـ.)، انتقلت الدرزيَّة ببطءٍ من كونها مسلكاً دينيّاً لتصبح جماعةً بشريَّةً محدَّدة الملامح والخصائص، استقرَّت أساساً، في الجبال اللبنانيَّة. وخلال زمنٍ قصيرٍ من انشقاقهم عن الدعوة الإسماعيليَّة الفاطميَّة مطلع القرن الحادي عشر، صار للموحِّدين الدروز عقيدةً إيمانيَّةً احتفظوا بها في السرّ، عملاً بمبدإ التقيَّة[1]، ما سمح لهم بالحياة والاستمرار كأقلِّيَّة دينيَّة. ومع أنَّهم تشكَّلوا منذ البداية كطائفةٍ واحدةٍ موحَّدةٍ ومتجانسة، إلاَّ أنَّ تقلُّبات الدهر وظروف الزمان والمكان، خصوصاً مع نشوء الدول ذات الحدود المرسومة، أدَّت إلى تشتُّتهم وتوزُّع انتشارهم جغرافيّاً. وفرض التمايز التدريجيّ بين جماعاتٍ درزيَّةٍ لبنانيَّةٍ وسوريَّةٍ وفلسطينيَّةٍ نفسه شيئاً فشيئاً على مختلف المستويات التاريخيَّة والقانونيَّة والسياسيَّة. وعلى الرغم من ذلك، وبغضّ النظر عن الهوِّيَّات الوطنيَّة للجماعات الدرزيَّة، فهم يشكِّلون دوماً طائفةً دينيَّةً واحدةً، من حيث العقائد والعادات وأشكال التنظيم الاجتماعيّ.

---

1. هو مبدأٌ دينيٌّ إسلاميٌّ عامٌّ عند السُّنَّة والشيعة وغيرهم على السواء، بأن يكتموا إيمانهم إمَّا خوفاً منه، وإمَّا خوفاً من تهديد، وإما خوفاً عليه، إذ إنَّ إعطاء المعرفة لِمَن لا يستحقُّها يضرّ بالمعطى، فيجعله يشكّك في ما يعتقده دون أن يجعله يقتنع روحيّاً وعرفانيّاً بما يعطى له. ويسمح للمؤمنين، وخصوصاً الشيعة منهم، بإخفاء معتقداتهم حين يكون إظهارها وسط محيطٍ معادٍ سبباً لتهديد سلامتهم وأمنهم. راجع د. سامي مكارم، **التَّقيَّة في الإسلام**، لندن، منشورات مؤسَّسة التراث الدرزيّ، 2004.

ولمَّا كانت موضوعات هذا المؤلَّف تتعلَّق بدروز لبنان، فإنَّنا وجدنا من المفيد، بدايةً، أن نعرض بلمحةٍ سريعةٍ، التراث الروحيّ والدينيّ للموحِّدين الدروز عموماً، مخصِّصين الفصلَ الأوَّل للبحث في الجغرافيا البشريَّة للموحِّدين الدروز على امتداد الخريطة العالميَّة، بهدف أن تُتاح للقارئ إمكانيَّة فهم دروز لبنان وأوضاعهم على حقيقتها، ضمن إطار الشرق الأوسط. ومن الضرورة بمكانٍ أن نحدِّد، استهلالاً، مدى انتشارهم وتوزُّعهم الديموغرافيِّين، بغية موضعة طائفة الموحِّدين الدروز في لبنان، تمهيداً لدراسة مختلف خصائصها. وسنتناول في الفصل الأوَّل أيضاً، الموحِّدين الدروز في لبنان، في قسم يعرض بنيتهم الاجتماعيَّة والدينيَّة التي يتشاركون فيها مع إخوانهم السوريِّين والفلسطينيِّين، مؤكِّدين على أنَّ تماسك هوِّيَّة أيّ أقلِّيَّةٍ دينيَّةٍ وقوَّتها تتحدَّدان من خلال تلك البُنى.

1. الأصل الإثنيّ

في النصف الأوَّل من القرن الحادي عشر، حقَّق الدُّعاة المرسَلون من مصر والمكلَّفون نشر الدعوة نجاحات كبيرةً في بلاد الشام، أي المنطقة التي تشمل دول سوريا ولبنان وفلسطين والأردنّ. وقد تشكَّلت أُولى الجماعات الدرزيَّة في المناطق الجبليَّة المحاذية للساحل السوريّ، وأبناؤها ما زالوا متجذِّرين فيها بقوَّةٍ إلى اليوم. وتعود أُصولهم الإثنيَّة إلى تلك المناطق التي ارتبط بها تاريخهم. وتجدر الإشارة إلى أنَّ هؤلاء لم يشكِّلوا «جماعة» مكتملةً سوى لحظة قبولهم الدعوة الدرزيَّة، وانتسابهم إلى مسلكها ومجموع عقائدها. وقد كانوا قبل ذلك جماعةً من أهالي بلاد الشام، سكَّاناً أصليِّين أم مقيمين فيها منذ أجيالٍ عدَّة. وحين فُتح باب الدعوة في مطلع القرن الحادي عشر، كانت القبائل العربيَّة قد تغلغلت بشكلٍ كبيرٍ في سوريا، وذلك منذ ما قبل أيَّام الهجرة النبويَّة والفتوحات الإسلاميَّة.

تأسَّست الجماعات الدرزيَّة الأولى إذاً، وسط القبائل العربيَّة، أو وسط قبائل كانت قد تعرَّبت بشكلٍ واسع. وتميل الدراسات التاريخيَّة إلى التأكيد على أنَّ الموحِّدين الدروز ينتسبون بمعظمهم إلى القبائل العربيَّة الأساسيَّة الكبيرة الاثنتي

عشرة، وعلى وجه التحديد هم يتحدَّرون من قبيلة تنُّوخ المتحدِّرة، بدورها، من قبيلة لخم الكبيرة، وقد استوطنت هذه القبيلة بين حلب وحماه في أوائل عهود الإسلام. وبحسب بعض المصادر الدرزيَّة فإنَّ أفخاذاً من التنُّوخيِّين استوطنوا، زمن الرسول، منطقة الغرب إلى الجنوب من جبل لبنان، والجبال المحيطة ببيروت. ومن تنُّوخ جاء الأرسلانيُّون ثمَّ آل بحتر، وهما عائلتان إقطاعيَّتان كبيرتان بقيتا على رأس الطائفة الدرزيَّة طوال العصور الوسطى.

وينحدر الموحِّدون الدروز أيضاً، من قبيلة ربيعة العربيَّة التي منها جاء آل معن، والتي حين طردها الصليبيُّون من شماليّ سوريا لجأت إلى جنوبيّ جبل لبنان حيث آل تنُّوخ، ونشأت علاقات قويَّة بين القبيلتين. وصار آل معن قادة الموحِّدين الدروز في القرن الرابع عشر، ووصلت سلطتهم إلى ذروة مجدها أيَّام الأمير فخر الدين الثاني. ولا نستطيع اليوم إلى أيّ مدًى كانت المناطق الجبليَّة التي دخلتها تلك العائلات الإقطاعيَّة الدرزيَّة مسكونةً سابقاً، كما الأصول الإثنيَّة لسكَّانها. إنَّما ما لا يدعو إلى الشكّ هو أنَّ هؤلاء السكَّان تعرَّبوا حتماً كما حصل لكلّ بلاد الشام، وقبلوا لاحقاً الدعوة الدرزيَّة.

2. التوزيع الجغرافيّ الحاليّ

ظلَّ الموحِّدون الدروز، وعلى الرغم من توزُّعهم في كلّ أنحاء العالم، يتمركزون بشكلٍ رئيسيٍّ ضمن كُتَلٍ ديموغرافيَّة كثيفةٍ في الشرق الأوسط، في لبنان وسوريا خصوصاً، وبنسبةٍ أقلّ في فلسطين والأُردنّ. أمَّا من الناحية التاريخيَّة فتشير المصادر إلى أنَّهم سكنوا غالباً المناطق الجبليَّة الوعرة الصعبة المنال، وشكَّلوا فيها جماعاتٍ متجانسة. واختيار العديد من الأقليَّات الدينيَّة استيطان الجبال-الملاجىء سمح لها، ومنذ تشكُّلها، بأن تحفظ نفسها من العالم الخارجيّ، وأن تفلت من حملات الاضطهاد التي شنَّتها السلطات الرسميَّة. زد على ذلك أنَّ المناطق الجبليَّة الموازية للساحل السوريّ شكَّلت حاجزاً طبيعيّاً حقيقيّاً في وجه الغزوات الخارجيَّة لا سيَّما البيزنطيَّة ثمَّ الصليبيَّة، حيث تولَّى الموحِّدون الدروز الدفاع عن الثغور في الجبال

الغربيَّة ضدَّ الهجمات. ثمَّ إنَّ تكامل الموانع الطبيعيَّة والأقلِّيَّات الجبليَّة المستقلَّة، والتي كان الموحِّدون الدروز الأكثر شجاعةً وحِدَّة مراس بينها، شكَّل حصناً منيعاً في الدفاع عن الدولة العربيَّة-الإسلاميَّة على مرّ العصور.

تنتشر مواطن الموحِّدين الدروز اليوم، على امتداد سلسلة الجبال الموازية للساحل الشرقيّ للبحر المتوسِّط، من شمالّي سوريا إلى شمالّي فلسطين المحتلَّة، مروراً بلبنان. ويُطلق على هذا التجمُّع الجغرافيّ الذي يتجاوز الحدود الرسميَّة للدول، اسم «بلاد الدروز»، وهو يمثِّل قلب الطائفة التاريخيّ. وتمتدّ هذه البلاد شمالاً حتَّى حدود جبل السمَّاق، وهي سلسلة جبليَّة تقع بين حلب وأنطاكية، حيث لا تزال توجد بعض القرى الدرزيَّة التي تصدَّت لهجمات البيزنطيِّين في حلب، كما تتمدَّد في قطاعها الأوسط انطلاقاً من القرى السوريَّة لوادي التَّيْم حتَّى سفوح جبل حرمون، وصولاً إلى فلسطين إلى الغرب من الجليل، وإلى منطقة صفد على سفوح جبل الكرمل حيث شكَّل الموحِّدون الدروز رأس حربةٍ في الدفاع عن القدس والداخل الإسلاميّ (الدفاع عن دار الإسلام). أمَّا جماعات «بلاد الدروز» الضاربة جذورها في تاريخ المنطقة وجغرافيَّتها وسياستها وثقافتها، فتنتشر في المناطق الجنوبيَّة لجبل لبنان، وتحديداً في مناطق الشوف والمتن وعاليه، إضافةً إلى منطقة وادي التَّيْم حيث تقع البلدتان الدرزيَّتان الكبيرتان حاصبيَّا وراشيَّا. وتعيش مجموعاتٌ درزيَّةٌ غير كبيرةٍ في محيط دمشق، وخصوصاً في منطقتي الغوطة وجرمانا، ومجموعاتٌ أُخرى في أنحاء حلب. ومن الضروريّ الإلماح في هذا السياق، إلى أنَّه، ومنذ الستينيَّات من القرن العشرين، انجذب القرويُّون الموحِّدون إلى حياة المدينة. ومثَّلت بيروت ودمشق، وما زالتا، مركز استقطابٍ لهم.

وتعيش اليوم أكبر الجماعات الدرزيَّة في «جبل العرب» - وهو تاريخيّاً «جبل الدروز» - الذي يُشرف على سهل حوران، جنوبيّ دمشق. ويشكِّل سكَّانه حوالى نصف عدد موحِّدي الشرق الأوسط. وتوطُّن الموحِّدون الدروز هناك أكثر حداثةً من التوطُّن في «بلاد الدروز»، إذ إنَّه نتج عن معركة «عين دارة» التي وقعت عام 1711 م. بين الحزبين الدرزيَّين آنذاك. بعدها، اختار المهزومون النـزوح عن مناطق

جبل لبنان، والتوطُّن في المناطق الجبليَّة من حوران التي كانت أقلَّ عمراناً وسكَّاناً وطيب مقام. وبسبب من أنَّ الموحِّدين الدروز شكَّلوا غالبيَّة سكَّان تلك المنطقة، فقد درجت العادة على تسميتها بـ «جبل الدروز». ولم تُستبدل تسميتها بـ «جبل العرب» إلاَّ في عهد الاستقلال السوريّ، عام 1946. وإبَّان ثورة الدروز الكبرى ضدّ الانتداب الفرنسيّ (1925-1927) هاجرت فئةٌ كبيرةٌ منهم جبل العرب، إلى الأُردنّ لتُقيم بشكلٍ أساسيّ في عمَّان والزرقاء.

كما أنَّ جماعاتٍ درزيَّةً عديدةً انتشرت خارج الشرق الأوسط بسبب الهجرة التي بدأت في القرن التاسع عشر، وخصوصاً إلى الأميركيَّتَين وأستراليا وغربيّ أفريقيا. وتحوَّلت هذه الهجرة التي بدأت بنـزوح أفراد من سوريا ولبنان، إلى حركة جماعاتٍ أقلَّ عدداً من أُصولها في الشرق الأوسط دون أن تفقد تماسكها. ويقيم دروز المهجر حاليّاً في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة وكندا وأستراليا. كما أنَّ هناك جالياتٍ كبيرةً في أميركا اللاَّتينيَّة، وخصوصاً في فنـزويلا والبرازيل والأرجنتين والمكسيك، وبنسبةٍ أقلّ في التشيلي وكولومبيا. وقد جذب التطوُّر الاقتصاديّ وفرص العمل المتاحة، العديد من الموحِّدين الدروز للهجرة إلى بلاد الخليج والسعوديَّة، إضافةً إلى غربيّ أفريقيا.

3. ديموغرافيا الموحِّدين الدروز

بالنظر إلى عدم توافر إحصائيَّاتٍ حديثةٍ في معظم البلدان العربيَّة، فإنَّ أيَّ إحصاءٍ تدقيقيٍّ لعدد الموحِّدين الدروز يبقى تقديريّاً. ففي لبنان الذي يقوم حكمه على التوازن الطائفيّ، وبالتالي على الوزن الديموغرافيّ لمختلف الطوائف، فإنَّ آخر إحصاءٍ جرى عام 1932، وتعود آخِر تقديراتٍ حكوميَّةٍ لمنتصف عام 1950. غير أنَّ المجلس الدرزيّ للبحوث والإنماء أطلق منذ عام 1980، مسحاً للعائلات والقرى الدرزيَّة بهدف دراسة نسب الولادات والهجرة. وفي سوريا، آخر تقديرٍ للتوزيع الطائفيّ للسكَّان جرى عام 1956. إلاَّ أنَّ إحصاءً رسميّاً جرى عام 1960، فصل الطوائف المسيحيَّة على حدة، في حين دمج بقيَّة الطوائف في الأغلبيَّة

الإسلاميَّة. وفي الأُردنّ، لا تعتبر الدولةُ الموحِّدين الدروز جماعةً منفصلةً ما ينفي إمكانيَّة ورودهم في الإحصاء الرسميّ. أمَّا في فلسطين المحتلَّة فنجد أنَّ التقدير الرسميّ للسكَّان الدروز يتمّ بصورةٍ منتظمة، ويعود هذا الانتظام إلى هاجس الحكومة الإسرائيليَّة في مراقبة ديموغرافيا الأقلِّيَّات في فلسطين المحتلَّة.

من هنا، فإنَّ الأرقام المتعلِّقة بعدد الموحِّدين الدروز هي على وجه العموم قديمةٌ جدّاً، ولا تعكس إذاً، الواقعَ الفعليّ. وبالتالي، فإنَّ أيّ بناءٍ للتقديرات الحاليَّة لا يقوم سوى على التحليل، واستخدام معطيات الإحصاءات القديمة المتعدِّدة كعيِّنةٍ يمكن إسقاط نتائجها على عملٍ بحثيٍّ ميدانيٍّ مباشرٍ وسط الطائفة الدرزيَّة، كما على شهاداتٍ لأشخاصٍ يعيشون في مناطق الموحِّدين الدروز أو زاروها. وعلى الرغم من صعوبة إنجاز مهمَّةٍ إحصائيَّةٍ بالتحليل والاستنتاج، وعلى الرغم من الاختلافات بين التحليلات والدراسات، فمن المؤكَّد أنَّ الموحِّدين الدروز يشكِّلون في البلاد التي يعيشون فيها أقلِّيَّةً دينيَّةً على الرغم من تماسكهم في جماعاتٍ موحَّدةٍ ومنسجمة. وهم لا يشكِّلون أكثر من 8 % من سكَّان لبنان، و3 إلى 4 % من سكَّان سوريا. وبحسب أعلى التقديرات يبلغ عدد الموحِّدين الدروز في الشرق الأوسط ما مجموعه أقلّ من مليون نسمة، منهم 400,000 إلى 500,000 نسمة في سوريا، أكثر من ثلاثة أرباعهم يعيشون في جبل العرب؛ وحوالى 280,000 إلى 350,000 درزيّاً في لبنان. والإحصاء الذي بدأه المجلس الدرزيّ للبحوث والإنماء عام 1980، قدَّر عددهم بحوالى 225,000 نسمة. وليسوا سوى أقلِّيَّةٍ صغيرةٍ في الأردنّ، تتراوح التقديرات حول عددها ما بين 5,000 و20,000 نسمة، في حين أنَّ الإحصائيَّات الرسميَّة في فلسطين المحتلَّة تشير إلى أنَّ عددهم هناك يبلغ 75,000 نسمة.

البُنى الدينيَّة والاجتماعيَّة

يعزِّز الانتماءُ إلى أقلِّيَّةٍ دينيَّةٍ التماسكَ والتضامنَ بين أعضائها، ويضاعف من قوَّة الشعور بالهوِّيَّة لديهم، ويخلق حاجةً إلى الاستناد إلى مرجعيَّةٍ ثقافيَّةٍ واحدةٍ، وإلى

مذهب دينيٍّ محدَّد. وطائفة الموحِّدين الدروز تمتلك بالتالي، بُنًى دينيَّةً واجتماعيَّةً خاصَّةً تجسِّد الترجمة الواقعيَّة لمشاعر هوِّيَّة الأقلِّيَّة. وإذا كانت البُنى الدينيَّة تُظهر تمسُّك الموحِّدين الدروز بثقافتهم وهوِّيَّتهم ومسلكهم أو مذهبهم الدينيّ، فإنَّ البُنى الاجتماعيَّة تُظهر تجانس أبناء طائفتهم وتماسكهم، وتكشف عن طبيعة علاقات التضامن القائمة فيما بينهم.

البُنى الدينيَّة

1. الخلوات

إن وجود بعض المساجد عند الموحِّدين الدروز كما سيلي بيانه، لا يسمح بالقول إنَّ لديهم ما يمكن تسميته بالأماكن الدينيَّة الخاصَّة بالعبادة مثل الكنائس عند المسيحيِّين أو المساجد عن المسلمين. عند الموحِّدين الدروز خلواتٌ، وهي جمع خلوة، والخلوة تعبيرٌ صوفيٌّ مأخوذٌ من الطرق الصوفيَّة. والخلوة ليست بمعنى المَحْبَسة حيث ينعزل المرء عن العالم متفرِّغاً للتأمُّل في كتب الدين، رافعاً الصلاة ومتعبِّداً. والخلواتي غير الحبيس. ويعتبر الموحِّدون الدروز الخلوات خير مكانٍ للاختلاء بالنفس في ظروفٍ بسيطةٍ متواضعةٍ بغية الاستطلاع الكامل لمقتضيات المسلك والتنشئة الدينيَّة الملازمة له.

وللخلوات نظامٌ داخليٌّ خاصّ. فتراها مقصورةً على الرجال، يؤمِّن فيها كلٌّ منهم نفقاته الخاصَّة. وقواعد الحياة في الخلوة دقيقةٌ وصارمة، تتميَّز بالجدِّيَّة المطلقة والسموّ الكامل. مع الإشارة إلى أنَّ أيّ مخالفةٍ للقواعد جزاؤها الإبعاد. وليس في الخلوة رئيسٌ ومرؤوس. وحدها الأعمال تضمن لقاصديها موقعهم ومستوى تشريفهم.

ويقوم النظام التربويّ التعليميّ للخلوة على حفظ كتب الحكمة، وتعلُّم قواعد السلوك الورع، وإحياء الطقوس والفروض الدينيَّة. وتُعتبر قراءة كتب الحكمة - وهي تتويجٌ لتاريخ التأويل - الممرّ المسلكيّ نحو الفضاء الروحيّ للنصّ القرآنيّ. وبالتطابق مع روح المسلك الدينيّ الدرزيّ وغايته، فإنَّ النظام التربويّ التعليميّ

للخلوات يتبع طريق الناس الورعين الزاهدين الأتقياء، وسُنَّتهم. ومن مهمَّة العلوم الدينيَّة توضيح واجبات الموحِّد، وتبيان منهجيَّة الصِّراط المستقيم والطريق الوسط، وهي تقوم على اعتبار أنَّ التقدُّم عقلانيٌّ طالما أنَّ التوحيد يرتكز على تأمُّل النور والعقل معاً. وختاماً، تتمّ عمليَّة التعلُّم والتنشئة الدينيَّة للموحِّدين الذين يختارون حياة الخلوات، بمراجعة سيرة الأتباع المخلصين المتقدِّمين والسابقين في المسلك، والتعلُّم منهم ومن المعارف التي لديهم.

لكلّ منطقةٍ درزيَّةٍ خلوتها الخاصَّة. ومن أبرز الخلوات في لبنان، خلوات القطالب في الشوف، وخلوات البيَّاضة الموجودة على تلَّةٍ جنوب-غرب حاصبيًا. تأسَّست أوَّل خلوةٍ في البيَّاضة في القرن السابع عشر، على يد الشيخ سيف الدين شعيب، وينوف عدد خلوات البيَّاضة اليوم، على الخمسين. وتتميَّز هذه في الطريق الذي تختاره، وفي برامجها الدينيَّة، وفي التوجيه الروحيّ الذي تقترحه. فخلوات البيَّاضة اليوم، هي المراكز الروحيَّة الأكثر شهرةً بين الموحِّدين في العالم، وهي تستقبل موحِّدين من كلّ الجنسيَّات، يأتون إليها إمَّا للإقامة المؤقَّتة، وإمَّا للإقامة الدائمة دون أن تكون هذه الإقامة انعزالاً عن المجتمع أو نُسكاً. والنُسَّاك الزُّهَّاد والمشايخ الأجلاَّء، أكانوا من لبنان أو سوريا أو فلسطين، والذين يبحثون عن حياة العزلة من أجل الدراسة والعبادة، يأتون إلى البيَّاضة. كما أنَّ هناك خلوات جرنايا في خراج دير القمر، في بلدة كفرحيم الشوفيَّة. والمرحوم كمال جنبلاط كتب عنهم يصفهم بكلّ بساطةٍ أنَّهم «أناسٌ بسطاء جدّاً وأهل صحَّةٍ وسلامةٍ وطيبةٍ يسعون إلى القداسة»[2].

2. المجالس

بالإضافة إلى أماكن العبادة الدينيَّة الرسميَّة، أنشأ الموحِّدون أماكن مشتركةً للصلاة أسموها «المجالس»، يلتقي فيها المبتدئون والسالكون مساء كلّ خميس،

2. **من أجل لبنان**، باريس، 1978، (بالفرنسيَّة) ص. 84.

ابتغاءً للصلاة والتأمُّل. وتتوزَّع المجالس في كلّ القرى الدرزيَّة دون استثناء. ونظراً إلى أنَّ هذا المكان ليس مخصَّصاً بصورةٍ محدَّدةٍ للعبادة، بل هو كناية عن مبنًى قَشِفٍ جدّاً وليس فيه أيّ زينةٍ أو رسومٍ أو ما شابه، فإنَّه لا يتمايز بصورةٍ كبيرةٍ عن أيٍّ من منازل الموحِّدين الدروز[3].

3. المقامات والمزارات

المزارات هي أماكن عبادةٍ تتميَّز بأنَّها شهدت مرور نبيٍّ من الأنبياء أو حضنت رُفاته، أو رُفات موحِّدٍ مشهورٍ ومعتبرٍ من كبار السالكين العقَّال، أو وليٍّ من الأولياء الصالحين. ويزور المؤمنون المقامات طلباً لشفاعة الله أو تعبيراً عن إيمانهم العميق وحبّهم الصادق وولائهم لله عزَّ وجلّ. ولا يقتصر زوَّار المقامات على أبناء طائفة الموحِّدين الدروز، بل إنَّ المؤمنين كافَّة، ومن كلّ الأديان والطوائف، يقصدونها. أمَّا على المستوى الروحيّ فتأتي زيارة هذه الأماكن تعبيراً عن الإيمان والرجاء، كما عن الاحترام والتبجيل والإجلال للحقيقة الإلهيَّة. والمقامات بالنسبة للموحِّدين، مكانٌ يسمح لهم بالاستسلام لله والتعبير عن حبّهم وخضوعهم له، كما بالتعبير عن إيمانهم واحترامهم لمذهبهم الدينيّ. ولائحة المقامات التالية عملٌ إحصائيٌّ غير منشورٍ قام به الشيخ فندي شجاع، وهو أحد مشايخ خلوات البياضة.

أشهر مقامات لبنان

- مقام الأمير السيِّد عبدالله التنُّوخيّ، في عبيه.
- مقام الشيخ الفاضل محمَّد أبي هلال، في عين عطا.
- مقام الداعي عمَّار، في إبل السقي قرب حاصبيَّا.
- مقام النبيّ أيُّوب الكائن في أعلى جبلٍ من جبال نيحا في الشوف.

---

3. سنتناول في القسم المخصَّص للتنظيم الدينيّ لطائفة الموحِّدين الدروز في الفصل الثالث، الحديث عن المجالس بالتفصيل.

- مقام الست شعوانه، في البقاع الغربيّ.
- مقام النبيّ حزقيال، في بلاط جنوبيّ لبنان.
- المقام الشريف في شمليخ قرب شارون.

مقامات سوريا

وهي كثيرةٌ في جبل العرب. تنتشر في معظمها في التلال والمرتفعات والسهول. ويعود هذا الانتشار الكبير للمقامات الدينيَّة إلى مجزرة 1730، التي راح ضحيَّتها سبعون حاجّاً من الموحِّدين متوجِّهين إلى مكَّة. وقد أثار هذا الحادث مخاوف المؤمنين الذين صاروا يتردَّدون منذ ذلك الحين، حيال سلوك طريق الحجّ المحفوفة بالمخاطر وغير الآمنة. ومنذها، راح سكَّان جبل العرب وسوريا يكتفون بزيارة المقامات المحلِّيَّة عندما يتعذَّر عليهم الحجّ إلى مكَّة، بسبب من المخاطر التي كانت تحفّ بتنقُّلاتهم. والحال أنَّ فتوى ابن تيميَّة في القرن الرابع عشر، ضدّ الأقلِّيَّات الدينيَّة «الرافضة»، ومن بينها الموحِّدون الدروز، ومع أنَّها بُنيت على معطياتٍ خاطئةٍ ومشوَّهة، وعلى اتِّهاماتٍ عمادها الجهل بحقيقة هذه الأقلِّيَّات، فقد استندت إليها السلطات السُّنِّيَّة في تعاملها السلبيّ مع الأقلِّيَّات الإسلاميَّة المعنيَّة. فصار أفرادها يخافون أكثر فأكثر من القيام بفريضة الحجّ، ويفضِّلون أيضاً عدم إظهار معتقداتهم مستخدمين التقيَّة لحفظ أنفسهم. وبالتالي، وبسبب هذه الاضطهادات التي تعرَّض لها أتباع تلك الأقلِّيَّات الدينيَّة الإسلاميَّة المخالفة أو الرافضة، فقد أُقيم العديد من المقامات والمزارات السوريَّة، وحوفظ عليها حتَّى يومنا هذا، وهي:

- مقام عمَّار ابن ياسر أويس، شماليّ سوريا.
- مزار عمَّار ابن ياسر، في عريقة.
- مقام النبيّ هابيل، في جبل قاسيون، واسمه مقار الدم.
- مقام مار عبدا، جنوبيّ صلخد.
- مزار النبيّ أيُّوب، في قنوات.

- مزار عين الزمان، في السويداء.
- مزار الشيخ البلخيّ، في قريًّا.
- مزار المهديّ عليه السلام، في مردك.
- مزار السيِّد المسيح، بين مقحلة وشهبا.
- مزار النبيّ الخضر، في قرى متان وشعف وسهوة الخضر وملح.
- مزار النبيّ شعيب، في قيصما.
- مزار الملاك جبرائيل عليه السلام، شرقيّ شهبا.
- مقام النبيّ يحيى (يوحنَّا المعمدان)، في مسجد الأُمويِّين في دمشق.
- مزار اليعتوري، في هضبة الجولان.

أشهر مقامات فلسطين

- مقام النبيّ شُعيب، في أعالي طبريَّا على الهضبة المطلّة على سهل حطّين.
- مقام الشيخ عليّ فارس العابد الذي أمضى حياته ساجداً متعبِّداً، في جولس.
- مزار الخضر عليه السلام جنوبيّ الجليل.

أشهر مقامات بغداد والجزيرة العربيَّة

- مقام المقداد، في بقيع القرمد .
- مقام أبو ذَرْ جُنْدب بن جُنادة، في الربذة بالعراق.
- مقام سلمان باك، في المدائن جنوبيّ بغداد.

4. مساجد الموحِّدين

بنى الموحِّدون الدروز، خلال حقباتٍ من تاريخهم، العديدَ من المساجد، بغية تأكيد انتمائهم إلى الإسلام في مرحلةٍ أُولى، وتلبية لأمر الأمير السيد عبدالله التنوخي في مرحلة ثانية، والتأقلم مع محيطٍ إسلاميٍّ غير متسامح، في مرحلةٍ ثالثة. واللائحة

التالية مأخوذةٌ أيضاً من دراسة الشيخ فندي شجاع:

- مسجد الأمير مسعود أرسلان، في عرمون.
- مسجد الأمير عمر بن الأمير مسعود، قرب عين عرمون.
- مسجد الأمير منذر التَّنُوخيّ، في باب إدريس - بيروت.
- مسجد العمروسيّة، في الشويفات.
- مسجد الأميرة حبوس أرسلان التي دُفنت بقربه، في منطقة الناعمة.
- مسجد عبيه الذي بناه الأمير نصر الدين التَّنُوخيّ.
- مسجد الأمراء آل معن، في دير القمر.
- مسجد الشمعون الذي بناه الشيخ حسين جنبلاط، في صيدا.
- مسجد المختارة الذي هدمه الأمير بشير الشهابيّ.
- مسجد عاليه.

البُنى الاجتماعيَّة

أثبتت طائفة الموحِّدين الدروز قدرتها على تكوين بُنًى اجتماعيَّة مستقلَّة في إدارتها، كما في سهرها على مصالح أعضائها. وهذه البُنى المستندة أوَّلاً إلى قاعدة التضامن الجماعيّ، تؤكِّد على تماسك الروابط الجامعة بين أبناء أيّ أقلِّيَّة دينيَّة. من هذا المنطلق، أقامت الجماعات الدرزيَّة في المهجر، وخصوصاً في أميركا الشماليَّة والجنوبيَّة وأستراليا، جمعيَّاتٍ نشطت على جبهة تمتين الروابط والصِّلات بين الموحِّدين الدروز المقيمين في تلك البلاد، والمهاجرين من أصولٍ عربيَّة.

وفي لبنان، أسَّس الموحِّدون الدروز مؤسَّساتٍ عدَّة، وهي بإدارتهم، محافظين فيها على روح التكافل الاجتماعيّ، وهي تُعنى بتقديم جملةٍ من الخدمات ذات الصلة بالرعاية الاجتماعيَّة والعناية الاستشفائيَّة الصحِّيَّة، إضافةً إلى إيلاء الهمّ التربويّ اهتماماً خاصّاً.

ونظراً لما خلَّفته الحرب الأهليَّة اللبنانيَّة من مآسٍ على صعيد فقدان العديد من العائلات معيلها، فقد تكفَّل الخيِّرون من أبناء الطَّائفة بتأمين رعاية هؤلاء على

الصعد كافّة. وافتُتحت مدرسةٌ لأبناء شهداء الحرب الأهليّة، في بعقلين تديرها عائلةٌ درزيّةٌ، وهي تضمّ معهداً تقنيّاً. وأنشأت في عبيه، مؤسّسة فرح معهداً لجرحى الحرب الأهليّة ومعوّقيها. وإن دلّت هذه المبادرات على السعي لشدّ أواصر أبناء الأقلّيّة الدينيّة الواحدة، فهي تؤشّر إلى الأهمّيّة القصوى التي يوليها هؤلاء لحماية تاريخ الموحّدين الدروز، كما حاضرهم، ومستقبلهم.

وفي السياق عينه، تأسّس ميتمٌ درزيٌّ في عبيه حوالى عام 1930، على يد المرحوم عارف النكدي. وهذا الميتم الذي تسانده في أداء واجبه الإنسانيّ مساعدات أبناء الطائفة وهباتهم، يضمّ اليوم حوالى ألف تلميذٍ يتيم من كلّ الأعمار. وهو مؤلّفٌ من مدرسةٍ لإعداد المعلّمين تتبع المنهاج الرسميّ لوزارة التربية الوطنيّة في لبنان، إضافةً إلى معهدٍ تقنيٍّ يؤمّن تخريج الطلاّب في مختلف المهن والمهارات. أمّا الشأن التربويّ فتشهد على تنامي تطوّره مدارسُ كبرى تستحقّ التنويه. وتضمّ مؤسّسة العرفان التوحيديّة سلسلةً من خمس مدارس مركزها الرئيسيّ في السمقانيّة في الشوف، والباقية تتوزّع في صوفر والشحّار وراشيّا (ضهر الأحمر) وحاصبيّا. يقصدها أكثر من خمسة آلاف تلميذٍ وتلميذةٍ من كلّ الطوائف، وتؤمّن تعليماً ذا مستوًى ممتاز، من المرحلة الابتدائيّة حتّى الثانويّة. وهي تتبع برامج وزارة التربية الوطنيّة، وتؤمّن في الوقت نفسه للتلامذة الموحّدين تعليماً دينيّاً عن المسلك الدرزيّ التوحيديّ. وفي مؤسّسة العرفان أيضاً، دائرةٌ دينيّةٌ قامت بنشر العديد من المؤلّفات المدنيّة والدينيّة. أمّا مؤسّسة الإشراق في عاليه، فهي تنهج نهج مدارس العرفان. وفي بيروت مدرسةٌ تابعةٌ مباشرةً للأوقاف الدرزيّة هي المدرسة المعنيّة. والأوقاف هي الأخرى من كبرى مؤسّسات الطائفة، ومهمّتها إدارة الأملاك المخصّص ريعها لأعمال الخير ورعاية المحتاجين. وفي بيروت أيضاً، مكانٌ لإقامة الفتيات القادمات من الجبل للدراسة في جامعات العاصمة.

بالإضافة إلى هذه العناية الكبيرة بالتعليم، سهرت الطائفة على تأمين الرعاية الصحّيّة لأبنائها بفضل مبادرةٍ كبيرة الشأن في هذا المجال لسماحة شيخ عقل الطائفة الراحل محمّد أبو شقرا. فالطائفة تملك وتدير في منطقة عين وزين مستشفًى تأسّس

عام 1978، وبدأ العمل فيه عام 1989. علاوةً على الخدمات الطبّيّة والاستشفائيّة التقليديّة فإنَّ المستشفى يضمّ مدرسةً للتمريض ومركزاً لرعاية المسنّين. ويستخدم المستشفى أكثر من مئة طبيب بدوام كاملٍ وجزئيّ، وحوالى ثلاث مئةٍ وخمسين موظّفاً. ويستطيع استقبال حوالى مئة مريضٍ في القسم الاستشفائيّ حيث يعالَج حوالى 20 ألف شخصٍ سنويّاً، ويضمّ حوالى ثمانين شخصاً في مركز الرعاية الذي يُعمل الآن على استحداث مركزٍ جديدٍ له. وقد ارتبط باتّفاقيّات تعاونٍ مع مؤسّساتٍ ذات شأنٍ مثل مستشفى أوتيل ديو الفرنسيّ، ومستشفى الجامعة الأميركيّة، والجامعة اللبنانيّة، إضافةً إلى التوأمة مع مستشفى فرساي في فرنسا، ومستشفى بروكا للمُسنّين.

وفي السياق عينه، أنشأت مجموعةٌ من رجال الدين مستشفًى آخر في عاليه، هو مستشفى الإيمان. يقدّم خدماته لأبناء منطقتي عاليه وبعبدا.

لا ريب في أنّ البُنى الاجتماعيّة، إن نشدت تماسكاً واستمراريّةً فلا بدّ من أن تسوسها رؤيةٌ مؤسّساتيّة. وقد كرّس الموحّدون الدروز جهودهم في البناء المؤسّساتيّ ولو تفاوتت أحجام المؤسّسات.

الفصل الثاني

تاريخ الموحِّدين الدروز

(1943-1017)

يعاني الموحِّدون الدروز، كغيرهم من الأقلِّيَّات، من شيوع العديد من الأفكار الخاطئة والمشوَّهة وسيادتها، حول حقيقة عقيدتهم من جهة، وحول هوِّيَّتهم وتاريخهم، من جهةٍ أخرى. ففي حين يرى الغرب في الموحِّدين الدروز شعباً قاسياً متمرِّداً، فإنَّ تاريخهم لا يُعرض إلاَّ من خلال صورة شخصيَّاتهم الرئيسيَّة : فخر الدين الثاني، وكمال جنبلاط. أمَّا سبب استمرار تلك الأفكار المسبقة حول الموحِّدين الدروز فيعود إلى موقف الموحِّدين أنفسهم حيال كتابة تاريخهم. فبسببٍ من طبيعتهم ومن وضعهم الجغرافيّ، ركَّز الموحِّدون الدروز كلّ جهودهم على الدفاع عن طائفتهم ولم تُتَح لهم الفرصة أبداً، وربَّما لم يكن عندهم النيَّة لذلك أيضاً، لكتابة تاريخهم الخاصّ، فانصبّ اهتمامهم على صنع التاريخ أكثر منه على كتابته.

أمَّا في المرحلة الراهنة، فقد أخذ هذا الإهمال بالتلاشي لصالح إطلاق مشروع تدوين تاريخهم. فبدأ الموحِّدون الدروز يولون اهتماماً كبيراً لِمَا عايشوه على مرّ العصور، باعتبار أنَّه ليس مكوِّناً أساسيّاً لهويَّتهم فحسب، بل هو مكوِّنٌ أساسيٌّ في تاريخ لبنان. وشرع بعضٌ منهم في سبر أغوار هذا التاريخ وتظهير حقائقه، من خلال المنشورات والكتب، بهدف تصحيح الصور الزائفة والشائعات الرائجة حول الطائفة، ما قد يسمح للمؤرِّخين بالانكباب على صياغة مقارباتٍ جدِّيَّةٍ حقيقيَّةٍ وواقعيَّة. إلاَّ أنَّ استمرار تلك الصور والأفكار المسبقة الرائجة

حول الموحّدين الدروز غالباً ما يقود، وبصورةٍ غير مباشرة، إلى ظهور عددٍ مر
التناقضات بين مختلف الدراسات التاريخيّة. ومهما يكن من أمر، فإنّ خطّاً متّصلا
يوحّد بين تاريخ الموحّدين الدروز الخاصّ، وتاريخ لبنان العامّ، بحيث يظهران
وكأنّهما لا ينفصلان. فما يرتكز عليه مجموع هذه الدراسات التاريخيّة هو في الحقيقة
سياسةٌ ثابتةٌ في المعارضة الدائمة لكلّ أشكال السيطرة الأجنبيّة، والسعي الدؤوب
والدائم لتحقيق الاستقلال. وفي مواجهة صورة الشعب المتمرِّد والمشاكس، دعا
الموحّدون الدروز الجميعَ إلى التأكّد من أنّهم حُماة الإسلام والعروبة في آنٍ معاً، على
المستوى العربيّ والإسلاميّ، وحُماة الاستقلال والحرّيّة في وجه القهر والإخضاع،
على المستوى الوطنيّ. وقد حدّدت هذه الثابتة التاريخيّة ملامح رسالة الموحّدين
الدروز السياسيّة، وأثّرت بصورةٍ حاسمةٍ على دورهم والتزامهم في حياة لبنان
المعاصر منذ العام 1943.

الغاية من هذا الفصل إعادة رسم المراحل الرئيسيّة في تاريخ الموحّدين الدروز،
منذ تبلور العقيدة الدرزيّة في مصر مطلع القرن الحادي عشر، وحتّى إعلان
استقلال لبنان في 22 تشرين الثاني 1943.

مرحلة العصور الوسطى

الأصول المصريّة

تعود أُصول طائفة الموحّدين الدروز إلى مصر الفاطميّة إبّان القرن الحادي
عشر، أي في تاريخ الافتتاح الرسميّ لباب الدعوة التوحيديّة في العام 408 هـ. وقد
ارتبطت العقائد الدرزيّة التي تجد جذورها في عقيدة الانتظار المهدويّة الإسماعيليّة،
بشخص الخليفة والإمام الفاطميّ الحاكم بأمر الله وسلطته (386-411 هـ. /
996-1021 م.). والداعية الفاطميّ الإسماعيليّ «الأخرم» هو أوّل مَن نظّم حملةً
تدعو إلى أُلوهيّة الحاكم عام 408 هـ. (1017 م.). فرفضت الدعوةُ الرسميّة في
القاهرة هذه الفكرةَ واغتيل الأخرم بعد بضعة أشهر على نشوء حركته. وعام
410 هـ. (1019 م.)، خرج داعيةٌ آخَر من خراسان يُدعى حمزة بن عليّ ليقود تلك

الحركة ويهب الدعوة صورتها اللاَّهوتيَّة الكلاميَّة النهائيَّة. طوَّر حمزة دعوةً قويَّةً متماسكةً، وساعده في ذلك عددٌ كبيرٌ من الأتباع والدعاة من القاهرة، حتَّى أمسى المؤسِّسَ الفعليَّ للمسلك الدينيّ التوحيديّ. وهنا، ينبغي ذكر شخص ثالثٍ ظهر بعد حمزة، ولعب دوراً بارزاً في الدولة الفاطميَّة، وحاول استناداً إلى ذلك ادِّعاء الإمامة، إنَّه الداعية الدَّرَزيّ، وهو أحد تلامذة حمزة، لكنَّه ما لبث أن استحال في وقتٍ لاحق، خصماً ومنافساً له، وأخذ يطمح إلى قيادة مذهب الحاكم الجديد. عمل الدَّرَزيّ بصورةٍ مستقلَّةٍ عن رؤسائه، لا بل في تعارضٍ معهم، ونجح في جذب الكثيرين من أتباع حمزة. وكان أوَّل مَن أعلن وأظهر القول بألوهيَّة الحاكم. فأدانته كلٌّ من الدعوة الفاطميَّة الرسميَّة في القاهرة، ودعوة حمزة بن عليّ. قُتل الدَّرَزيّ في اليوم الأوَّل من سنة 410 هـ.، فأُطلق على تُبَّاع المسلك الدينيّ التوحيديّ تسمية «الدرزيّ»، جوراً. ومع أنَّ الموحِّدين يعتبرونه منشقّاً عن الدعوة وخارجاً عليها، إلاَّ أنَّ سخرية القدر شاءت أن يُنسب أتباع دعوة التوحيد إلى ذلك الدَّرَزي فيحملون اسمه: «الدروز». وما زالت الدعوة تحمل اسم «الدرزيَّة» إلى يومنا هذا.

لم تتوقَّف الدعوة الرسميَّة في القاهرة، عن نقض العقائد التوحيديَّة الجديدة ودحضها. وحين اختفى الخليفة الحاكم عام 411 هـ. (1021 م.)، قامت سلطات القاهرة باضطهاد أتباعه وقمعهم قمعاً شديداً، خصوصاً في ظلّ الخليفة الفاطميّ الجديد الظاهر. فانتشرت العقائد التوحيديَّة خارج مصر، بفضل عمل دعوة التوحيد ودعاتها. وعرفت أكبر نجاحاتها في بلاد الشام والجليل، وصولاً حتَّى شماليّ سوريا، وامتدَّت إلى الحجاز واليمن والهند من خلال العراق وإيران. وأُغلق باب الدعوة عام 434 هـ. (1043 م.)، ما أدَّى إلى استحالة الانتماء إليها أو الرِّدَّة عنها. أمَّا الموحِّدون الدروز الذين كان بالإمكان من الآن فصاعداً، اعتبارهم مجموعةً إثنيَّةً وسياسيَّةً مستقلَّةً تماماً، فأضحوا طائفةً مغلقة.

الموحِّدون الدروز في بلاد الشام

إحتضنت قبائلٌ عربيَّةٌ عديدةٌ في سوريا، الدعوةَ الجديدة احتضاناً إيجابيّ ومنها قبائل العبدالله في الغرب، وسليمان في وادي التَّيْم، وتراب في الجليل. غير أ قبيلة تَنُوخ كانت أوَّل من انضمَّ إلى الدعوة. وتَنُوخ هي فرعٌ من لخم القبيلة العربيّ الكبيرة التي كانت تضمّ ثلاثة أفخاذٍ من العائلات العربيَّة المسيحيَّة، وهي بحرا. وتغلب وتَنُوخ. إستوطنت هذه الأخيرة شماليّ سوريا والمنطقة الغربيَّة من لبنان، وضواحي بيروت منذ مطلع عهد الفتوحات العربيَّة[1]. ثمَّ انتقلت هذه العائلات إلى الإسلام عام 165 هـ. (741 م.)، وأتمَّت انتسابها إلى العقيدة الدرزيَّة في مطلع القرن الحادي عشر، ولم يمنعها هذا الانتساب من استمرار الدفاع عن هوِّيَّتها العربيَّة وانتمائها إلى الإسلام على وجهٍ أخصّ. وطوال مرحلة العصور الوسطى تولَّت عائلتان تَنُوخيَّتان على التوالي، آل أرسلان وآل بحتر، قيادة طائفة الموحِّدين الدروز.

يبدأ تاريخ الأُسرة الأرسلانيَّة مع الخلفاء العبَّاسيِّين الأوائل. أقام الأرسلانيُّون بدايةً، شماليّ سوريا قبل أن ينتقلوا، بناءً لأوامر الخليفة العبَّاسيّ المنصور (137-159 هـ./ 754-775 م.) إلى منطقة بيروت بهدف الدفاع عن الساحل في وجه الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة. وسرعان ما أنشأوا لهم هناك إمارةً امتدَّت بين الدامور وسنّ الفيل، وضمَّت مدينة بيروت والجبال المحيطة بها. وفي القرن التاسع، وتحت قيادة الأمير نعمان أرسلان بلغت إمارتهم منطقة صفد في فلسطين.

وفيما خاضت الخلافتان الفاطميَّة والعبَّاسيَّة حرباً لا هوادة فيها، على المستويات السياسيَّة والدينيَّة لإحكام السيطرة الكاملة والشرعيَّة على العالم الإسلاميّ، استمرّ الفاطميُّون يراهنون على إمكان مدّ سيطرتهم إلى العراق وإسقاط الخلافة العبَّاسيَّة التي تحوَّلت «محميَّةً» للأتراك السلاجقة. في قلب هذا الصراع، تعرَّضت

---

1. أنظر كتاب الأب لويس شيخو، بيروت: تاريخها وآثارها، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيِّين، 1935، ص. 67.

بلاد الشام لضغوطات تلك القوى المتاخمة، ومطامعها، كونها شكَّلت ممرّاً إلزاميّاً لكلّ الممالك. أمَّا الفاطميُّون فقد وجدوا في بلاد الشام بوَّابةً مفتوحةً نحو بغداد. وحتَّى وصول جيوش الصليبيِّين إلى سوريا في نهاية القرن الحادي عشر، عاشت البلاد تحت سلطة فسيفساء من القوى: قبائل وأمراء عرب محلِّيِّين، أمراء وقادة جيوش أتراك، في حين كان الأمراء السلاجقة والفاطميُّون يتنازعون السيطرة على بلاد الشام. وفي معمعة هذا الصراع على المنطقة بدا أنَّ الأمراء التَّنوخيِّين قرَّروا الوقوف على الحياد. مع الإشارة إلى أنَّهم كانوا يتبعون فعليّاً لإمارة السلاجقة في دمشق. وفي أتُّون النضال ضدَّ القوى الخارجيَّة التي كانت تهدِّد أمن الجماعات العربيَّة في المنطقة وسلامتها، مالت سياسة آل تنُّوخ التقليديَّة إلى تأييد الحكم في دمشق. وقد بادل أمير دمشق هذا الميل إيجاباً، إذ درج على تسمية أميرٍ للمنطقة من آل تنُّوخ.

وحين استولى الصليبيُّون على الأراضي المقدَّسة وأسَّسوا أربع ممالك لاتينيَّة في الشرق، لم تتغيَّر سياسة التَّنوخيِّين أبداً، إذ ساندوا بشكلٍ ثابتٍ وقويٍّ النضال ضدَّ الغازي الأجنبيّ. وخاضوا بقيادة أميرهم عضد الدولة، معاركَ ضدَّ الفرنجة، دعماً لجيوش دمشق. إلاَّ أنَّ الفرنجة توغَّلوا داخل الإمارة التَّنوخيَّة عام 503 هـ. (1110 م.)، وساروا باتِّجاه بيروت وحاصروها من البرّ والبحر، ثمَّ استولوا عليها رغماً من المقاومة الضارية التي قادها عضد الدولة. وذبح الفرنجة أهالي المدينة قبل أن يتقدَّموا باتِّجاه الشرق، إلى المنطقة الجبليَّة التي يسيطر عليها التَّنوخيُّون. قُتل الأمير عضد الدولة خلال هذه المعارك وتضعضع الأرسلانيُّون. فخلفه في القيادة أمير صيدا مجد الدولة من آل عبدالله الذي قُتل بدوره في مواجهةٍ مع الفرنجة عام 532 هـ. (1137 م.)، ليتولَّى قيادة الموحِّدين الدروز الأمير بحتر ابن عضد الدولة ومؤسِّس العائلة الإقطاعيَّة التي صارت تحمل هذا الاسم. في تلك الحقبة طلب طغتكين حاكم دمشق السلجوقيّ من آل معن، من قبيلة ربيعة العربيَّة الكبيرة، القدوم للاستيطان في جنوبيّ جبل لبنان مع عائلاتهم، تدعيماً لوضع التَّنوخيِّين الذين ضعفوا كثيراً بسبب المواجهات. وهكذا أقام آل معن في منطقة الشوف

ونسجوا بسرعةٍ علاقات المصاهرة والتحالف مع آل تنُّوخ. كما أنَّ عائلاتٍ درزيَّةً أخرى مثل آل نكد وآل تلحوق استوطنت تلك الأنحاء وانضمَّت إلى التحالف الدرزيّ الكبير. وعيَّن حاكمُ دمشق بحتر أميراً على الغرب. فقاد بحتر المواجهة ضدَّ الفرنجة أسياد بيروت الجدد، وانتصر عليهم عام 549 هـ. (1151 م.)، في معركة عين التينة قرب نهر الغدير، جنوبيّ بيروت القديمة.

وفي نهاية القرن الثالث عشر، استطاع الكرديّ صلاح الدين الأيُّوبيّ إعادة إحياء روح الجهاد وتنظيم حملةٍ مضادَّة ضدَّ الفرنجة في بلاد الشام. وحين حاصر بيروت انضمَّ إليه الأمير التنُّوخيّ الشابّ حجّي ابن كرامة على أمل استعادة المدينة. وبعد استسلام بيروت ثبَّت صلاح الدين ولاية التنُّوخيِّين عليها بشخص الأمير حجّي، إضافةً إلى تثبيت لقبه كحاكم على الغرب. واستمرَّ حكم آل بحتر وسلطتهم على أراضيهم وعلى لقب الإمارةً طيلة حقبة حكم الأيُّوبيِّين في سوريا. وعمل حكّام دمشق على تأمين استمرار ولاء آل بحتر لهم، وبالتالي ضمان وجود قوَّةٍ إسلاميَّةٍ تحمي خاصرتهم على حدود الممالك اللاَّتينيَّة.

قد يظنّ القارئ، استناداً إلى ما سبق، أنَّ العلاقات بين الإمارة التنُّوخيَّة، والحكم التركيّ السلجوقيّ في دمشق قبل انتقاله إلى الأُسرة الأيُّوبيَّة، كانت حصريَّةً ومميَّزةً على الدوام. والحال أنَّ الأمر لم يكن كذلك، إذ إنَّ الاضطرابات الداخليَّة وتقلُّبات السلطة في دمشق فرضت على آل تنُّوخ أوقاتاً حرجةً ولحظات ضعف. فطائفة الموحِّدين الدروز الأقلِّيَّة الواقفة على حدود الصراع بين عالمين، وجدت نفسها بين مدينة دمشق يحكمها المسلمون، ومدن بيروت وصيدا وصور يحكمها الفرنجة، ما أرغمها على مراعاة التوازنات السياسيَّة القائمة. وقد أظهر آل بحتر حذراً سياسيّاً حين تواجه المماليك والمغول في صراع للسيطرة على بلاد الشام، خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر. فلم يقطعوا الصلة بأيٍّ من الطرفين، بل حاربوا إلى جانب المماليك في معركة عين جالوت الحاسمة عام 658 هـ. (1260 م.)، وهي المعركة التي وضعت حدّاً لتقدُّم المغول، وأغلقت في وجههم أبواب بلاد الشام نهائيّاً. وتقديراً لإنجازات الأمير البحتريّ زين الدين صالح وفتوحاته، وهو الذي

حارب إلى جانب المماليك متميِّزاً بالشجاعة والإقدام، غضَّ السلطان المملوكيّ الطرف عن تلك الازدواجيَّة والحيرة التي وقع فيها الموحِّدون الدروز، حتَّى إنَّه كافأه. وهكذا عرفت الإمارة التنُّوخيَّة التي أُلحقت مع مدن بيروت وصيدا بولاية دمشق، ازدهاراً كبيراً في قلب الإمبراطوريَّة المملوكيَّة الكبيرة. وظلَّت الطائفة الدرزيَّة التي قادها آل بحتر وفيَّةً للماليك حتَّى نهاية عهدهم. وساهمت في المعارك ضدَّ تيمورلنك عام 1401 م.، وشاركت في الحملة المملوكيَّة ضدَّ مملكة الفرنجة في قبرص عام 1425 م.

المرحلة العثمانيَّة

حكم الأمير فخر الدين الثاني

في مطلع القرن الرابع عشر، نشأت في الشرق سلطة الأتراك العثمانيِّين انطلاقاً من الأناضول. إنتشرت وتوسَّعت وركَّزت قواها وسيطرتها إلى أن صارت المواجهة مع المماليك أمراً لا مفرَّ منه. وتحدَّى العثمانيُّون المماليك في عام 1516 م.، واجتاحوا بلاد الشام. ففقد آل بحتر الأوفياء للمماليك امتيازاتهم في جبل لبنان. وانتقلت رئاسة طائفة الموحِّدين الدروز من آل تنُّوخ إلى آل معن المستقرِّين في الشوف. ولم يلبث العثمانيُّون أن اصطدموا بالمعنيِّين. وشهد التاريخ من ثَمَّ على المقاومة العنيفة التي خاضها هؤلاء ضدَّ السلطنة العثمانيَّة.

لا شكَّ في أنَّ أشهر الأُمراء المعنيِّين هو الأمير فخر الدين الثاني (1590-1635 م.)، الديبلوماسيّ المُحَنَّك والإداريّ الموهوب ذو الطبيعة الليبراليَّة المتسامحة. نجح في إثبات نفسه قائداً كبيراً للموحِّدين، وبذل جهوداً حثيثةً لكي يؤسِّس دولةً متجانسةً ومستقلَّةً في قلب الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. واستطاع أوَّلاً، أن يمدّ سلطته إلى خارج حدود جبل لبنان، بالرغم من أنَّ الشوف ظلّ القلب النابض لحكمه. فسيطر منذ العام 1610 م.، على مناطق عديدةٍ في سوريا وفلسطين والأُردنّ، فمنحه هذا التوسُّع الجغرافيّ لقب سلطان البَرّ. وقد تحالف فخر الدين في صراعه ضدَّ مدينتَي طرابلس ودمشق المنافستَين له والخاضعتَين لحكم العثمانيِّين، مع والي حلب علي

باشا جنبلاط (جدّ آل جنبلاط الحاليِّين في لبنان)[2]. واهتمَّ بالازدهار الاقتصاديّ وتأمين رفاهة العيش للشعب، وحاول أن يجد لبلاده موقعاً متوسِّطيّاً. وفي ظلّ حكمه، أعادت مرافىء بيروت وصيدا وعكّا ربط علاقاتها الاقتصاديَّة مع الغرب. وأعاد فخر الدين نسج العلاقات السياسيَّة والعسكريَّة مع بعض الدول الأوروبيَّة، حيث أمضى خمس سنوات في توسكانا في إيطاليا (1613-1618 م.)، مستلهماً عناوين النهضة الأوروبيَّة. وعاد حاملاً معه الكثير من الإنجازات والاختراعات، خصوصاً في مجال الهندسة والعمران. وقد رافقه من توسكانا العديد من الخبراء والتقنيِّين، أرادهم أن يساعدوا في عمليَّة تحديث القطاعات الاقتصاديَّة والزراعيَّة في البلاد. وأقام النظام الإقطاعيّ الذي جعل منه مالكاً للأرض وجعل الفلاّحين أجراء عنده.

لعب فكر فخر الدين الموسوعيّ، وانفتاحه وتسامحه دوراً أساسيّاً في نجاح إمارته. وقد شملت سياسته الاجتماعيَّة ذات المنحى العلمانيّ الصارخ، كلّ رعاياه دون تمييز في المذهب أو الدين. وتحت رعايته، وفي ظلّ الازدهار الاقتصاديّ، عرف الموارنة والموحِّدون الدروز في جبل لبنان، عصراً ذهبيّاً من التسامح المتبادل. ولم يتوانَ من أن يعلن صداقته مع الطوائف المسيحيَّة الشرقيَّة. ثمَّ إنَّ الإقطاعيِّين الموحِّدين، وبدافع وتوجيه منه، وبغية تدعيم سياسته الاقتصاديَّة، عملوا على اجتذاب السكّان المسيحيِّين إلى أراضيهم بهدف تأمين المهن الحرفيَّة والتجارة. فوهبوهم أراضياً لتمكينهم من تشييد الكنائس والأديرة، ومنها على سبيل المثال لا الحصر : دير الناعمة المارونيّ جنوبيّ بيروت، ودير الآباء المخلِّصيِّين الملكيِّين الكاثوليك، في جون، قضاء الشوف. وقد استفاد الموارنة من هذا التحالف لتدعيم مواقعهم السياسيَّة والاقتصاديَّة. واستوطنوا معظم الأراضي الدرزيَّة في الجنوب وعلى الساحل اللبنانيّ، واغتنوا وازدهرت أوضاعهم حتّى صاروا هم أيضاً ملاّكين عقاريِّين. وجعل الأمير فخر الدين من العدالة والمساواة بين رعاياه المثال

2. الأرجح أنَّ عائلة جنبلاط كانت فاعلةً قبل مجيء علي باشا جنبلاط إلى لبنان.

والهدف، متجاوزاً زمانه، ومؤسِّساً، وفق بعض المؤرِّخين، لمقوِّمات عظمة لبنان الحقيقيَّة. وبفضل سياسة الانفتاح الطموحة هذه، والنموّ الاقتصاديّ، وبناء مجتمع متجانس، تفوَّق فخر الدين علي كلّ مَن سبقوه، كما وعلى كلّ حكّام بلاد الشام. وترافقت هذه النجاحات مع اتّجاهاتٍ استقلاليَّةٍ في السياسة والاقتصاد ما أثار حفيظة العثمانيِّين.

لم يتقبَّل العثمانيُّون هذه الإرادة الاستقلاليَّة، فجرَّد السلطان العثمانيّ حملةً عسكريَّةً برِّيَّةً وبحريَّةً كبيرةً ضدَّ الأمير المعنيّ، شارك فيها ولاة بعض المدن. ونظراً إلى عدم القدرة على مواجهة حملةٍ بهذا الحجم، بسبب التفوُّق التقنيّ والعسكريّ، فضَّل فخر الدين الاستسلام إلى والي دمشق، ليُنقل أسيراً إلى الأستانة ويُحكم عليه بالموت عام 1635 م. أسَّس فخر الدين رؤية دولةٍ بالمعنى المعاصر للكلمة، فكان رياديّاً في هندسة الفكرة اللبنانيَّة. وتلاشت من بعده، ولفترةٍ طويلةٍ من التاريخ العثمانيّ، كلّ محاولةٍ جدِّيَّةٍ للاستقلال المحلِّيّ. وبان موته إيذاناً بعصر الانحطاط السياسيّ لطائفة الموحِّدين الدروز التي شهدت لاحقاً الانقسام بين القيسيَّة واليمنيَّة.

الانحطاط السياسيّ والحرب الأهليَّة في عامَي 1840 و1860

أدَّت الانقسامات والصراعات الداخليَّة إلى إضعاف طائفة الموحِّدين الدروز بشكلٍ كبير. فحين توفِّي آخِر أميرٍ معنيٍّ عام 1697 م.، انتقلت السلطة إلى آل شهاب من القيسيَّة. واستمرَّ الصراع إلى مطلع القرن الثامن عشر، وانتهى بانتصار القيسيَّة في معركة عين دارة عام 1711 م.، التي قلبت معادلة التنظيم الإقطاعيّ في لبنان. وبنتيجة الهزيمة التي لحقت باليمنيَّة، هاجر قسمٌ كبيرٌ منهم من الشوف ليستقرَّ في جبال منطقة حوران، التي حملت فيما بعد اسم الطائفة: «جبل الدروز».

وفيما بسط الأمير الشهابيّ سلطته في لبنان، ازداد عدد المشايخ المحلِّيِّين بصورةٍ كبيرة. ونشأت صراعاتٌ قبليَّةٌ عشائريَّةٌ أدَّت إلى انقسام القيسيَّة نفسها إلى الحزبَين اليزبكيّ والجنبلاطيّ اللذين استمرَّا إلى يومنا هذا ليشكّلا الحزبين الرئيسيَّين

للموحِّدين الدروز في لبنان[3]. وقد استغلَّ الأُمراء الشهابيُّون هذه الصراعات الداخليَّة الدرزيَّة لتدعيم سلطتهم بالرغم من استمرار ضغوطات الحكَّام العثمانيِّين عليهم. وفي عام 1764 م.، اعتنقوا وكلُّ أفراد عشيرتهم المسيحيَّة وأصبحوا موارنة، فاتحين الباب أمام حربٍ أهليَّة تلوح في الأفق.

وصل الأمير بشير شهاب الثاني إلى الحكم في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وأوَّل عمل قام به كان تصفية مشايخ آل نكد بمعاونة مختلف الأحزاب القيسيَّة، قبل أن يتوصَّلَ إلى إضعاف الحزبَين اليزبكيّ والجنبلاطيّ. وفي عام 1825 م.، وجَّه ضربةً عسكريَّةً قاسيةً للشيخ بشير جنبلاط الذي أعدمه لاحقاً والي عكَّا. وخلال ذلك الوقت، عقد بشير شهاب الثاني حلفاً مع حاكم مصر محمَّد علي باشا الذي استطاع التخلُّص من الهيمنة العثمانيَّة. وبمساعدته لقوَّات إبراهيم باشا، الابن البكر لمحمَّد علي باشا، على احتلال بلاد الشام، بدءاً من العام 1830 م.، توصَّل بشير شهاب الثاني إلى أن يصبح حاكم لبنان المطلق. في بادئ الأمر، استقبل اللبنانيُّون القوَّات المصريَّة بالترحاب، إلاَّ أنَّ المشاكل وقعت حين حاول إبراهيم باشا أن يفرض على الموحِّدين الدروز دفع الضرائب الباهظة، والخدمة العسكريَّة الإلزاميَّة، ونزع السلاح بالكامل. فقامت ثوراتٌ ضدَّ إبراهيم باشا وبشير الثاني، في آن. ورافقت هذا الوضع الخطير أزمةٌ أُخرى على مستوى العلاقات الدرزيَّة المارونيَّة.

ساهمت هبات الأراضي للمسيحيِّين في عهد فخر الدين المعنيّ الثاني، والتي استمرَّت من بعده، في تعميق الهوَّة الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة أكثر فأكثر بين الموحِّدين الدروز والموارنة. وحمل هذا الوضع في طيَّاته بذور حربٍ أهليَّة. كما أنَّ الصراع السياسيّ الذي نشب في جبل لبنان، مطلع القرن التاسعَ عشر، أخذ في الواقع أبعاداً طائفيَّةً حين قام بشير الثاني بتجنيد الموارنة في جيش إبراهيم باشا. وعزَّزت التدخُّلات الأجنبيَّة أيضاً إذكاء نار النـزاع[4]: ففي حين دعم الإنكليز

3. أنظر الفصل الثالث المخصَّص للتنظيم الاجتماعيّ والطائفيّ للموحِّدين الدروز.

4. أنظر في هذا الصدد، نصّ المداخلة في مؤتمر «فرنسا والمشرق»، المنعقد في ليون، فرنسا (أيَّار 2002)، الملحق رقم 1.

العثمانيّين آملين تعزيز نفوذهم، سعى الفرنسيُّون ليكون لهم موطىء قدم في بلاد الشام من خلال دعمهم محمَّد علي باشا. وفي عام 1840 م.، وفي الوقت الذي كان فيه الإنكليز يشجِّعون اللبنانيّين، بمَن فيهم الموارنة، على الثورة، استطاعت القوَّات العثمانيَّة أن تُعيد سيطرتها على سوريا. واضطُرَّ بشير الثاني إلى الاستسلام أمام السلطان والإنكليز، والذهاب إلى المنفى.

أعمال بشير الثاني هذه والاحتلال العسكريّ المصريّ لسوريا زعزعا البنية الإقطاعيَّة في لبنان، وزادا في الوقت عينه، من حدَّة العداء بين الموحّدين الدروز والموارنة. كما أنَّ جهود بشير الثاني لتقويض الطائفة الدرزيَّة سياسيّاً، ساهمت بشكلٍ خطيرٍ في نسف أُسس فكرة لبنان الواحد المستقلّ التي أُرسيت في عهد الأمير فخرٍ الدينٍ الثاني. وعلى الرغم من هزيمة بشير الثاني ونفيه، فإنَّ التوتُّرات والنـزاعات بين الموحّدين الدروز والموارنة استمرَّت ولم تخفت حدَّتها. لا بل استغلَّها العثمانيُّون وزادوا من استعارها، بغية إحكام سيطرتهم على لبنان. وهكذا اندلعت حربٌ أهليَّةٌ دمويَّةٌ رهيبةٌ بين الطرفين عام 1841 م.، ساعدت العثمانيِّين ليضعوا، عام 1842 م.، نظام القائمقاميَّتَين الذي قسَّم لبنان إلى منطقتين أو إدارتين، واحدةٍ مارونيَّة، وثانيةٍ درزيَّة. إلاَّ أنَّ هذا التقسيم السيِّئ وغير الناجز، والذي ترك مناطقَ مارونيَّةً داخل القائمقاميَّة الدرزيَّة وأُخرى درزيَّة داخل القائمقاميَّة المارونيَّة، أدَّى إلى المزيد من الصراعات والنـزاعات العنيفة بين الطائفتين. وقد اتَّخذت هذه المواجهة طابعاً اقتصاديّاً واجتماعيّاً إلى جانب طابعها الطائفيّ، إذ حاول المزارعون الموارنة التخلّص من نِيْرِ الإقطاع الدرزيّ. وانتهت تلك الاضطرابات إلى تفكيك الملكيّات الدرزيَّة الكبيرة، وإلى توجيه ضربةٍ قاضيةٍ للإمارة اللبنانيَّة.

حملت هذه الحرب الأهليَّة أبعاداً كارثيَّةً لمجمل الطوائف اللبنانيَّة، بالإضافة إلى التأثير الهائل على وضع البلاد في المرحلة التي تلت. إلاَّ أنَّ العوامل الداخليَّة، أي النـزاعات الطائفيَّة والاقتصاديَّة بين الموحِّدين الدروز والموارنة، ومهما عظُمت، لا تكفي وحدها لتفسير حدَّة ذلك الوضع واتّساعه. فتدخُّلات القوى الأجنبيَّة قد زادت مرَّةً أُخرى من استعار تلك النـزاعات: الإنكليز دعموا الموحِّدين

الدروز، والفرنسيُّون الموارنةَ. ووصلت شرارات العنف إلى ذروتها بين عامَي 1858 و1860، وأصابت بشكلٍ خاصٍّ الطوائف المسيحيَّة. وفي بداية الأحداث، سرَّع تدخُّلُ القوَّات الفرنسيَّة إلى جانب الموارنة المهزومين عسكريّاً، عمليَّةَ تفكيك الإقطاع الدرزيّ. فشكَّلت سنة 1860 م.، تاريخ نهاية لبنان الأوَّل.

لم يتوقَّف الصراع الطائفيّ الدرزيّ-المارونيّ إلاَّ حين قامت الدولة العثمانيَّة، وبضغطٍ من القوى الأوروبيَّة وعلى رأسها فرنسا، بتوحيد القائمقاميَّتَين في منطقة إداريَّةٍ واحدةٍ عُرفت باسم المتصرِّفيَّة، تحت سلطة حاكمٍ اتُّفق على أن يكون مسيحيّاً، ولكن غير لبنانيّ. والجهاز الإداريّ الجديد الذي لم يحتلّ الموحِّدون الدروز فيه سوى عددٍ قليلٍ من المراكز، أمَّن الصعود السياسيّ والاقتصاديّ للنُّخب المارونيَّة. ولئن اعترف الموحِّدون الدروز بالأرجحيَّة المسيحيَّة في هذا المجال، إلاَّ أنَّ العائلات الدرزيَّة الكبرى استطاعت أن تحفظ مواقعها. وبالرغم من هذا الانقلاب فإنَّ الهدوء عمَّ في جبل لبنان واستمرَّ التعايش السلميّ بين الطائفتين لمدَّة قرنين ونصف.

ومنذ عام 1860 م.، شهد لبنان نهضةً ثقافيَّةً انطلقت بفضل البعثات التبشيريَّة الأجنبيَّة. فالبعثات البروتستانتيَّة الأنكلو-ساكسونيَّة أسَّست جامعة بيروت الأميركيَّة الحاليَّة عام 1864 م.، في حين أسَّس اليسوعيُّون جامعة القدِّيس يوسف في بيروت، عام 1875 م. وقد شارك الموحِّدون الدروز بديناميَّةٍ في هذه النهضة، وخصوصاً في مجالات الأدب واللُّغات والعلوم، بالإضافة إلى الإعلام والصحافة[5].

مرحلة الانتداب الفرنسيّ

في الحرب العالميَّة الأولى، انضمَّت الدولة العثمانيَّة إلى ألمانيا، في حين قام الفرنسيُّون والإنكليز بدعم الثورة العربيَّة ضدَّها. وعرف لبنان في تلك المرحلة، أيَّاماً سوداء، فأضحى مسرحاً لمواجهاتٍ بين مختلف أطراف النـزاع. وقد عانى الموحِّدون

5. دور البعثات التبشيريّة في لبنان، والمتضمِّن تحليلاً للعلاقات بين الدروز وفرنسا، عُولج بصورةٍ موسّعةٍ، في نصّ مؤتمر «فرنسا والمشرق»، المنعقد في ليون، فرنسا (أيّار 2002)، الملحق رقم 1.

الدروز من ويلات تلك الحرب ولجأ بعضهم إلى سوريا، إلى جبل الدروز. وفي عام 1918 م.، صار سلطان باشا الأطرش المتحدِّر من أسرةٍ كبيرةٍ في جبل الدروز، أوّل زعيم درزيٍّ يدخل دمشق مع قوّات الحلفاء. وفي نهاية الحرب، ساند الموحّدون الدروز بقوّةٍ فكرة قيام حكومةٍ عربيّة، معارضين بذلك فكرة الانتداب الإنكليزيّ في دمشق والفرنسيّ في بيروت. وتوقّع الزعماء الموحّدون الدروز والنُّخبة المثقّفة أن تقوم حكومة فيصل بقلب موازين القوى مجدَّداً لصالحهم في جبل لبنان. وأعربوا عن رغبتهم وإرادتهم في إنشاء دولةٍ لبنانيّةٍ مستقلّةٍ تشكِّل بالنسبة إليهم الضمانة للحرِّيَّة التي طالما عرفوها وتمتّعوا بها في مراحل معيّنةٍ من تاريخهم، وخصوصاً إبّان الحكم العثمانيّ. ولكن، وتحت ضغط الحلفاء الأوروبيِّين، سقطت حكومة فيصل العربيّة (1919-1920) وانتهت مع هزيمة فيصل في ميسلون (1920). وتَمَّ بعدها وضع لبنان وسوريا تحت سلطة الانتداب الفرنسيّ.

شكّل إرساء الإدارة الانتدابيّة الفرنسيّة في جبل لبنان بالنسبة إلى الموحّدين الدروز، شكلاً جديداً من أشكال الهيمنة المارونيّة المدعومة من الفرنسيِّين الذين قسّموا سوريا إلى دويلاتٍ صغيرةٍ مختلفةٍ، وعلى قواعد مناطقيّةٍ وطائفيّةٍ. وأسّسوا في الفترة نفسها، وبحسب المبدإ نفسه، «لبنان الكبير» من ضمّ الساحل وجبل لبنان وسهل البقاع. وصار جبل لبنان، الذي هو المعقل التاريخيّ للموحّدين الدروز، مركز الدولة الجديدة. واقتنعت النُّخب الدرزيّة بأنَّ الفرنسيِّين شكّلوا لبنان الكبير هذا تحت ضغط من المسيحيِّين ولمصلحتهم، وبأنَّ هذه الدولة الجديدة، ومهما كان حجمها، ستوفِّر، على الدوام، إطاراً لضمان الأرجحيّة المارونيّة. وبالفعل، فَقَدَ الموحّدون الدروز المزيد من استقلالهم السياسيّ لصالح الموارنة، وما احتلُّوا مركزاً رسميّاً سوى مركز قائمقام الشوف، وهو منصبٌ إداريٌّ ثانويّ.

أدّت سياسة الانتداب الفرنسيّ هذه إلى استياءٍ عامٍّ شمل غالبيّة أهالي سوريا ولبنان. فتقسيم هذين البلدين بالشكل الذي تَمَّ فيه نَمَّ عن قلّة إدراكٍ وانعدام حصافة. كما أنَّ تدابير سلطات الانتداب لم تترك للسلطات المحلِّيّة أيّ فسحةٍ لكي تدير شؤونها الداخليّة بنفسها. لا بل عمدت إلى تعيين مفوَّضين فرنسيِّين كبار،

حصروا بأيديهم كلَّ السلطات. وأدَّى تفاقم القهر والشعور بالظلم والمهانة إلى اندلاع الثورة الدرزيَّة الكبرى في منطقة جبل الدروز. وقد أطلق الشرارة التي أشعلت الثورة هجومٌ قامت به قوَّات الانتداب على منـزل سلطان باشا الأطرش الذي لجأ إليه أدهم خنجر الشيعيّ، المطارد بدوره من قبل الفرنسيِّين. وهكذا، قام الموحِّدون الدروز بثورةٍ مسلَّحةٍ ضدَّ الانتداب (1925-1927)، ثورةٍ قمعتها السلطات الأجنبيَّة بقوَّةٍ وعنفٍ كبيرين، إلى أن رضخ الموحِّدون الدروز بداعي التسليم بالعيش في ظلّ السلطة الفرنسيَّة المنتدِبة وكبت حماسهم الوطنيّ[6].

بين الحربين، استمرَّ الموحِّدون الدروز، وعلى الرغم من كلّ شيء، في الانتساب إلى مختلف الأحزاب الوطنيَّة المطالبة باستقلال لبنان. وقد فتحت الحربُ العالميَّة الثانية أبوابَ الاستقلال، حين بدأت سلطة الانتداب الفرنسيّ في سوريا ولبنان، تترنَّح منذ العام 1941. واعترف الدستور اللبنانيّ الذي وضعته الحكومة اللبنانيَّة، بالرغم من معارضة سلطات الانتداب، بالتعدُّديَّة الطائفيَّة في لبنان من خلال توزيع المقاعد في الجمعيَّة الوطنيَّة، كما في مختلف المراكز العليا في الدولة، بين مختلف الطوائف. وفي 11 تشرين الثاني 1943، عمدت سلطات الانتداب إلى اعتقال كبار المسؤولين في الدولة اللبنانيَّة، رئيس الجمهوريَّة بشارة الخوري ورئيس الوزراء رياض الصلح، وعددٍ من الوزراء والقادة السياسيِّين، واحتجزتهم في قلعة راشيَّا. وقد أفلت من حملة الاعتقالات هذه، وزير الدفاع الأمير الدرزيّ مجيد أرسلان ومعه عددٌ من القادة اللبنانيِّين، فلجأوا إلى معقل الوزير في منزل حسين الحلبي في بشامون حيث أعلنوا تشكيل حكومةٍ لبنانيَّةٍ مؤقَّتة. وتحت ضغط الإنكليز والمظاهرات الشعبيَّة، اضطرَّت سلطات الانتداب الفرنسيّ إلى إطلاق سراح هؤلاء الزعماء. وهكذا، أُعلن استقلال لبنان في 22 تشرين الثاني 1943. والشهيد الوحيد الذي سقط في معركة الاستقلال كان الدُّرزي سعيد فخر الدين من بلدة عين عنوب.

---

6. لتحليلٍ أوسع عن تلك الثورة الدرزيَّة، أنظر أيضاً نصّ المداخلة في مؤتمر «فرنسا والمشرق»، المنعقد في ليون، فرنسا (أيَّار 2002)، الملحق رقم 1.

الفصل الثالث

التنظيم المذهبيّ والتنظيم الاجتماعيّ

لبنان دولة متعدِّدة الطوائف، أي أنَّها ليست علمانيَّة، لذلك قامت على نظام سياسيٍّ طائفيّ. هذا يعني أنَّ اللبنانيِّين يحدِّدون أنفسهم أوَّلاً نسبةً إلى انتمائهم إلى طائفةٍ دينيَّة، قبل الانتماء إلى الوطن، وبالتالي ليس ثمَّة علاقة مواطنيَّةٍ مباشرةٍ بين الدولة واللبنانيِّين. وعليه، فإنَّ حقوق المواطنين ترجع أوَّلاً إلى التراث الفقهيّ والقانونيّ لطوائفهم. غير أنَّ الطوائف الدرزيَّة والإسلاميَّة تنتمي إلى جهاز الدولة، في محافظةٍ على التقليد العثمانيّ القديم. لذا، نجد عدداً من متولّي مراكزهم الدينيَّة يتقاضون رواتبهم من الدولة، في حين أنَّ الطوائف المسيحيَّة مستقلَّة عن الدولة وترجع في ذلك إلى كنائسها المختلفة.

لم يكن لدى الموحِّدين الدروز اللبنانيِّين أيَّ تنظيم مذهبيٍّ مستقلٍّ قبل الاستقلال. وقد تَمَّ تأسيس التنظيم المذهبيّ المستقلّ بتأثيرٍ من سائر الطوائف الإسلاميَّة وبالعلاقة معها. فبعد أن حصل السُّنَّة في لبنان على حقّ تشكيل مجلسهم الخاصّ وانتخاب مفتي الجمهوريَّة، وقبل أن يحصل الشيعة وبقيَّة المسلمين على الحقّ في تنظيمٍ خاصٍّ مستقلٍّ كهذا، استطاع الموحِّدون الدروز إقرار عددٍ من التشريعات المتعلِّقة بهم، وأبرزها قانون 13 تمُّوز 1962، الذي وضع أُسس تنظيمهم الدينيّ والاجتماعيّ قبل صدور القانون الجديد بتاريخ 09/ 06/ 2006 الذي استوحى الكثير من أحكامه من القانون الأوَّل.

التنظيم المذهبيّ

طائفة الموحّدين الدروز طائفةٌ معترفٌ بها من قبل الدولة اللبنانيَّة، أُسوةً ببقيَة الطوائف اللبنانيَّة. وهي مستقلَّةٌ في شؤونها الدينيَّة وأوقافها ومؤسَّساتها الخيريَّة. وبالتالي، فإنَّها تنظِّم شؤونها الداخليَّة ومؤسَّساتها وتديرها بالتوافق مع التزاماتها الدينيَّة، والامتيازات الطائفيَّة، وقوانين الطائفة، وكلّ ما ينتج عن ذلك من نظم وقوانين. وتحكم شوؤن طائفة الموحّدين الدروز وتنظِّمها القوانين الخاصَّة بالمجلس المذهبيّ الدرزيّ، ومجلس أُمناء الأوقاف العامَّة وانتخاب شيخ العقل. أمَّا القوانين المتعلِّقة بالأحوال الشخصيَّة والتنظيم القضائيّ المذهبيّ الخاصّ فسيتمّ عرضها في الفصل الخامس من هذا الكتاب.

قانون تنظيم شؤون طائفة الموحِّدين الدروز الجديد:
المجلس المذهبيّ ومشيخة العقل

أدَّت الانتخابات النيابيَّة التي جرت في ربيع سنة 2005، وعلى إثر التحوُّل الكبير غداة اغتيال الرئيس الشهيد رفيق الحريري وإجبار الجيش العربيّ السوريّ على الانسحاب من لبنان في 26 نيسان 2005، إلى حصريَّة التمثيل النيابيّ الدرزيّ في الكتلة النيابيَّة المُسمَّاة «اللقاء الديموقراطيّ» التي يرأسها وليد جنبلاط. أصبح النوَّاب الموحِّدون الدروز الثمانية بنتيجة هذه الانتخابات يدينون بالولاء للزعيم الجنبلاطيّ، مع سقوط سائر المرشَّحين الذي ينتمون إلى التيَّار الأرسلانيّ، وعلى رأسهم الأمير طلال أرسلان والنائب السابق عن راشيَّا فيصل الداوود.

شكَّل انتماء هؤلاء النوَّاب الموحِّدين الثمانية إلى الكتلة الجنبلاطيَّة - أحَدُهم حليف - حافزاً لإعداد قانونٍ جديدٍ لتنظيم شؤون طائفة الموحِّدين الدروز ودراسته وإقراره، وقد صدر بتاريخ 09/ 06/ 2006، ونُشر في الجريدة الرسميَّة بتاريخ 12/ 06/ 2006[1].

1. الجريدة الرسميّة، العدد 30، ص 3515، في 12/ 06/ 2006.

ودخل القانون الجديد حيِّز التنفيذ فور نشره، وتضمَّن في ما تضمَّنه إلغاء القوانين التي كان معمولاً بها، وأَوجد تنظيماً جديداً بأَحكام استندت بعضُها إلى القوانين السابقة، وحافظ على وحدانيَّة مشيخة العقل، كما نصَّ على آليَّة التنفيذ على النحو الذي سنفصِّله لاحقاً.

أكَّد هذا القانون ما أورَده القانون الرقم 208، للعام 2000. فبينما كانت التسمية «الطائفة الدرزيَّة»، أصبحت «طائفة الموحِّدين الدروز». واستعاد القانون الجديد نصوصاً كثيرةً من القوانين السابقة تتحدَّث عن استقلاليَّة الطائفة بشؤونها الدينيَّة وأوقافها الخيريَّة، والجديد أنَّه أَولاها تشريع أنظمتها وإدارة مؤسَّساتها بنفسها، طبقاً للأحكام الروحيَّة الطائفيَّة وامتيازاتها المذهبيَّة والقوانين والأنظمة المستمدَّة منها، أُسوةً بسائر الطوائف الإسلاميَّة المنظَّمة بموجب قوانين وضعيَّة.

فبموجب القانون الجديد، يمثِّل شيخُ العقل الطائفةَ في الأمور الدينيَّة لدى السلطات العامَّة والطوائف الأُخرى، ويتولَّى رعاية شؤونها الروحيَّة ومصالحها الدينيَّة والاجتماعيَّة في مختلف مناطق الجمهوريَّة اللبنانيَّة. وعدّل القانون الجديد عدد أعضاء الهيئة الاستشاريَّة ليصبح ستَّة من مشايخ الدِّين المعروفين بعلمهم الدينيّ، على أن يكون أحدهم من خلوات البيَّاضة. ويتمّ تعيينهم من قبل شيخ العقل في مهلة شهر من تاريخ تسلُّمه مهامه. وقد منع القانون أيّ صلة قُربى بشيخ العقل، وحدَّد السنّ بخمسٍ وثلاثين سنةً على الأقلّ، ومدَّة التعيين ثلاث سنواتٍ قابلةٍ للتجديد.

كما حدَّد القانون صلاحيَّات شيخ العقل، وأبرزها ترؤُّسه المجلس المذهبيّ لطائفة الموحِّدين الدروز، مستعيداً صلاحيَّاته التي حدَّت منها القوانين السابقة، والتي عمدنا إلى ذكرها ههنا نظراً للاقتباسات الكثيرة منها. وأوجد القانون ملاكاً دائماً لموظَّفي المشيخة.

أما في ما يخصّ المجلس المذهبيّ لطائفة الموحِّدين الدروز فقد استعاد القانون الجديد عدداً من صلاحيَّاته الواردة في القوانين السابقة، لا سيَّما انتخاب شيخ العقل والإشراف على الأوقاف التابعة للطائفة. وحدَّد القانون منع المجلس من

بيع أو شراء أو رهن جميع أو بعض عقارات الأوقاف، أو إيجاد حقٍّ عينيٍّ عليها، وأجاز له حقّ الاستبدال وتغيير البناء. كما منع القانون من إجراء أيّ عقدٍ على أموال الأوقاف مع أحد أعضاء لجنة الأوقاف أو أحد موظَّفيها أو أيّ شخصٍ آخَر ينتمي إلى هيئةٍ تمارس سلطة الوصاية عليها، بما فيها أعضاء المجلس المذهبيّ أنفسهم.

وقد أناط القانون بالمجلس الاهتمامَ بشؤون أبناء الطائفة والمدارس والجامعات والجمعيَّات، ومراقبةَ الموادّ التعليميَّة عن طريق اللجنة الدينيَّة. كما منحه سلطة توجيه العقوبات إلى جمعيَّات الطائفة ومؤسَّساتها إذا لاحظ تقصيراً أو تجاوزاً للقانون والأنظمة.

وكما في القانون السابق، يتألَّف المجلس من أعضاء دائمين هم شيخ العقل والوزراء الحاليُّون والنوَّاب الحاليُّون والسابقون، مستثنياً الوزراء السابقين بخلاف ما كان معمولاً به في السابق لهذه الجهة. وأضاف إليه جميع قضاة المذهب وعضوين هما في عداد أعضاء كلّ من المجلس الدستوريّ ومجلس القضاء الأعلى.

بالنسبة إلى الأعضاء المنتخَبين، استعاد القانون الفئات نفسها التي نصَّت عليها القوانين السابقة، مضيفاً إليها فئة المحاسبين المُجَازين.

أمَّا في ما يخصّ الأعضاء المنتخَبين وممثِّلي المناطق في المجلس المذهبيّ، فقد أضاف فئةً جديدةً هي المؤلَّفة من رجال الدين، بحيث جعل منهم أربعة أعضاءٍ عن كلٍّ من قضاءَي الشوف وعاليه، وعضوَين عن كلٍّ من أقضية بعبدا وحاصبيَّا وراشيَّا، وعضواً واحداً عن بيروت، وعضواً واحداً يمثِّل بقيَّة المناطق غير المذكورة. وتتشكَّل الهيئة الناخبة لهؤلاء من المسؤولين في الخلوات العامَّة والمجالس الدينيَّة (السائسون).

ولاية المجلس المذهبيّ ستّ سنوات. عند انتهائها، وفي حال تخلَّف شيخ العقل عن الدعوة إلى الانتخاب، ينعقد المجلس المذهبيّ حُكماً في أوَّل يوم عملٍ يلي بدء مهلة الثلاثين يوماً، ويرأسه في هذه الحالة، أكبر الأعضاء سنّاً.

تخضع انتخابات المجلس المذهبيّ لإشراف لجنةٍ انتخابيَّةٍ من سبعة أعضاء من

خارج المجلس، برئاسة قاضٍ درزيٍّ متقاعد. وتُعيِّن المحكمة الاستئنافيَّة المذهبيَّة العليا هذه اللجنة، وهي نفسها تشكل المرجع الصالح للنظر بالطعون.

وأضاف القانون إلى الشروط الواجب توافرها في المرشَّح لمشيخة العقل، ألاَّ تقلَّ مدَّة ممارسته للواجبات الدينيَّة التوحيديَّة عن الخمس سنوات، وفق العُرف السائد. ولا يُعفى شيخ العقل من مهامه إلاَّ بناءً على طلبه أو لأسبابٍ خطيرةٍ تهدِّد كرامة الطائفة ووحدتها، وتمسّ بسمعتها، أو لأسبابٍ صحِّيَّةٍ تمنعه من القيام بمهامه أو لبلوغه الخامسة والسبعين من عمره. أمَّا ولايته فهي خمس عشرة سنة.

ينتخب المجلس في جلسته الأولى مجلسَ إدارةٍ مؤلَّفٍ من: أمين السرّ، وأمين الصندوق، ورؤساء للِّجان الإداريَّة والماليَّة والثقافيَّة والاجتماعيَّة والقانونيَّة والدينيَّة والأوقاف وشؤون الاغتراب. ويرأس هذا المجلس شيخُ العقل.

وحدَّد القانون أعضاء كلٍّ من هذه اللجان. فبينما تتألَّف اللجان الإداريَّة والماليَّة والثقافيَّة والدينيَّة من خمسة أعضاء، تتألَّف اللجنة القانونيَّة من ثلاثة أعضاء، وكلٌّ من لجنتَي الأوقاف والشؤون الاجتماعيَّة من تسعة أعضاء ينتمون جميعهم بِمَن فيهم رؤساء اللجان، إلى المجلس. وعيَّن القانون لكلٍّ من هذه اللجان مهامها وصلاحيَّاتها. وتَمَّ إنشاء جهازٍ إداريٍّ للمجلس المذهبيّ، ولمديريَّة الأوقاف الدرزيَّة.

ومن المفيد الإشارة إلى أنَّ ميزانيَّات المجلس ومشيخة العقل والأجهزة الإداريَّة التابعة تندرج في الموازنة العامَّة للدولة اللبنانيَّة.

وحدث أنَّه، ضمن المهلة المحدَّدة في القانون وهي شهران من تاريخ نشره في الجريدة الرسميَّة، وبعد أن أحجم قائمقام شيخ العقل الشيخ بهجت غيث عن الدعوة إلى انتخاب المجلس المذهبيّ، أصدر رئيس المحكمة الاستئنافيَّة المذهبيَّة العليا الشيخ نهاد حريز قراراً بالدعوة إلى انتخاب المجلس المذهبيّ، وبتشكيل لجنةٍ للإشراف على تنظيم الإنتخابات برئاسة القاضي المتقاعد الشيخ سجيع الأعور. وقد جرت الانتخابات بتاريخ 24 أيلول 2006، في بيروت، لانتخاب أعضاء تمثِّل أصحاب الشهادات الجامعيَّة والمهن الحرَّة؛ وفي كلٍّ من الأقضية لاختيار ممثِّلي

المناطق، زمنيِّين ورجال دين.

وعقد المجلس المذهبيّ جلسته الأُولى بتاريخ 05/ 11/ 2006، وانتخب سماحة الشيخ نعيم حسن شيخ عقلٍ بالتزكية، وهو قاضٍ مذهبيٌّ في محكمة عاليه المذهبيَّة الدرزيَّة، ومن رجال العِلْمِ والتُّقى والقانون والتضامن، وسليل عائلةٍ معروفةٍ بالتزامها الدينيّ وتُقاها. واستكمل المجلس انتخاب أعضاء مجلس الإدارة ورؤساء اللجان وأعضائها. فاكتمل عقد التمثيل المذهبيّ في تشرين الثاني 2006، بحيث باشرت طائفة الموحِّدين الدروز عهداً جديداً قائماً على قاعدةٍ قانونيَّةٍ وانتخابٍ حرّ، مفتتحةً عصراً جديداً من التعاطي الديموقراطيّ والتنظيميّ لشؤون الطائفة، بعد فترةٍ من الانهيار والتسيُّب والفوضى.

يمثِّل إقرار القانون الحديث وإجراء الانتخاب واستكمال هيئات المجلس، تخلِّي طائفة الموحِّدين الدروز عن صيغة لبنان القديم، لتنتقل إلى مرحلةٍ عصريَّةٍ جديدةٍ وواعدةٍ، يؤمل معها أن تُثمر لمصلحة جميع أبناء الطائفة، وبخاصَّةٍ لمصلحة الوطن.

تاريخ إنشاء المجلس المذهبيّ الملغى بالقانون الجديد

تأسَّس المجلس المذهبيّ لطائفة الموحِّدين الدروز وفقاً لقانون 13 تمُّوز 1962، ومهمَّته التعريف بحقوق الطائفة وحفظها. وهو يتولّى إدارة الشؤون الزمنيَّة والماليَّة للطائفة، ويمثِّلها في الأمور التي تمسّ كيانها الاجتماعيّ، ويشرف على انتخابات مجالسِ إدارة الجمعيَّات والمؤسَّسات الخاصَّة بالطائفة، ويمنحها الشرعيَّة القانونيَّة، كما يطّلع على ميزانيَّات وحسابات هذه الأخيرة. وهو يتدخَّل أيضاً لحلّ النزاعات الناشئة بين مسؤولي تلك الجمعيَّات والمؤسَّسات، فتكون قراراته في هذا المجال نهائيَّةً ونافذة. وأخيراً، فإنَّ شراء كلّ موجودات الأوقاف التابعة للطائفة أو جزءٍ منها، أو بيعها أو تبادلها أو رهنها أو تأجيرها لا يتمّ دون موافقة المجلس. كما أنَّ نيل حقٍّ ثابتٍ أو تغيير بناءٍ من موجودات الأوقاف لا يحصل دون موافقته. لذا، نرى المجلس يلعب دوراً بالغ الأهمِّيَّة بالنسبة إلى الطائفة، خصوصاً على مستويَي المال وإدارة الأوقاف.

يتشكَّل المجلس، على السواء، من أعضاء منتخبين وأعضاء دائمين، ويشمل تمثيلهم للطائفة مستويَين مختلفَين: مستوًى أوّل يتمثَّل فيه الجامعيُّون وأصحاب المهن الحرَّة؛ ومستوًى ثانٍ تتمثَّل فيه المناطق اللبنانيَّة التي يتواجد فيها الموحِّدون الدروز، أي بيروت والشوف والمتن وعاليه وحاصبيًّا وراشيًّا.

لكنَّ هذا المجلس تعطَّل عمليّاً منذ مطلع سبعينيَّات القرن العشرين، بسبب الصراعات والاختلافات في الرأي والتفسير بين مختلف الزعماء والوجهاء. وقد وُضعت مشاريع قوانين كثيرة، بهدف تصحيح هذا الوضع الشاذّ، وإعادة تنشيط المجلس المذهبيّ كسلطةٍ مرجعيَّةٍ تُشرف على أداء مجلس أمناء الأوقاف وتراقبه، لكنها لم تفضِ، إلى أن صدر القانون الجديد.

مجلس أُمناء الأوقاف وفق القانون الملغى

تأسَّس مجلس أُمناء الأوقاف وفقاً للقانون رقم 127، بتاريخ 25 تشرين الأوَّل 1999. في حين أنَّ المجلس المذهبيّ هو المخوَّل الإشراف على إدارة موجودات الأوقاف الدرزيَّة ومواريثها، فإنَّ مجلس الأُمناء يتولَّى الإدارة اليوميَّة لهذه الأوقاف. وهو يضع السياسات الخاصَّة بها والمشاريع المناسبة لتطويرها، ويُعدّ مشاريع للاستثمار المنتِج، ودراسات الجدوى، وكلفة وتقديرات الأرباح وما إليها، ويضعها موضع التنفيذ بعد أخذ موافقة المجلس المذهبيّ. وهو يدير أيضاً الخدمات ويراقبها، كما يستثمر الموارد ويعيِّن لجان المناطق.

يتشكَّل مجلس أُمناء الأوقاف من خمسة وعشرين عضواً، يعيِّنهم المجلس المذهبيّ. منذ مطلع سبعينيَّات القرن الماضي، وبسبب الغياب الفعليّ للمجلس المذهبيّ الذي هو أساسٌ في تعيين كلّ المؤسَّسات الدرزيَّة والإشراف عليها، فقد لجأت الطائفة إلى الحكومة اللبنانيَّة، بصورةٍ استثنائيَّة. وبعد إقرار قانونٍ خاصٍّ في المجلس النيابيّ، ووفقاً للقرار رقم 1767، الصادر عن الحكومة اللبنانيَّة، فقد جرى تعيين أعضاء مجلس أُمناء الأوقاف من قبل أشخاصٍ من خارج الطائفة، وبموافقة كلّ نوَّاب الموحِّدين الدروز في البرلمان، في 29 تشرين الثاني 1999.

مرَّةً أُخرى، أصبح مجلس الأُمناء في حكم المشلول ولا يعمل فعليّاً بسبب الصراعات والخلافات السياسيَّة داخل الطبقة السياسيَّة الدرزيَّة. فالخلاف بين رئيس المجلس ومديره، والذي ضاعف من حدَّته صراع المصالح داخل القيادة السياسيَّة الدرزيَّة والتدخُّلات السياسيَّة الخارجيَّة، قد عطَّل عمل المجلس واستهلك كلّ وقته حتَّى انتهاء ولايته. وبعد مرور خمس سنوات على تعيينهم لم يكن أعضاء المجلس قد تسلَّموا مهامهم فعليّاً. أضف إلى ذلك أنَّ بعض المعارضين الموحِّدين، وخصوصاً من رجال الدين، قد اتَّهموا السياسيِّين باستغلال مجلس الأمناء ليضعوا يدهم على الأوقاف التي أنشأها في الأصل أحد رجال الدين، وهو الشيخ أحمد أمين الدين (ت. 1224 هـ. / 1809 م.)، وقبله الأمير السيِّد جمال الدين عبدالله التنُّوخيّ، بهدف خدمة رجال الدين. وهؤلاء السياسيُّون أنفسهم لم ينشِّطوا عمل المجلس المذهبيّ الذي ينبغي أن يكون مصدر كلّ المؤسَّسات الدرزيَّة، وبالتالي فإنَّ مجموع أملاك الطائفة ومواريثها أدارها دون توافقٍ فعليٍّ الشيخ بهجت غيث، قائمقام شيخ العقل آنئذ، وقد عيَّنه في هذا الموقع شيخ العقل السابق المرحوم محمَّد أبو شقرا، بصورةٍ مؤقَّتةٍ ولفترةٍ زمنيَّةٍ محدَّدة، لحين انتخاب شيخ عقلٍ أصيل. وعاونه موظَّفٌ في المجلس المذهبيّ سرعان ما احتدم بينهما الخلاف، وكذلك بعض الأشخاص الحائزين دعم الزعماء السياسيِّين أو المشايخ. هذا الوضع الذي لا علاقة له بالحرب الأهليَّة ومخلَّفاتها، يعكس في الحقيقة الجوَّ السياسيّ السائد آنئذ في الطائفة الدرزيَّة اللبنانيَّة. ولكن، وبعد نفاذ القانون الجديد أُلغي قانون مجلس أُمناء الأوقاف العامَّة وأصبحت مهمَّة الأوقاف منوطةً بأحكام قانون تنظيم شؤون طائفة الموحِّدين الدروز الصادر بتاريخ 09/ 06/ 2006.

مشيخة العقل وفق القانون السابق المُلغى

بسبب الانقسام السياسيّ بين يزبكيَّة وجنبلاطيَّة، لَحَظَ القانون، في الأساس، وجود شيخَي عقل للطائفة الدرزيَّة في لبنان، واحد لكلّ حزبٍ من الحزبَين. وحدث أنَّه، عقب وفاة الشيخ اليزبكيّ رشيد حماده، بقي الشيخ الجنبلاطيّ

محمَّد أبو شقرا هو الزعيم الروحيّ الوحيد للطائفة، لفترةٍ طويلةٍ وحتّى وفاته عام 1991. ولم يفكِّر الموحِّدون الدروز بمعارضة هذا الوضع نظراً لشخصيَّة الشيخ ومكانته وهيبته التي فرضت الاحترام على الجميع، وتقديراً لدوره الكبير في التاريخ المعاصر للطائفة. لا بل قرَّر الموحِّدون الدروز منذ ذلك الوقت، أن يكون لهم زعيمٌ روحيٌّ واحدٌ فقط. أتى هذا القرار خطوةً إيجابيَّةً لتخفيف حدَّة انقساماتهم السياسيَّة الداخليَّة، ولتجاوزها.

وبعد مشاوراتٍ طويلةٍ، صدر القانون رقم 208، في 26 أيّار 2000، وتعديلاته في 8 حزيران 2000، الصادرة بناءً على أحكام المجلس الدستوريّ، ليُلغي قانون 1962، ويحدِّد انتخاب شيخ عقلٍ واحدٍ للطائفة الدرزيَّة. وقد لقي هذا القانون إجماعاً عامّاً إلى حدّ أنَّ اليزبكيَّة والجنبلاطيَّة اتَّفقا على نظام المداورة في انتخاب شيخ العقل، ليتسَّنى للحزبَين المشاركة في المسؤوليَّة. وبحسب القانون الجديد، كما القديم، فإنَّ شيخ العقل يتمتَّع، على المستوى الوطنيّ، بالاحترام والحقوق والامتيازات نفسها التي للزعماء الروحيِّين في سائر الطوائف اللبنانيَّة. أمَّا المرشَّح لهذا المنصب فينبغي أن يتمتَّع ببعض الصفات: بالإضافة إلى كونه درزيّاً، يجب أن يكون لبنانيّاً، وقد تجاوز الأربعين من عمره، واشتُهر بالتقوى والصلاح والانتماء إلى المسلك (عاقلاً)، وبممارسة الشعائر الدينيَّة، وبسيرته المثاليَّة وسلوكه وصفاته الحميدة والأخلاق الرفيعة وحُسن المعاشرة، بحيث يتجاوز كلّ ما قد يُسيء إلى الدِّين وشرف مسلكه الدينيّ. وينبغي أن يكون عارفاً عالِماً في الشؤون الروحيَّة، وأيضاً بالتقاليد والعادات الدرزيَّة. ولاية شيخ العقل خمس عشرة سنةً قابلةً للتجديد، إلى أن يبلغ الخامسة والسبعين من عمره.

يعاون شيخَ العقل مجلسُ مشيخةٍ مؤلَّفاً من أربعة شيوخ، يدير مجمل شؤون الطائفة الروحيَّة، بحيث يصبح هناك مجلس مؤلَّف من خمسة أعضاء[2]. وقد

2. نحن هنا مجدَّداً أما الرقم 5 المهمّ جدّاً في الرمزيَّة الدرزيَّة. راجع الفصل الرابع، عن الثقافة التقليديَّة، ومعنى عيد الأضحى عند الموحِّدين الدروز.

استعاد القانون الجديد نصوصاً من القانون القديم لجهة ترؤُّس شيخ العقل اجتماعات المجلس المذهبيّ، وتمثيله الطّائفة على الصعيد الروحيّ أمام السلطات الرسميَّة وسائر الطوائف. وهو مسؤولٌ عن كلّ ما له علاقةٌ بالشؤون الدينيَّة والطقوس والأماكن المقدَّسة وحفظ حِرمة المشايخ وصونها. كما أنَّ سلطاته تشمل كلّ الحقول التي لها علاقة بالطابع الدينيّ للطائفة. فهو يشرف على إدارة المقامات والمزارات[3]، والمجالس الدينيَّة والحلقات والاجتماعات ذات الطابع الدينيّ العامّ. ويمنح الموافقة على طبع المؤلَّفات ذات الطابع الدينيّ والعقائديّ ونشرها، ويلاحق المخالفين أمام المحاكم. كما أنَّه يوافق على برامج التعليم الدينيّ وعلى تطبيقها قبل العمل بها. ويعيِّن الأشخاص المكلَّفين بممارسة الطقوس الدرزيَّة، بغية السماح بإعفائهم من الخدمة العسكريَّة الإلزاميَّة. ويوافق على إعادة تسجيل الموحِّدين الدروز الذين سبق وغيَّروا مذهبهم ويودُّون العودة إليه، في سجلاَّت الأحوال الشخصيَّة. وهو يصادق على تشكيل البعثات المكلَّفة بمهمّاتٍ دينيَّةٍ في الخارج، ويعيِّن ممثِّلي الطائفة في بلدان الاغتراب. غير أنَّ سلطته الدينيَّة لا تشمل الموحِّدين الدروز غير اللبنانيِّين، أي أنَّها ليست ذات طابع دوليٍّ طالما أنَّ دروز البلدان المجاورة لهم مؤسَّساتهم الخاصَّة ومشايخ عقل (ثلاثة في سوريا وواحدٌ في فلسطين). أمَّا أبناء التجمُّعات الدرزيَّة في الخارج فهم يتبعون ممثِّلي شيوخ العقل في بلدهم الأُمّ.

ويبقى شيخ العقل، من حيث المبدإ، سلطةً رسميَّةً لا تُعارَض. كما أنَّ بعض مشايخ العقل، وبتأثير من بقايا صوفيَّة، يحظون بتبجيل واحترام وتقدير كبير من أتباعهم أو مواطنيهم، بحيث تتخطَّى سلطتهم حدود الديار أو البلاد. هذه كانت حال الأمير السيِّد عبدالله التنُّوخيّ[4]، في القرن الخامس عشر، ومن المعاصرين المرحوم الشيخ أبو أمين يوسف طريف شيخ العقل في فلسطين، والمرحوم الشيخ

3. راجع في هذا الصدد الفصل الأوَّل، عن البُنى الدينيَّة والاجتماعيَّة لطائفة الموحِّدين الدروز.
4. أنظر نبذة عن سيرته الذاتيَّة، في الفصل السادس.

أبو حسن عارف حلاوي في لبنان، الذي تمتّع بسلطةٍ معنويّةٍ كبيرةٍ في مختلف أنحاء العالم حيث ينتشر الموحّدون الدروز، سلطةٍ تجاوزت سلطة شيخ العقل في لبنان. وأصبح مدفنه الموجود في الباروك، في قضاء الشوف، مَحَجّاً للمؤمنين. أمّا في الوقت الراهن فلم يبقَ مَن يتمتّع بسلطةٍ روحيّةٍ مماثلةٍ لدى كلّ دروز العالم سوى الشيخ أبو محمّد جواد وليّ الدين الذي يعيش في خلوته الخاصّة في بعقلين في الشوف، والذي عمد منذ فترةٍ قصيرةٍ إلى إلباس بعض المشايخ المشهود لهم بالتقوى والورع والحكمة، «اللّفة المدوَّريّة»، المسمّاة في التُراث التوحيديّ «تيجان العرب».

وقد أُلغي أيضاً هذا القانون (رقم 208، بتاريخ 26/ 5/ 2000) بعد صدور قانون تنظيم شؤون طائفة الموحّدين الدروز الجديد، إلاّ أنّنا آلَيْنا على أنفسنا ذكر بعض أحكامه الأساسيّة التي تُركت، وربّما ما زالت تترك آثاراً اجتماعيّةً حتّى اليوم، أو تلك التي استعادها القانون الجديد.

المجلس الدرزيّ للبحوث والإنماء

تأسّس هذا المجلس عام 1977، إثر اغتيال كمال جنبلاط، وبمبادرة عددٍ من الشخصيّات، منها وليد جنبلاط، مروان حماده، حليم تقيّ الدين، عبّاس الحلبي، خالد صعب، نديم معضاد، عادل حميّه، عمر حمزة، عدنان عريضي، أكرم حماده، خالد نجّار، سامي مكارم، عبّاس أبو صالح، وليد تقيّ الدين، أنور الخليل، مكرم علم الدين، ومجيد جنبلاط. هَدَفَ إنشاء هذا المجلس الذي يضمّ شخصيّاتٍ تشكل فريق عملٍ وبحثٍ، وتنحدر من اختصاصاتٍ مختلفة، إلى التعاطي مع الوضع الصعب الّذي واجه بدايات العمل السياسيّ لوليد جنبلاط، وإلى النضال ضدّ حملات التشويه والتضليل التي تعرّضت لها طائفة الموحّدين الدروز. وضع المجلس برامج عدّة مثل مشروع الإحصاء عام 1980، ونشر كُتُباً عديدةً تتعلّق بتاريخ الموحّدين الدروز وعقائدهم وعاداتهم وتقاليدهم، إضافةً إلى الأدب والشعر الدرزيّين. كما حاول المجلس تنظيم شؤون الاغتراب الدرزيّ من خلال إنشاء المجلس الدرزيّ العالميّ.

رابطة العمل الاجتماعيّ

وسُمِّيت أيضاً، رابطة الجامعيّين الدروز. تأسّست عام 1958، وهي تؤمّن من ناحيةٍ منحاً وقروضاً تعليميّة، وتنظّم نشاطاتٍ ثقافيّة، من ناحيةٍ أُخرى.

مؤسّسة التراث الدرزيّ

أسّسها وموّلها سليم خير الدين في لندن. تُعنى بإحياء التراث الدرزيّ الاجتماعيّ والتاريخيّ والإنسانيّ والدينيّ، وفق منهجيّةٍ علميّة. وقد أَصدرت حتّى اليوم، العديد من المؤلّفات القيّمة في العديد من الجوانب التي تتّصل بنشر التراث والفكر الدرزيَّيْن.

التنظيم الاجتماعيّ

حافظت طائفة الموحّدين الدروز في تنظيمها الاجتماعيّ، طوال تاريخها وحتّى يومنا هذا، على النظام الإقطاعيّ. وهي لم تبدأ بالتطوُّر على هذا الصعيد، إلاّ في بدايات القرن العشرين. لم يكن الموحّدون الدروز يعتمدون حتّى ذلك التاريخ سوى على عملهم في الزراعة، وعلى ما تجود به الطبيعة من خيرات، دون الاهتمام بالتجارة أو الصناعة. وخضعت كلّ قريةٍ لسلطة شيخ يختاره الأمير أو البيك الذي حصل على اللقب من الدولة العثمانيّة، إمّا بالمال، وإمّا باستحقاقه عن جدارة. وقد خضع أعضاء طائفة الموحّدين الدروز للنظام الدينيّ القديم، أي أنّهم أطاعوا شيخ قريتهم دون سواه، ولم يعترفوا بأيّ سلطةٍ أُخرى غير سلطة أمير الطائفة، أي السيِّد الإقطاعيّ. وقد خاضوا الحروب تحت إمرة هذا الأخير، عن خضوع له، كدليل على طاعتهم العمياء. وثمّة أمثلةٌ مذهلةٌ عن هذا الولاء حصلت في خضمّ الحرب الأهليّة الأخيرة، وعلى سبيل المثال نذكر أنّه حين حضر كمال جنبلاط لتقديم واجب العزاء لعائلات رجالٍ سقطوا وهم يقاتلون في صفوف الحزب التقدُّميّ الاشتراكيّ، قالت له أُمُّ أحد الضحايا إنّ أبناءَها الثلاثة الآخرين هم رهن إشارته.

وحتّى يومنا هذا، ما زال الموحّدون الدروز يُظهرون طاعةً حقيقيّةً لزعيم

الطائفة، بسبب النظام السياسيّ الطائفيّ. والدولة اللبنانيَّة تشجِّع هذا النوع من الزبائنيَّة، إذ لا تعترف بالأفراد ولا تعرِّف بهم إلاَّ من خلال انتمائهم الطائفيّ. فيُمسي زعماءُ الطوائف الوسيطَ أو الممرَّ الإلزاميّ بين أيّ مواطنٍ لبنانيٍّ وأيّ مؤسَّسةٍ أو معاملةٍ في الدولة. وبالتالي، يصبح من مصلحة كلّ فردٍ أن يحافظ على أحسن العلاقات مع زعيم طائفته. أمَّا الهيبة والاحترام اللذان يتمتَّع بهما زعيم طائفة الموحِّدين الدروز فيعودان إلى أمرَين اثنين: أوَّلهما أنَّ الطاعة والاحترام هما ثمرةٌ مزدوجةٌ لعاملَين: عقدة الأقلِّيَّة لدى البعض، وبقايا النظام الإقطاعيّ. ففي الأساس، كان الزعيم قائداً حربيّاً، أميراً للجيش يمشي على رأس أنصاره للدفاع عن وجودهم ومصالحهم أو لتأمين سلامتهم؛ والأمر الثاني هو أنَّ زعيم الطائفة يستحوذ على السلطة وكلّ ما له علاقة بالخدمات أو التعيينات في جهاز الدولة. فباستثناء أمثلةٍ نادرة، لا توافق الحكومة على أيّ ترشيحاتٍ لوظائف الإدارة العامَّة أو القضاء أو الجيش أو غيرها من مراكز الدولة، إذا لم يَرِد اسم المرشَّح في اللاَّئحة التي يقدِّمها زعيم الطائفة. وفي المقابل، يحصل الزعيم دون سواه، على حقّ توزيع كلّ الخدمات العامَّة التي تؤمِّنها الدولة عادةً، من مثل شقّ الطرقات الجديدة، وتعيين المعلِّمين والمدرِّسين في المدارس، أو نقل موظَّفٍ من مركزٍ إلى آخَر... وبالإضافة إلى هذين الأمرين، هناك الدور المتعاظم للحزب، وهو جهازٌ حقيقيّ لإدارة الانتخابات وقيادة كلّ المظاهرات والمناسبات. فالحضور الدائم للحزب يعزِّز بشكلٍ كبير، سلطةَ زعيم الطائفة ونفوذَهُ على الموحِّدين الدروز اللبنانيِّين. هذه العلاقة الجَدليَّة بين حاجة الدولة إلى دعم الزعماء الإقطاعيِّين الذين يختزلون تمثيل الطائفة، ومصلحة الزعماء الإقطاعيِّين في الاشتراك في الحُكم ليستفيدوا من الامتيازات التي يؤمِّنها لهم، هذه الجدليَّة تفسِّر إصرار الزعماء على المشاركة، شخصيّاً، في الوزارات وعدم إعطاء الفرصة لغيرهم لممارسة هذا الدور باستثناء من يدينون بالولاءِ المُطْلَق لَهم. وبناءً على كلّ ما سبق، نجد أنَّ التنظيم الاجتماعيّ للدروز هو في آنٍ معاً، دينيٌّ ومدنيّ.

التنظيم الدينيّ

بخلاف التنظيم الدينيّ في الطوائف الإسلاميَّة والمسيحيَّة، لا يرتكز التنظيم الدينيّ الدرزيّ على هرميَّةٍ متسلسلةٍ موازيةٍ لتلك التي تحدِّدها القوانين الكنسيَّة أو الشريعة القرآنيَّة، بل هو يقوم على أعراف وتقاليد مستمَدَّةٍ من المسلك العرفانيّ الذي يوصي به إيمانهم. وبناءً عليه، يتوزَّع الموحِّدون الدروز على المستوى الدينيّ، إلى «عُقَّال أو روحانيِّين»، أي أولئك الذين تعرَّفوا إلى العقائد التوحيديَّة، و«جُهَّال أو جسمانيِّين»، أي الذين لم يدخلوا بعد في مسلك العرفان والمعرفة. وينطبق هذا التقسيم أيضاً على النساء، إذ إنَّ وضعهنَّ مساوٍ تماماً لوضع الرجال على الصعيد الدينيّ. فهنَّ يحضرن المجلس، في قسم خاصٍّ بهنَّ، يفصله حجابٌ عازلٌ عن قسم الرجال. كما يحقّ لهنَّ استلام الدِّين، أي دخول المسلك، وحتَّى أن يصبحنَ «شيخات».

يجتمع «العُقَّال»، أي الذين دخلوا المسلك أو استلموا دينهم، مساء كلّ خميس في المجلس، وهو مكان الصلاة الجماعيَّة. غير أنَّ هذا المكان ليس مخصَّصاً حصراً للطقوس الدينيَّة، وليس الحضور إليه إلزاميّاً، إذ بإمكان الموحِّد أن يصلِّي حيث يشاء، طالما أنَّ مسلكه الدينيّ الروحيّ ناجمٌ عن جهدٍ وخيارٍ شخصيَّين. ولكلّ مجلس «سايسٌ» يقود الصلاة التي تتمّ على ثلاث مراحل: تبدأ أوَّلاً، بقراءة «المقدِّمات»؛ وهذه المرحلة مفتوحةٌ ويُسمح لجميع الموحِّدين الدروز بحضورها. في المرحلة الثانية، تُقرأ مختارات من نصوص إسلاميَّةٍ، وبخاصَّةٍ صوفيَّة؛ وهي مخصَّصة حصراً لبعض السالكين العُقَّال. أمَّا المرحلة الثالثة فتقوم على دراسةٍ أكثر عمقاً لتأويل العقيدة؛ وهذه لا يحضرها إلاَّ كبار العُقَّال.

بالإضافة إلى جلسات المجلس، بإمكان الدرزيّ أن يتفرَّغ لمسلكه الروحيّ والمذهبيّ من خلال العُزلة لفترةٍ من الوقت، في الخلوات[5]. ويُسمح للعُقَّال بممارسة مهنٍ معيَّنةٍ، على غرار التعليم والزراعة والحِرَف، وتلك المرتبطة بالطبّ

5. أنظر الفصل الأوَّل، البُنى الدينيَّة لطائفة الموحِّدين الدروز.

والصحَّة. ولا يجوز لهم تقاضي أيَّ أَجرٍ من الدولة أو ممارسة أيّ وظيفةٍ عامَّة، تلافياً لاحتمال أن تكون الأموال العامَّة ذات منشإٍ حرام. إنَّ هيبتهم ومكانتهم ومسلكهم الدينيّ تفرض عليهم، في الواقع، عدم الاشتراك في استخدام أيّ مدخولٍ أو منتوجٍ يُشتبه أنَّه حرام. ورغماً من ذلك، فإنَّ شيخ العقل يتقاضى مُرَتَّباً من الدولة، حيثُ إنَّ منصبه جزءٌ من جهاز الدولة ويتبع مباشرةً لرئاسة مجلس الوزراء. وهناك جسمٌ إداريٌّ كاملٌ من الموظَّفين يتقاضون أُجوراً من الدولة ويخضعون لسلطة شيخ العقل.

ويمكن تمييز العُقَّال من العمامة البيضاء أو «اللَّفَّة» التي يعتمرونها، ولباسهم الأسود، بالإضافة إلى لِحاهم الطويلة. في حين أنَّ الشيخات يرتدينَ حجاباً أبيض ورداءً يُعرف باسم «السابة». غير أنَّ العُقَّال الذين يعملون في المؤسَّسات الخاصَّة فإنَّهم غير ملزمين بارتداء الزيّ الدينيّ الخاصّ، إفساحاً في المجال لارتداء ما تقتضيه أعمالهم من لباس. أمَّا الجُهَّال فيستطيعون الوصول إلى مرتبة العُقَّال بعد النجاح في اختبارٍ صعبٍ يقوم على ضبط النفس، وقمع الشهوات والغرائز المادِّيَّة لفترةٍ طويلةٍ من الزمن، وصولاً إلى تعذيب الذات، وهذا نادر الحصول، لأنَّ كلّ ما يضرّ الجسد ممنوعٌ إذ إنَّ الجسد هو آلة الروح عند الموحِّدين. ومثالاً على ذلك، يُعتبر التدخين من الشهوات التي ينبغي ضبطها، وبالتالي، على المدخِّن ترك هذه العادة إن إراد حقّاً دخول المسلك. وبعض العُقَّال أو السالكين يختارون العفاف والبتوليَّة حتَّى بعد الزواج، بغية ممارسة نوعٍ من تعذيب الذات. وإخضاع السالكين الجدد للاختبار قد يستغرق أحياناً أكثر من سنة، إلى أن يتأكَّد المشايخ من أنَّهم صاروا مهيَّئين للاطِّلاع على حقيقة معتقدهم.

إنَّ سلوك هذا الطريق هو خيارٌ حُرٌّ ومبادرةٌ شخصيَّة، وبالتالي يعود الارتقاء في التراتبيَّة الدينيَّة إلى المثابرة والجهد الشخصيَّين، وإلى ذكاء المبتدىء أو «الجويِّد»[6]، وسلوكه الشخصيّ والاجتماعيّ. وإن كان المبتدئ ابناً لرجل دينٍ فهذا لا يعني

6. الجويِّد هو تصغير «جيِّد»، يستعملها الموحِّدون تواضعاً.

أنَّه بذات الفعل، رجل دين. وطلب الدخول أو استلام الدين يبقى تماماً، خياراً شخصيّاً وإراديّاً. وما من شرطٍ بالنسبة للحدّ الأدنى من العمر لدخول المسلك، لكن ينبغي على المبتدئ[7] أن يكون قد بلغ سنّ الرُّشد، حتَّى يقرِّر دخول هذا المسلك عن إرادةٍ حرَّةٍ ووعيٍ وتصميم. وحده المرشَّح لمنصب شيخ العقل يُفترض أن يكون قد بلغ الأربعين من عمره.

إلى جانب شيخ العقل ظهرت سلطةٌ روحيَّةٌ أُخرى تضمّ، في أيَّامنا هذه، شيخَين يُعرفان باسم «شيخ البلاد». يعتبرهما الموحِّدون الدروز في كلّ الأماكن والبلاد، الزعمَين الروحيَّين الحقيقيَّين، بما يتجاوز إلى حدٍّ كبيرٍ سلطة شيخ العقل ومرجعيَّته. وهذان الشيخان هما أبو حسن عارف حلاوي الذي عاش في الباروك، وأبو محمَّد جواد وليّ الدين الذي ما زال يعيش في بعقلين. وهما يتميَّزان عن بقيَّة المشايخ باللَّفَّة المميَّزة، وهي «اللَّفَّة المدوَّريَّة». وبعد وفاة الشيخ أبو حسن عارف حلاوي، ألبس الشيخ أبو محمد جواد وليّ الدين شيخَيْن من الأعلام «اللفة المدوَّريَّة» هما الشيخ أبو سعيد أمين أبو غنام من عرمون والشيخ أبو يوسف أمين الصايغ من شارون. كما هناك شيخ رابع أُلبس هذه «اللفة» هو الشيخ أبو سليمان حسيب الصايغ من معصريتي.

التنظيم المدنيّ

في القرن السابع عشر، انقسم الموحِّدون الدروز إلى حزبَين: قيسيَّة ويمنيَّة. وعلى إثر معركة عين دارة عام 1711، هاجر اليمنيُّون إلى المنفى في جبل الدروز، في سوريا، في حين انقسم القيسيُّون مجدَّداً: القيسيُّون الذين يدعمون آل جنبلاط شكَّلوا الحزب الجنبلاطيّ، ومَن يساندون آل العماد بقيادة يزبك ابن العماد، صاروا الحزب اليزبكيّ. وهكذا، أمسى آل جنبلاط وآل العماد في الباروك، أوَّل

7. المبتدئ هو مَن بلغ سنّ الرُّشد، إلاَّ إذا كان ابن جويِّد أو مُتربِّياً في بيت الأب والأُمّ أو الأُمّ فقط، فيُعتبر مكمِّلاً دينه إلى أن يختار غير ذلك من الأمور.

مَن شكَّل أحزاباً سياسيَّة في البلاد. وعلى الرغم من أنَّ هذه التشكيلات السياسيَّة هي في الواقع تحالفاتٌ إقطاعيَّة، إلاَّ أنَّ اللبنانيِّين، على مختلف فئاتهم وطوائفهم، توافقوا على جعلها أوَّل تشكيلاتٍ سياسيَّة. وقد ضمَّت، بالإضافة إلى الموحِّدين الدروز، عناصر من كلّ الطوائف. فقبل الحرب الأهليَّة كان من الشائع رؤية بعض الجماعات الجبليَّة، وخصوصاً المسيحيَّة منها، تساند هذا الحزب أو ذاك، كعلامةٍ لإرث الإمارة اللبنانيَّة. كما أنَّ بعض العائلات المسيحيَّة، في عددٍ من القرى، ما زالت تشدِّد حتَّى اليوم، على انتمائها السياسيّ إلى اليزبكيَّة أو الجنبلاطيَّة.

أمَّا اليوم فيقود آلُ أرسلان اليزبكيَّة، وآلُ جنبلاط الجنبلاطيَّة. وينتسب الدرزيّ منذ ولادته، وبصورةٍ حتميَّة، إلى أحد هذين الحزبَين، بحسب انتماء أُسرته. وولاؤه لزعيم الحزب هو ولاءٌ مطلق، ويشمل عائلة الزعامة السياسيَّة، بحيث يبدو وكأنَّ عبادة الزعيم ما زالت منتشرة جدّاً عند الموحِّدين الدروز. ويعيش الموحِّدون الدروز انتماءَهم السياسيّ وكأنَّه هويَّةٌ ثانيةٌ، ويرفعونه إلى مصافّ الانتماء العائليّ أو القرويّ. كما أنَّهم غالباً ما يجعلون منه مسألةً شخصيَّةً دون أن يسألوا أنفسهم لماذا ينتمون إلى هذا الحزب وليس إلى ذاك. والتنافس السياسيّ بين الجنبلاطيَّة واليزبكيَّة، وهو من مُخَلَّفات التراث الإقطاعيّ، يعطي الموحِّدين الدروز مرجعيَّةً انتمائيَّةً غير تلك المستمدَّة من العائلة أو القرية. غير أنَّ هذا الانتماء إلى أحد هذين الحزبَين قد ضعف في الفترة الأخيرة، وصار هامشيّاً، خصوصاً في أوساط النُّخب المتعلِّمة.

ومن اللاَّفت أنَّ الحزبَين الجنبلاطيّ واليزبكيّ لا يقومان في الحقيقة على إيديولوجيَّاتٍ مختلفةٍ متصارعةٍ. وقد حاول كمال جنبلاط خلق حزبٍ سياسيٍّ مؤسَّسٍ على الإيديولوجيا الاشتراكيَّة، إلاَّ أنَّ الموحِّدين الدروز نجحوا في تحويل حزبه إلى «جنبلاطيٍّ» صرف، مولين اهتماماً أكبر للزعيم منه للإيديولوجيا أو النظريَّات السياسيَّة، وعلى نحو الأمير طلال إرسلان والحزب الديموقراطي الذي أسسه حديثاً. غير أنَّ بعض الموحِّدين الدروز ذوي التفكير الليبراليّ والعلمانيّ وجدوا مكاناً لهم في أحزابٍ سياسيَّةٍ أُخرى غير طائفيَّةٍ، مثل الحزب

القوميّ السوريّ أو الحزب الشيوعيّ. وعلى الرغم من هذه الاختلافات السياسيّة فقد أثبت الموحّدون الدروز، أكثر من مرّة، قدرتهم على تجاوز انقساماتهم الداخليّة والاتّحاد في جبهةٍ واحدةٍ حين يتهدّد وجود الطائفة.

وبالإضافة إلى هذا الانتماء السياسيّ، ينتظم الموحّدون الدروز اجتماعيّاً في العائلة والقرية، وهما إنتماءان متقاربان متكاملان. فالموحّد الذي ينتمي إلى عائلةٍ محدَّدة، ينتمي في الوقت نفسه، إلى قريةٍ ما. وبما أنَّ معظم العائلات ترتبط فيما بينها بعلاقاتٍ مصاهرةٍ وحلفٍ وولاء، فبإمكان كلّ موحّدٍ أن يجد له صلات قُربى وإن بعيدة، مع أيِّ فردٍ من أفراد الطائفة. كما أنَّ عقيدة التقمُّص القائلة بأنَّ كلّ موحّدٍ يولد من جديدٍ في جسد موحّدٍ آخَر، تعزِّز روابط الدم بين أعضاء الجماعة. وبناءً عليه، ما من داعٍ لادِّعاء رفعة الشأن بين العائلات طالما أنَّ أيَّ فردٍ يمكن أن يولد من جديدٍ في عائلةٍ أُخرى.

والعائلة عند الموحّدين الدروز، كما هي الحال عند سائر الطوائف، ليست حاضناً عاطفيّاً فحسب، بل هي في الأساس، قاعدة ارتكاز كلّ فردٍ منها، بها يُعرَف ويُعرَّف طوال حياته. ومهما بلغ مستوى الفرد الاجتماعيّ بفضل التعليم أو المهنة، فإنَّه يُعرَف وفقاً لنَسَبه وعائلته «ابن فلان»، ووفقاً لمنشئه الأصليّ وقريته «بيت فلان». تُذكِّرنا هذه الحقيقة بأنَّ الاختلافات الناجمة عن الولادة والمنشإ، ذات أثرٍ حاسمٍ في الطائفة الدرزيَّة. ففي مقدِّمة العائلات الدرزيَّة ذات الموقع الأوَّل في التراتبيَّة الاجتماعيَّة والتاريخيَّة آل نكد والعماد وتلحوق وعبد الملك وجنبلاط وأرسلان. غير أنَّ عائلاتٍ أُخرى بدأت تظهر خارج السياق الإقطاعيّ، بحيث إنَّ المجتمع الدرزيّ صار يميل إلى الديمقراطيَّة وتجاوز التعلّق بالتراتبيَّة التاريخيَّة والاجتماعيَّة.

يتمتَّع كلّ شخص بموقعٍ مميَّز ودورٍ خاصّ به داخل عائلته، حيث تلعب الزوجة دوراً مركزيّاً. فإلى جانب مسؤوليَّة تنشئة الأطفال هي تشارك زوجها مسؤوليَّة اتِّخاذ كلّ القرارات المهمَّة في البيت والعائلة. وبما أنَّها نشأت وتربَّت على رؤية الرجل يلعب دور المرشد والموجِّه والقائد، فإنَّها مدعوَّة إلى لعب دورها دون

أيّ اعتراض على فكرة هرميَّةٍ بطريركيَّةٍ في العائلة.

أمّا الأولاد فيمثّلون مستقبل الطائفة، وهم يعامَلون على قاعدة المساواة دون تفرقةٍ بين الجنسَين. فيحظى الفتيان والفتيات بالتعليم نفسه، بالرغم من أنَّ الأولويَّة أحياناً للصبيّ، في العائلات المتواضعة. وتعلّق الأبناء بأهلهم واحترامهم والولاء لهم هي من الأمور المعروفة والمحمودة. كما أنَّ الكثير من العائلات تستمدّ الدعم من أولادها الذين يعملون في لبنان أو الخارج. ويلعب الشباب دوراً مهمّاً في ديناميَّة الطائفة على المستويات الاجتماعيَّة والثقافيَّة، بالإضافة إلى دورها على صعيد الأعمال الخيريَّة. من ناحيةٍ أُخرى، يحتلّ الكبار في السنّ مكانةً مميَّزةً في المجتمع الدرزيّ، فيُحاطون بكلّ كرامةٍ واحترامٍ ورعايةٍ في منازلهم، وبين أولادهم وأحفادهم.

الفصل الرابع

الثقافة التقليديَّة ومعنى عيد الأضحى

في نهاية القرن التاسع عشر، أفاد الموحِّدون الدروز من النهضة الثقافيَّة في لبنان إفادةً جمَّة، فبرعوا في عددٍ من الميادين العلميَّة والتجاريَّة والأدبيَّة، منفتحين على العالم الخارجيّ ومشاركين بزخمٍ وحيويَّةٍ في حياة لبنان وهمومه المعاصرة. غير أنَّ غالبيَّة الموحِّدين الدروز ظلَّت متعلِّقةً بتقاليدها وعاداتها، في ظاهرةٍ لافتةٍ ما زالت إلى اليوم، في التجمُّعات القرويَّة الجبليَّة عامَّة، ووسط الحلقات الدينيَّة خاصَّةً. ويبقى «العُقَّال»، أي رجال الدين في المجتمع الدرزيّ، هم الحرَّاس الحقيقيُّون للتراث والتقاليد، وبالتالي للهويَّة الدرزيَّة. وبفضل عقائدهم العرفانيَّة الباطنيَّة ونظام القِيَم الثابتة، حافظ الموحِّدون الدروز على عددٍ كبيرٍ من عاداتهم وتقاليدهم وأنماط عيشهم وسلوكهم التقليديَّة. وتعكس الجماعة الدينيَّة الجبليَّة - وهذا لا يعني أنَّها غير موجودة في المدن - هذا الطابع الثقافيّ أكثر منه الجماعات المدينيَّة، وتعطينا نموذجاً عمَّا كان عليه مجتمع الموحِّدين الدروز وقِيَمه التقليديَّة.

الأركان السبعة

يَعفي المذهب الدرزيّ كما صاغه حمزة، في القرن الحادي عشر، أتباعه من التقيُّد بأركان الإسلام السبعة، لكنَّه يدعوهم في الوقت عينه، إلى فهم معناها الباطنيّ. فهي تحدِّد الإيمان التوحيديّ ومستلزماته الروحيَّة، وأيضاً العلاقات بين أبناء الطائفة. لذا، هي تشكِّل قاعدة المجتمع ولُحمته. ويعلِّم حمزة ابن عليّ أتباعه أنَّ

الدعائم الإسلاميَّة لا تصحّ ولا تكتمل إلاَّ باتِّباع معانيها الحقيقيَّة، وهي:

1. صدق اللسان، أو الصدق في القول والعمل والالتزام الدائم بالحقّ والحقيقة، وهي الصلاة.

2. حفظ الإخوان ومساعدتهم في حضورهم وفي غيابهم: أدب الصحبة، وهي الزَّكاة.

3. ترك عبادة العدم أو البهتان، أي التبرُّؤ من العقائد السابقة للتوحيد، والتي تُبعد السالك عن طريقه، وهي صيانة القلوب من الشِّرك.

4. البراءة من الأبالسة والطغيان، أي عدم مخالطة أتباع الديانات الأُخرى مَّمن يمنعون الموحِّدين من الوصول إلى الحقيقة الإلهيَّة.

5. توحيد الله على أنَّه واحدٌ أحدٌ لا شريك له، وهي الشهادتان.

6. الرضى التامّ بكلّ أمرٍ يأتي من الله: الرضى (الجهاد) والتسليم (الولاية).

7. التسليم الكامل لأوامره تعالى، في السرَّاء والضرَّاء.

التضامن الداخليّ

يحلو للشيخ أبو محمَّد جواد وليّ الدين، أبرز مشايخ الطائفة في لبنان، أن يشبِّه المجتمع الدرزيّ بمجتمع النَّحْل، ويجد الكثير من أوجه الشبه، وأبرزها أشكال التنظيم الاجتماعيّ والتوزيع الطبقيّ، ودور كلّ فردٍ في العمل على أساس التناغم والانسجام في الطائفة، وأخيراً، وعلى وجهٍ خاصّ، الاحترام والتبجيل اللذان يتمتَّع بهما زعيم الطائفة. ويشير الشيخ وليّ الدين أيضاً، إلى أنَّ النحلة لا تسعى إلى أذيَّة أحد، إلاَّ أنَّها تلاحق مهاجمها إذا ما هوجمت، حتَّى ولو أدَّى بها ذلك إلى حتفها. وتؤكِّد مراحل تاريخ الموحِّدين الدروز المختلفة، والتي تميَّزت بمعارك خاضوها ضدَّ القوى الأجنبيَّة من أجل حفظ الأرض والحرِّيَّة والاستقلال، هذه الصفة المتعلِّقة بالردّ المنهجيّ الثابت على كلّ عدوانٍ خارجيّ. وهذه الصفة تتأصَّل بوحي الركن الثاني من أركان الدرزيَّة، والداعي إلى حفظ الإخوان والتضامن والمساندة المتبادلة بين أبناء الطائفة. كما أنَّ هذا الركن يحمل دعوةً واضحةً إلى

التعبئة والاستنفار العامّ للطائفة في وجه أيّ خطرٍ يتهدَّدها. ويمكن القول إنَّنا نجد غريزة الدفاع هذه لدى كلّ الأقلِّيَّات، إذ إنَّ بقاءَ أيّ أقلِّيَّةٍ وصمودها في وجه أيّ عدوانٍ خارجيٍّ، لا يمكن أن يتحقَّق إلاَّ بالتضامن والتلاحم بين أفرادها جميعاً دون استثناء. ويتجلَّى هذان التعاون والتساند المتبادل في كثيرٍ من الأمور، ويشمل مختلف نواحي الحياة الاجتماعيَّة الدرزيَّة وتقاليدها وعاداتها. كما أنَّ العديد من المؤسَّسات التي تديرها الطائفة تقوم على هذا المبدإ وتستجيب لمتطلِّباته بفضل غاياتها الاجتماعيَّة البارزة. ونعني بذلك أوَّلاً، المستشفيات والمدارس ومبرَّات الأيتام[1]. وبالإضافة إلى تلك الخدمات الاجتماعيَّة فإنَّ قِيَم الموحِّدين الدروز وتقاليدهم وعاداتهم تركِّز على عمق الروابط القائمة بينهم، وتتَّجه وجهة التضامن والتلاحم وحفظ الذات والاستمرار وصيانة مستقبل الطائفة.

الاحترام المتبادل بين الأفراد

الموحِّدون الدروز هم من أكثر الأشخاص احتراماً وتقديراً بعضهم لبعض، ولكلّ مَن يشكِّل جسم الطائفة وقلبها. وهم يخصُّون العائلة بمكانةٍ مميَّزةٍ في حياتهم، وكذلك المرأة وكبار السنّ، أي كلّ مَن يجسِّد، في آنٍ معاً، حياتهم واستمرارهم وثقافتهم وهوِّيَّتهم. إن كانت العائلة تمثِّل مستقبل الطائفة، فإنَّ المرأة هي قلب العائلة، وتلعب دوراً أساسيّاً في تنشئة الأطفال وتربيتهم، وفي توجيه شؤون البيت وإدارتها، لذا نراها تحظى باحترام زوجها وأولادها. كما أنَّ احترام كبارِ السنّ يتجسَّد من ناحيةٍ، في الاحترام الواجب من الأبناء تجاه آبائهم، ومن ناحيةٍ أُخرى، في الاحترام الواجب حيال الأعضاء البارزين في الطائفة، وهو أمرٌ واجبٌ على كلّ موحِّدٍ درزيّ. والأعضاء البارزون هم أولئك الذين يتمتَّعون بمهابةٍ معيَّنةٍ نظراً لسنِّهم، وخصوصاً بفضل ألمعيَّتهم الفكريَّة والروحيَّة، بحيث إنَّهم يفرضون احترامهم على أبناء طائفتهم بسلوكهم الشخصيّ وتواضعهم وإيمانهم وتقواهم

1. أُنظر القسم المخصَّص للبُنى الاجتماعيَّة لطائفة الموحِّدين الدروز، في الفصل الأوَّل.

وورعهم. والمعنيُّون بهذه الصفات هم رجال الدين الذين يشكِّلون خير حافظٍ للهويَّة الدرزيَّة. وهم يتميَّزون ليس برتبهم الدينيَّة، بل بحكمتهم ومعرفتهم وعلمهم ومواقفهم وسلوكيَّاتهم.

التمسُّك بالأعمال التراثيَّة وجذور الطائفة

عبر تاريخهم اعتمد الموحِّدون الدروز على وسائل بقاءٍ واستمرارٍ جدّ بسيطة، مفضِّلين مهنهم الحرفيَّة والعمل في الأرض، على التجارة والصناعة. وتشكَّلوا في مجتمعاتٍ جبليَّةٍ زراعيَّةٍ، ومحاربة حين تدعو الحاجة، منصرفين إلى الزراعة، وتربية المواشي والنَّحْل ودود القزّ وأعمال المقالع والكسَّارات لبناء منازلهم بأيديهم، وحياكة الحرير لملابسهم... وهذه كلّها أعمالٌ تقليديَّةٌ لا يزال الموحِّدون الدروز يمارسونها في الجبل، إلى يومنا هذا.

وعلى الرغم من هذا التعلُّق بالأرض والأعمال البسيطة التي تكفيهم مؤونة العيش، فقد شارك الموحِّدون الدروز، وبنشاطٍ كبيرٍ في النهضة الفكريَّة والاجتماعيَّة للبنان المعاصر. وبفضل التعليم والتربية والإعداد الَّتي أمَّنتها المدارس والمؤسَّسات التي أنشأتها البعثات التبشيريَّة الأجنبيَّة في القرن التاسع عشر، استطاعت نخبةٌ أن تحظى بالعلم والثقافة، لتشكِّل طبقةً من سياسيِّين ومفكِّرين وفنَّانين وكُتَّاب[2]. واستفاد الموحِّدون الدروز من جهةٍ أُخرى، من حركة الهجرة والاغتراب، تماماً مثل بقيَّة الطوائف، حيث تراكمت الثروات وتَمَّ استثمارها عبر تأسيس شركاتٍ ومؤسَّساتٍ صناعيَّةٍ وتجاريَّة، في مشاركةٍ كاملةٍ في الحياة الاقتصاديَّة والصناعيَّة والتجاريَّة للبنان[3].

في الوقت الحاضر، ظلَّ الموحِّدون الدروز المقيمون في قراهم يمارسون الأعمال الحرفيَّة والتقليديَّة المرتبطة بالأرض. ودروز الاغتراب الذين أنشأوا أعمالاً

2. أُنظر الفصل السادس، «الموحِّدون الدروز: الانتشار والإشعاع الثقافيّ».
3. أُنظر أيضاً، الفصل السادس.

تجاريَّةً، وأولئك الذين ينتمون إلى النُّخبة المثقَّفة، والذين تبوَّأوا المناصب السياسيَّة والفكريَّة، هؤلاء كلّهم ما برحوا متعلِّقين ومرتبطين، بشدَّةٍ، بجذورهم وأرضهم. ويبقى هاجسهم الأوَّل حين يسافرون بعيداً أو يعيشون في الخارج، بناء أو امتلاك منـزلٍ في القرية، باذلين في سبيل ذلك أموالاً تعكس شدَّة تعلّقهم بجذورهم وهوِّيَّتهم، حتَّى ولو كانوا على يقينٍ بأنَّهم لن يستطيعوا العودة أبداً للسكن فيه. فهم ينطلقون من مبدإٍ أنَّه إذا لم يسكُنوه هم فإنَّه سيؤول لأولادهم أو للأجيال اللاَّحقة. فبعض قرى الجبل التي تنتشر فيها البيوت الفخمة والخالية من السكّان، تشهد على هذا التعلّق الثابت بالأرض والجذور.

مناسبات الطائفة

يرافق حياة كلّ فردٍ درزيٍّ، منذ ولادته وحتَّى وفاته، عددٌ من المناسبات. أمَّا المناسبتان الأكثر أهمِّيَّةً واللتان تنظِّمان حياته فهما الزواج والمأتم، ومعظم العلاقات الاجتماعيَّة تُنسج وتتواصل بين هاتين المناسبتين.

1. الزواج

الزواج الشرعيّ أو القانونيّ هو، بحسب طبيعته وشكله، عقدٌ بين طرفين راضيَين هما الزوج وأهله من جهة، والزوجة وأهلها من جهةٍ أُخرى[4]. ويتمّ هذا العقد أمام شهودٍ في منـزل أهل الزوجة أو أمام محكمةٍ مذهبيَّة. وفي كلتا الحالتَين، فإنَّه من الواجب تسجيل العقد أمام قاضٍ مذهبيٍّ في المحكمة. هذا الطابع التعاقديّ للزواج الدرزيّ يجعله شبيهاً بالزواج المدنيّ، من الناحية القانونيَّة الشرعيَّة. أمَّا مراسم الزواج فتأخذ أشكالاً مختلفةً، وتبرز فيها اختلافاتٌ واضحةٌ تبعاً لمكان حصولها. ففي مدينةٍ كبيرةٍ مثل بيروت أو نيويورك، لا تختلف مراسم الزواج الدرزيّ عن مراسم الزواج عند أيّ طائفةٍ أُخرى: حفل عشاء واستقبال...

---

4. أُنظر الفصل الخامس، «الأحوال الشخصيَّة عند الموحِّدين الدروز».

أمَّا في القرية فإنَّ المراسم تحمل كلّ التقاليد والعادات الخاصَّة بالموحِّدين الدروز في الجبل، وتتمّ وفق نمطٍ واحدٍ متكرِّرٍ على الرغم من وجود بعض الاختلافات البسيطة التي تعود إلى الفروقات في المستوى الاجتماعيّ والاقتصاديّ للعائلات.

بصورةٍ عامَّة، يمكننا إيجاز مراسم الزواج الدرزيّ القرويّ بالمراحل التالية: تبقى العروس في منزل أهلها منعزلةً في غرفتها، في حين يستقبل أهلها المدعوِّين. أمَّا العريس فإنَّه يحتفل مع أهله وأصحابه قبل أن يتوجَّه معهم، في وفدٍ كبيرٍ محمَّلٍ بالهدايا والحلويات، إلى منزل أهل العروس. لدى وصولهم، تقف العائلتان في حلقتين متقابلتين وتتبادلان التحيَّات والتمنِّيات. ثمَّ يقف العريس وسط الحلقتين منتظراً قدوم والد العروس وابنته معه ليقدِّمها له. بعدها يستئذن العروسان الضيوف وينتقلان إلى منزل العريس. وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ والدة العريس لا ترافق ابنها إلى منزل أهل العروس ولا تشارك أبداً في المراسم المذكورة، بل تبقى في منزلها لكي تستقبل المهنِّئين الذين قد يأتون في غياب ابنها، ولتُعِدَّ المنزل وتجهِّزه لاستقبال العروس. ويمكن أن تختلف تقاليد العرس من قريةٍ إلى أُخرى اختلافاً بسيطاً للغاية. فمثلاً، يُقيم وفد العريس، وقبل التوجُّه إلى منزل أهل العروس، حلقات الدبكة والأغاني المخصَّصة لمدح العريس وإظهاره عريس العرسان وزينة الشباب وخير الأنام، ثمَّ تنتقل المدائح إلى العروس نفسها فتجعل منها وحيدة زمانها...

2. المأتم

المأتم هو المناسبة الأعمق تعبيراً عن الرمزيَّة العقائديَّة والدينيَّة لدى الموحِّدين الدروز، وهي تطبع حياة الطائفة بطابعٍ أعمق من أيّ شيءٍ آخر. فهي لا تشمل عائلة الفقيد فحسب، بل العائلة الأكبر، أي القرية كلّها. ويتجلَّى فيها، بصورةٍ واضحةٍ، التضامن الاجتماعيّ بين أبناء الطائفة. فإذا كان من الممكن تبرير الغياب عن مراسم زواجٍ ما، إلاَّ أنَّ حضور كلّ المآتم ليس أمراً مستحبّاً فحسب، بل هو الأفضل تعبيراً عن اهتمام الفرد بشؤون الجماعة، ومشاركته في الأوقات الصعبة.

على المستوى الدينيّ، تشبه مراسم المأتم عند الموحِّدين الدروز إلى حدٍّ بعيدٍ، تلك التي لدى سائر المسلمين، مع تميُّزها بخصائص عدَّة، على المستوى الاجتماعيّ، تجعلها تشبه أكثر مراسم الجنازة المسيحيَّة. هذه التشابهات والاختلافات هي التي تُسهم في رسم الخصوصيَّة الدرزيَّة. فالصلوات التي تُتلى لراحة نفس الميت هي آياتٌ من القرآن الكريم، وتتبع التقليد السُّنِّيّ، وتختلف عنه في ترتيب الآيات واختيارها وكيفيَّة تلاوتها. كما أنَّ مراسم الصلاة أطول من تلك المعتمدة عند السُّنَّة. أمَّا طريقة دفن الميت فهي أشبه بأسلوب المسيحيِّين في الجبل. فبعد أن يُلبس جثمان الميت أجمل ثيابه ويوضع في تابوت، يُدفن في غرفةٍ خاصَّةٍ أو في قبرٍ فوق مستوى الأرض. لكنَّ بعض الموحِّدين الدروز يُصرُّون على اتِّباع طريقة السُّنَّة في دفن أمواتهم[5]، فيدفنون الميت تحت الأرض، بعد غسله وتطهيره وتكفينه في كفنٍ أبيض طويل. وفي الجنازة، يحضر رجال الدين الموحِّدون وينتقلون في وفودٍ كبيرة. وبما أنَّ الأجر على قدر المشقَّة، وفي عقيدتهم أنَّ الأجر الروحيّ والمعنويّ لا علاقة له بالمادِّيَّات، فإنَّهم يتصرَّفون بتواضعٍ وزهدٍ كبيرَين، إلى حدّ الامتناع حتَّى عن شربة ماء خلال مراسم الجنازة. وفي حالٍ فعلوا عكس ذلك فإنَّهم يفقدون كلّ الأجر، لأنَّ حضورهم الجنازة، ومشاركتهم في الصلاة وكلّ المراسم هو تقرُّب إلى الله تعالى. ينبع هذا السلوك من عقيدتهم، كما من تضامنهم الاجتماعيّ، وهم يميلون إلى المشاركة في الجنازات بقدر ما تكون بسيطةً ومتواضعة.

ويتعامل الموحِّدون الدروز مع الموت في معناه الروحيّ والدينيّ، فهو بحسب عقيدتهم، ليس سوى مرحلةٍ انتقاليَّة إلى التقمُّص. وهُم يؤمنون بأنَّ الروح، بعد موت صاحبها، تتجسَّد وتعرف حياةً جديدةً أفضل وأكثر تُقًى وقُرباً من الله، إذا ما كان المتوفَّى، قبل موته، متديِّناً وتقيّاً وعاقلاً سالكاً. ولأنَّهم يعتقدون بهذا الأمر، فإنَّهم لا يخافون الموت. ولمَّا كان فقدان أحد الأحباب أو الأقارب مدعاةً للألم

5. بعض التقاليد لا يتبعها المسلمون عادةً، وهي تعود إلى المفهوم الصوفيّ الذي لا يعطي أهمِّيَّةً للجسد بعد مغادرة الروح له. فالصلاة هي على نفس الفقيد ذاته.

والحزن، فإنَّ رجال الدين يوصون بعدم البكاء عليه خوفاً من أن يكون البكاء اعتراضاً على مشيئة الله وإظهاراً لعدم الإيمان به والثقة فيه. وهناك حادثةٌ تاريخيَّةٌ توضح لنا، في آنٍ معاً، مقدار الثبات الذي قد تبلغه التقوى الدرزيَّة، ورسوخ التسليم المخلص لله تعالى والرضى بالموت كمشيئةٍ إلهيَّة: في القرن الخامس عشر، قُتل عبد الخالق ابن الأمير السيِّد عبدالله التَّنُوخيّ، عن طريق الخطإ، ليلة زفافه. أخفى والده الأمير السيّد الأمر عن الناس، واستمرّ في إتمام واجباته تجاه ضيوفه دون إطلاعهم على ما حدث، وحين استعدَّ الضيوف للمغادرة أبلغهم الأمير بوفاة ابنه في خطاب مُعَبِّر أبلغ تعبيرٍ عن عمق إيمانه.

إذاً، يعبِّر الموحِّدون الدروز عن تضامنهم وتماسكهم الاجتماعيَّين، بحضورهم مناسبات فرحٍ أو حزنٍ. ولتأكيد قوَّة هذا الشعور فإنَّهم يحضرون معظم المناسبات، ويأتون إليها وفوداً كبيرةً بمقدار أهمِّيَّة الشخص أو المناسبة.

التديُّن

تندر الطقوس الدينيَّة الخاصَّة بمذهب التوحيد الدرزيّ، إذ إنَّ العقائد تركِّز بصورةٍ خاصَّة، على القِيَم المعنويَّة والأخلاقيَّة والمسلك الروحيّ الشخصيّ. والفضل في ذلك يعود إلى عقيدة التقمُّص حيث الالتزام المتواصل بالقِيَم الأخلاقيَّة السامية يُحدِّد مستوى الرُّقيّ أو السموّ الروحيّ.

من أبرز الطقوس الدينيَّة الدرزيَّة اجتماع المشايخ مساء كلّ خميس[6]. خلال هذه الجلسات تُقرأ الكتب المقدَّسة أمام الأتباع، ويتقدَّم مستوى القراءات وتأويلاتها مع الوقت في العشيَّات، بحيث يحقّ للعُقَّال وحدهم الاستمرار في الجلسات.

6. في الإسلام، يبدأ اليوم الجديد بغياب الشمس، فيكون مساء الخميس هو بدء يوم الجمعة المبارك. لذلك يبدأ المسلمون هذا اليوم بالصلوات والأدعية وتلاوة القرآن. أمَّا بالنسبة إلى الدروز فقد بدأت الدعوة في الأوَّل من محرَّم 408 هـ.، الموافق يوم الجمعة. كما يقدِّس الدروز ليلة الأحد ونهار الاثنين لأسباب سياسيَّة وعقائديَّة. فقد عُلِّقت الدعوة طوال سنة 409 هـ، لتعود في أوَّل محرَّم 410 هـ.، الموافق لغياب نهار الأحد وبدء يوم الاثنين.

وليس كلّ العُقَّال، بل أولئك المتقدِّمون منهم. وتظهر بقايا من الطرق الصوفيَّة في هذه الجلسات، خصوصاً حين يقوم المشايخ بهزّ الرؤوس على إيقاع الصلوات.

التديُّن الدرزيّ إذاً، هو شأنٌ تعبُّديٌّ شخصيٌّ جدّاً، إذ إنَّ كلّ فردٍ يسير في مسلكه للتعمُّق في تفاصيل العقيدة على طريقته ووفق إيقاعه الخاصّ، وبمقدار انفتاح عقله واتِّساع علمه وعمق تقواه، وبمقدار تعلُّقه بالقيم الأخلاقيَّة واستعداداته الروحانيَّة لعيشها. ويعزِّز الطابعَ الشخصيّ للتدُّين أنَّ مذهب التوحيد الدرزيّ لا يفرض على أتباعه معرفة العقيدة التوحيديَّة، واكتساب تلك المعرفة لا يأتي إلاَّ نتيجةً لسعيٍ وجهادٍ شخصيَّين. فكلّ درزيٍّ حُرٌّ في الذهاب إلى جلسات الصلاة في المجالسِ والخلوات، أو عدمه. وبالمقابل، فإنَّ أتباع المذهب يستطيعون التعمُّق والتقدُّم في معارفهم الروحيَّة إذا اعتبر العُقَّال المتقدِّمون أنَّهم مستعدُّون لذلك ومستحقُّون. وإذا كان على الجُهَّال وأتباع المذهب الاستعداد لتلقِّي المعرفة، فإنَّهم لا يعتمدون الطريقة نفسها. فغاية المذهب أو المسلك التوحيديّ، أي معرفة الله، هي «واحدة ووحيدة»، إلاَّ أنَّ طرق الوصول إليها متعدِّدة. وفي كلّ الأحوال، التقدُّم الروحيّ للموحِّدين لا يتمّ بدون الأخلاق والفضيلة؛ وكلّ ما يضادّ الأخلاق والفضيلة هو حرام.

يقول الله، عزَّ وجلّ، في القرآن الكريم، إنَّه حاضرٌ وقريبٌ يُلبِّي دعوة الداعي ويستجيب لأدعية المؤمنين[7]. من هنا، تتأسَّس الخلوة والعزلة الروحيَّة والتعبُّد لوجه الله على التقوى والثقة بالله والصبر والنور والطريق الإلهيَّة. وهذه كلُّها تدفع المؤمن إلى تسليم روحه وماله وولده وكلّ ما يملك في هذا الكون بفرح وثقة، لمجد الله وتقرُّباً منه تعالى. والله يدلُّه على الطريق ويجذبه إلى ذلك النور الدائم ﴿نور السماوات والأرض﴾[8]. غير أنَّ هذا الخلاص وذلك التوجُّه لا يمكن أن يكونا مُجزيَين إلاَّ إذا أرفقهما المؤمن بالصفات الحميدة والأخلاق الرفيعة التي حدَّدها

7. أُنظر سورة البقرة، 186 ﴿وإذا سألكَ عِبَادي عنِّي فإنِّي قريبٌ أُجيبُ دعوةَ الدَّاعِي إذا دعاني فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلَّهم يَرشُدُون﴾؛ وسورة هود، 61 ﴿وإلى ثَمودَ أَخاهم صالحاً قالَ يا قومي اعبدوا الله ما لكم مِن إلهٍ غيرُهُ هو أنشأَكُم من الأرض واستعمَرَكُم فيها فاستغفِروه ثمَّ توبوا إليه إنَّ ربِّي قريبٌ مُجيبٌ﴾.
8. سورة الذاريات، 18-17؛ وسورة النور، 35.

الشيخ الفاضل، في القرن الثامن عشر: «على المؤمن أن يكون مخلصاً لله في السرّ والعلن، ويسلِّم إليه كلّ أمر، ويثق به في الخير والشرّ، ويتقبَّل عقابه، ويتحمَّل بصبرٍ أوقات المحن والبلاء، ويشكره على نعمه ويعترف بخطاياه وقصوره،... وإذا أحسن الناس إليه فعليه أن يظلّ متواضعاً. وإذا أساءُوا إليه فعليه أن يحتمل إساءتهم ويغفر لهم»[9].

نجد وصف هذه الطريقة في الكتابات الصوفيَّة. وبحسب القرآن، هي اتِّحاد النور بالنور، والحبّ الموجَّه للمحبوب، والعشق المخصَّص لِمَن نسهر الليل بطوله لأجل لُقياه. وأصحاب تلك المسامرات الليليَّة نادراً ما ينامون، بل يَصِلون الليل بالنهار مُستغرقين في الصلاة وطلب الرحمة والمغفرة من الله.

يبدأ المقام الروحيّ بالاستغفار ويتواصل بالتقوى والزُّهد والفقر والصبر، ولا بُدَّ أن ينتهي إلى الثقة المطلقة بالله والتسليم الكامل له. هذه الثقة بالله هي مرحلةٌ روحيَّةٌ مهمَّةٌ جدّاً، وتشكِّل درجةً عاليةً وخَطِرةً إلى حدٍّ ما. وبحسب السيِّد عبدالله التَّنوخيّ، أَكَّد بعض العلماء على ضرورة عشق الله والتحلِّي بالثقة المطلقة به، وعلى أنَّه لا عُذْرَ لمخالفة ذلك، ولا مفرَّ من الموت. نستطيع أن نطلب إلى الله كلَّ ما نرغب فيه، ولكن بالمقابل، علينا ألاَّ نخاف أمام قدرنا المحتوم. وأعلى درجات هذه الروحانيَّة هي إذاً، التسليم والرضى والخلاص. والمؤمنون الذين يبلغون هذه الدرجة يعيشون في تقشُّفٍ وزُهد، وأحياناً في الفقر ببُعدَيه المادِّيّ والمعنويّ. إنَّهم يتحرَّرون من الرغبات والشهوات المادِّيَّة ويحتقرون المجد الخارجيّ والمال وشهوات الحواسّ، ولا يحيون إلاَّ بحسب ما تُمليه الطريق الصحيح، تماماً مثل أولئك الصوفيِّين القدماء الذين وصفهم كمال جنبلاط بهذه العبارات: «ثيابهم بسيطةٌ ونظيفة. إنَّهم غرباء حتَّى حين يكونون بين أقرانهم وجيرانهم وأقربائهم. يسافرون عبر الفكر والروح بحثاً عن الحقيقة المطلقة»[10].

---

9. كتاب عارف أبو شقرا، **ثلاثة علماء من شيوخ بني معروف**.

10. من مقدِّمة كمال جنبلاط لكتاب سامي مكارم، **أضواء على مسلك التوحيد**، بيروت، 1966.

أمَّا عقائد التوحيد الدرزيّ فتحوَّلت عقائدَ سرِّيَّةً وباطنيَّةً بسبب طبيعتها الخاصَّة: لأنَّها لم تكن مفتوحةً للعموم، بل فقط للخاصَّة الذين تهيَّأوا واستعدُّوا تماماً لها. من هنا، فإنَّ كتب الحكمة لا تُطبع أبداً، لكي يُحصر انتشارها ويُحدّ من سوء تفسير رسالتها وتشويهها على يد أتباع غير مهيَّئين بما فيه الكفاية لفهمها. لذلك تنتقل كتب الموحِّدين الدروز الدِّينيَّة بالنسخ اليدويّ فقط. وبعض الأشخاص الذين تخصَّصوا في هذا المجال، يُتمُّون عملاً مُجزياً في خدمة العقيدة التوحيديَّة، ويبذلون فيه الوقت الكثير والجهد الكبير والعناية الثمينة.

رمزيَّة الألوان والعدد خمسة

يتردَّد العدد خمسة كثيراً في الثقافة الدرزيَّة، كما في المسلك الدينيّ. وهو يحمل رمزيَّةً قويَّةً تستمدّ جذورها من العقائد التوحيديَّة التي تقول بأنَّ خمسة مبادىء كونيَّة كبرى تنبع من اللهِّ: العقل الكلِّيّ والنفس الكلِّيَّة والكلمة والسابق والتالي. والدُّعاة الخمسة الكبار لدى الموحِّدين الدروز، هم الأئمَّة الوحيدون الذي قاموا في زمن الدعوة التوحيديَّة، بين عام 1017 و 1043 م.، وقد تعلَّق بكلّ واحدٍ من هؤلاء مبدأٌ كونيٌّ من المبادىء الخمسة الكبرى، بحسب تراتبيَّة ظهورهم. وقد مثَّل الحاكم العناية الإلهيَّة في أبهى صورها وأشرف معانيها، بالإضافة إلى كونه مصدر وجود العقيدة والفضيلة. ويعتبر الموحِّدون الدروز أنَّ اللهَّ موجودٌ ومنـزَّهٌ في آنٍ معاً؛ في حين أنَّ أهل الظاهر يعتبرون اللهَّ منـزَّهاً فقط، وأهل الباطن يعتبرونه موجوداً فقط. وكلّ فكرةٍ تنفي واحدةً من هاتين الحالتين هي بِدْعَةٌ وهَرْطقة. ويقول حمزة بن عليّ في التوحيد: «بالتوحيد عرفتُ جميع الأشياء، ألا بالأشياء يُعرف التوحيد»؛ «وأوَّل الديانة باللهَّ معرفته، وكمال معرفته نظام توحيده، ونظام توحيده نفيُ صفات المخلوقين عنه». ولهذا السبب سُمِّي أتباع حمزة بالموحِّدين، وهو الاسم الأحبّ إلى قلوبهم، فهم أهل التوحيد، ودينهم هو دين التوحيد، ودعوتهم هي دعوة التوحيد، وذروة التوحيد التنـزيه، فالخالق يسمو على الوصف والإدراك، ولا يدخل تحت الأسماء والصفات.

وإلى الدُّعاة والأئمَّة الخمسة أُضيفت الألوان الخمسة التي تشكِّل العَلَم الدرزيّ الحاليّ. وهذه الرمزيَّة هي ثمرة المعتقدات الشعبيَّة، ولا تستند في الحقيقة إلى أيّ نصٍّ دينيّ.

فالمتوالية الدرزيَّة في العدد خمسة تصبح كما يلي:

- العقل الكلِّيّ = حمزة = اللون الأخضر
- النفس الكليَّة = التميميّ = اللون الأحمر
- الكلمة = القريشيّ = اللون الأصفر
- السابق = السابق = اللون الأزرق
- التالي = المقتنى = اللون الأبيض

الفصاحة واللياقة

يُعرف عن الموحِّدين الدروز أنَّهم «شديدو اللياقة ويستخدمون كلماتٍ محدَّدةً للتعبير عن مشاعرهم أو نقل أفكارهم»[11]. وهم يقدِّرون كثيراً اللياقة والفصاحة ويعتبرونهما فنّاً مميَّزاً، على الرغم من غياب أيّ نصٍّ دينيٍّ يوصي بهما أو حتَّى يتكلَّم عنهما؛ كما أنَّهما ليسا من العادات الشعبيَّة. ويبدي الموحِّدون الدروز الحرص الشديد على مخاطبة الناس بطريقةٍ لبقةٍ ورقيقة، خشية صدم النفوس أو استثارة الحساسيَّات. وقد فسَّر كمال جنبلاط هذا الأمر بطريقةٍ بسيطةٍ ورقيقة: «إذ إنَّه من الضروريّ هنا أن نقول بأنَّ الحذر هو أيضاً من طبع الموحِّدين الدروز. وهذا أيضاً ما يميِّز درزيّاً عن شخصٍ آخَر: الدرزيّ لا يُلقي الكلام على عواهنه. فهو دائماً حذرٌ متيقِّظ، يراقب المحيط لتقدير ما يمكن أن يُقال، وما ينبغي أن يُقال، وما يُقال أو لا يُقال»[12].

---

11. كمال جنبلاط، **من أجل لبنان**، باريس، 1978، (بالفرنسيَّة)، ص 84.
12. المرجع السابق، ص 91.

عيد الأضحى

لا يحتفل الموحِّدون الدروز سوى بعيدٍ واحدٍ هو يوم الأضحى - يحتفل رجال الدين الكبار أيضاً برأس السنة الهجريَّة وعيد الفطر -. يُحيي الموحِّدون هذه المناسبة بالصلاة والصوم والصدقة طوال النهار، وبالدراسة في الليل. وهم يستقبلون العيد بمعرفةٍ كاملةٍ لمعناه ومضامينه وغاياته. فهذا الحدث لا يقتصر، في نظرهم، على لبس الثياب الجديدة وعقد الولائم الكبيرة فحسب، بل هو في الأساس، وقفة حقيقةٍ وصدقٍ أمام الواحد الأحد الأعلى، يعترف العبد خلالها بطاعته ويطلب الرحمة والمغفرة من خالقه.

تعني كلمة «الأضحى» في اللُّغة العربيَّة التضحية، أي تلك النعجة المقدَّمة كأُضحيَّة. ويقع يوم الأضحى في العاشر من شهر ذي الحجَّة، وهم يسمُّونه عيد الأضحى، وعيد الأضاحي، أو العيد الكبير. في هذه المناسبة، يقوم الحجَّاج في مكَّة بتقديم أضاحيهم في وادي مِنى، فجر اليوم العاشر من ذي الحجَّة، وإلى مغيب آخر أيَّام التشريق، أي من اليوم الحادي عشر إلى الثالث عشر من ذي الحجَّة. وقد سُمِّيت بأيَّام التشريق لأنَّه يتمّ خلالها تقديم الأضاحي عند طلوع الفجر، ولأنَّ لحومها تُقطَّع قطعاً وتوضع في الشمس.

عيد الأضحى هو استذكارٌ لقصَّة أبينا إبراهيم الخليل الذي امتحنه ربُّه حين جاءَه في الحلم، وأراه نفسه وكأنَّه يذبح ابنه لتقديمه أُضحيَّةً لله. وقد مثَّلت الأحلام للأنبياء الإشارةَ والدليلَ على وحيٍ من الله أو أمر مباشر منه، لذا استجاب إبراهيم ومعه ابنه طائعاً مختاراً لأمر الله. وفيما هما يستعدَّان لتقديم هذا الذبح العظيم افتداه ربُّه بذبيحةٍ أُخرى، كبش، حلَّ محلَّ ابنه. وتنقل الآيات القرآنيَّة في سورة الصافات، هذه القصَّة بالتفصيل، وتحكي عن إبراهيم أنَّه أراد التضحية بابنه، وقد قيل إنَّه إسماعيل الذي منه ينحدر الرسول العربيّ[13]. والأضحى هي تذكيرٌ

13. لا يَرِد في القرآن اسم إسماعيل ولا اسم إسحق، بل كما في التوراة، قول الله «ابنك البِكْر». أمَّا اسم إسماعيل فقد ورد لاحقاً في الروايات الإسلاميَّة المتأخِّرة.

للمؤمنين ليحفظوا في ذاكرتهم نعمة التقرُّب إلى اللهَّ، والتضحية في سبيله، ونيلهم رحمةً ومغفرةً منه. وعلى المؤمنين استخلاصِ العِبرة من هذه الحادثة أو القصَّة، وهي أن يقوموا بالأعمال الصالحة للتقرُّب من الله: الأُضحيَّة المقدَّمة والموزَّع لحمها على الفقراء، والصدقة وأعمال البِرّ تجاه الفقراء والمساكين وعابري السبيل، وشكر الله دائماً على نعمه وكلّ ما يوفِّره من إنعامٍ وحيوانٍ ووسائل لحفظ الإنسان وحياته.

معنى عيد الأضحى

يكتسب عيد الأضحى عند الموحِّدين الدروز، الأهمِّيَّة والقيمة اللتين يتمتَّع بهما حجّ المسلمين إلى مكَّة المكرَّمة. فالمسلمون يعملون على استكمال دينهم بالالتزام بأركانه السبعة[14] ما إن يبلغون سنّ الحِلْم والعقل والحرِّيَّة والإدراك والقدرة، وهي الشروط الواجبة للعمل في طريق الله. ويفقد المؤمن كلّ امتيازات شعيرة الحجّ إن هو لم يمارس بقيَّة أركان الدين. لذا، هو يمارس مستلزمات الإحرام الثلاث. والإحرام هو حالة تفرُّغ تامٍّ لفريضة الحجّ تقوم على الامتناع عن بعض المباحات. فعلى المُحْرِم أن يُخلِّص النيَّة أوَّلاً، ويرفعها لله عزَّ وجلّ، خالصةً نقيَّةً صافية، بغية الاتِّحاد به. وعليه ثانياً، إطاعة أوامر الله بصدقٍ والامتناع عن كلّ مُحَرَّم، وذلك حين يرمي من النافذة حجارةً ترمز إلى إرادته. وأخيراً، يخلع المُحْرِم لباس الجهل والمعصية، ويلبس لباس التواضع والخشوع والطاعة لكي يكون سعيه وركضه للعبوديَّة أمام خالقه، عشيَّة العيد، خالصاً مجرَّداً من كلّ أنانيَّة. إنَّه يُسكت أناه العميقة ورغباته الصاخبة، طالباً المعروف والمغفرة والرحمة والمسامحة، وباحثاً بكلّ ما عنده من نقاء السريرة وصلابة الإيمان وثباته، عن تجديد العقد والعهد مع اللهَّ عزَّ وجلّ، من خلال صعود درجات إيمانه دون نكوصٍ أو شكٍّ أو تردُّد. وعليه أيضاً، أن يستوحي

---

14. يقال عادةً إنَّ الأركان في الإسلام، خمسة، وفي كتب الفِقه تفصيلٌ إلى سبعة. وهي: الشهادة، الصلاة، الصوم، الزَّكاة، الحجّ، الجهاد، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر.

من نعمة الرحمة والمغفرة والعفو لكي يقدِّم إلى خالقه كلّ ما يملك، روحه وجسده وممتلكاته المادِّيَّة وأولاده، فذلك وحده يؤكِّد على كِبَر أخلاقه ومعنى سعادته، ويضمن له النجاة في الدنيا والآخرة.

أمَّا المعنى الرمزيّ للإحرام فيتجسَّد بممارسة أعمالٍ محدَّدة: يلبس الحاجّ في مكَّة، لباساً أبيض فقط، هذا هو الإحرام؛ وذلك لكي تُمحى الاختلافات ويتساوى الجميع أمام الله، وهذا هو معنى خلع لباس الجهل والمعصية ولبس لباس التواضع والطاعة؛ ويرمي الحُجَّاج الحجارة على الشيطان في إشارةٍ إلى التخلّص من الآثام والمعاصي والأشياء المادِّيَّة، وهذا ما يعنيه رمي أحجار إرادته من النافذة.

وخلال الحجّ إلى مكَّة، وكما في عيد الأضحى، فإنَّ الموحِّدين، المسلمين والدروز، يتطلَّعون إلى الله ويتوجَّهون إلى طاعته، مخلصين النيَّة ومعاهدين ربَّهم ومؤكِّدين إرادتهم أن يواصلوا السعي والمجاهدة في طريق الوصول إلى الخالق. يكمن سرّ هذا السعي التوحيديّ وسرّ عدم القدرة على الحدّ منه أو إضعافه أو التشكيك فيه، في أنَّ الإنسان يرى فيه صعود النفس الأبديَّة الكادحة في مسعاها نحو الله، دون الجسد الفاني الذي هو أصلاً لا يستحقّ الذكر أو الحفظ. هذا اليقين يُنير طريق المؤمنين المظلمة والموحشة التي يسلكونها بحثاً عن معرفة حقيقة الله واللقاء به، وهو يشكِّل العروة الوثقى في سلسلة النور، أي طريق المعراج الروحيّ نحو الله، وأيضاً مختلف الدوائر التي يبشِّر بها نبيٌّ ما، ويوم القيامة، أي الوصول إلى الله، كنهايةٍ لآخر دائرةٍ أو دَورٍ في تاريخ البشريَّة.

إذاً، عيد الأضحى، في معناه التوحيديّ، يقابل الحجّ إلى مكَّة لدى عامَّة المسلمين. وبالمقابل، فقد احتفظ الإسلام بذكرى الأضحى وأكَّدها كواجبٍ سنويٍّ أو فرضٍ دينيّ. ومعنى الأضحى، مثله مثل كلّ الفهم التوحيديّ الذي تطوَّر عبر العصور حتَّى مجيء الإسلام، ثمَّ صياغة عقيدة التوحيد الدرزيّ، تطوَّر هو أيضاً وانتقل من كونه طقساً دينيّاً واجتماعيّاً عاديّاً إلى حقيقةٍ مجرَّدة. ففي الواقع، يؤكِّد التوحيد الدرزيّ على المعنى العميق للواجب أو الفرض الذي على الموحِّدين تتميمه في حياتهم ومسعاهم البشريّ، والذي غايته معرفة الله. والموحِّدون الملتزمون أبديّاً في

مسلك التوحيد بموجب العهد أو الميثاق، هم أحرارٌ من كلّ شكٍّ ومحرَّرون من الشِّرْك والظلم.

العشور

العشور هي الأيَّام العشرة التي تسبق عيد الأضحى، أي الأيَّام العشرة الأُولى من شهر ذي الحجَّة. يُحيِيها الموحِّدون الدروز بالجلسات والاجتماعات المسائيَّة الدينيَّة المخصَّصة للاستعداد للعيد الكبير، في تركيز على التوبة، حيث تُتلى الصلوات والأدعية والمواعظ والقصائد والآيات الدينيَّة، وتوزَّع الصدقات والزكوات الشرعيَّة. ويمتنع العديد من الموحِّدين الدروز عن الطعام والشراب والشهوات والرغبات، احتراماً وتقديساً لهذه الأيَّام المباركة. كما أنَّ أبناء الطائفة يستذكرون في هذه المناسبة، يوم القيامة والحساب الأخير، إذ إنَّه يتوافق بحسب العقيدة الدرزيَّة، مع يوم الأضحى. ويقضي رجال الدين عشيَّة العيد بكاملها، حتَّى الصباح، في التأمُّل والصلاة. أمَّا المفاهيم التوحيديَّة الأهمّ، والتي تميِّز هذا العيد، هي من ناحيةٍ أولى الطاعة والتسليم المخلص لله، ومن ناحيةٍ ثانية، التوبة والمغفرة والتضحية، أي التخلِّي عن الأفكار السيِّئة والرغبات والشهوات الدنيويَّة والمال والمادَّة، من أجل التقرُّب من الله تعالى وحيازة رضاه.

بالنسبة إلى الموحِّدين الدروز، ترمز العشور والأضحى إلى السعي الروحيّ لحيواتٍ عدَّة، ويتمّ أمام الإنسان في أيَّام معدوداتٍ هي الأيَّام العشرة التي تسبق يوم العيد، مع كلّ المجاهدات التي تمثِّل السعي المخلص نحو هدفٍ أو غايةٍ ثابتة. كما يمثِّلان المرحلة التمهيديَّة والإعداديَّة للسعادة المطلقة في لقاء الخالق. ويرمز عيد الأضحى في ذاته، إلى يوم القيامة، ويمثِّل الهدف الأخير: الوصول إلى الله. هذه السعادة تشكل العيد الحقيقيّ، ولا يمكن بلوغها إلاَّ بالعمل والمعرفة والمجاهدات المتواصلة. ويؤكِّد رجال الدين على هذه النقاط، معتبرين العيد مناسبةً سنويَّةً لتجديد التوبة وإدراك وجود الله في انتظار يوم القيامة. وحين يصل موعد العيد فإنَّه يحمل معه الفرح والبهجة والبشرى الطيِّبة، معلناً بصوتٍ عالٍ قيامةً لا شكَّ فيها،

يجد فيها المؤمن الراحة والسعادة الحقيقيَّة، ويجني أفضل الخيرات وأغناها، في حين يندم فيها العاصي، غير المؤمن، ذارفاً الدمع أسفاً على كلّ شرٍّ ومعصيةٍ ارتكبها. ويتبادل الموحّدون المعايدة في العيد بالقول: «أللَّهم إجعلنا من المعيِّدين المقبولين».

تعليقٌ للأمير السيِّد جمال الدين عبدالله التَّنُوخيّ

نُنهي هذا الفصل بتعليقٍ للأمير السيِّد جمال الدين عبدالله التَّنُوخيّ الذي قام بجهدٍ لتفسير كتب الحكمة وتقديمها إلى معاصريه من الموحِّدين، محاولاً في الوقت نفسه، تعريف معنى العشور وعيد الأضحى:

«هذا هو العيد، وهذه عشوره، مواسم للطاعة والخير والبركة.

«فاللسان هو أبو الكبائر، والكاسر الذي لا ينفع مَن كسره شدُّ الجبائر، فيجب على العبد أن يحفظه من الكذب بالكلِّيَّة، وما تحلَّى اللسان ولا الإنسان بمثل الصدق... ويجب أن يحفظه من المواعيد الكاذبة، فإنَّ الإنسان مرتهنٌ بوعودها، وإخلاف الوعد ضربٌ من الكذب...

«والعين إنَّما خُلقت للعبد ليستعملها في النظر بالاعتبار في حكمة الله، وقدرته، ومصنوعاته، ويهتدي بها في الظلمات، ويستعين بها في الحاجات، وينظر بها إلى عجائب ملكوت الأرض والسماوات، ويعتبر بما فيها من الآيات، ليكون اعتبارها بذلك سبباً للوصول إلى خالقها...

«والأُذُن يستعملها في سماع حكمة الباري والإصغاء إليها والإنصات المحض لوعي الحقّ والصدق، لأنَّ الأُذُن هي القمع الذي يتشرَّب المسموعات إلى القلب، فاحذر أن تملأه بشيءٍ يُكَدِّر عليك قلبك، فإنَّ له آفاتٍ كآفات العين بل أكثر... وكُنْ ﴿مِنَ الذينَ يَستمِعُونَ القولَ فَيَتبِعُونَ أَحْسَنَهُ...﴾[15]، واحفظها من أن تُصغي بها إلى البِدْعة أو الغيبة أو الفحشِ، أو الخوض في الباطل أو ذكر مساوئ الناس، فإنَّها خُلقتَ لك لتسمع بها كلامَ الله سبحانه، وحكمةَ رسوله وأوليائه...

---

15. سورة الزُّمَر، 18.

«واليد فاحفظها عن أن تتناول بها مالاً حراماً، أو تؤذي بها أحداً من الخلق، أو تخون بها أمانةً أو وديعة، أو تكتب بها ما لا يجوز النطق به، فإنَّ القلم أحد اللسانَين، فاحفظ القلم عمَّا يجب حفظ اللسان عنه... فلا تمدَّها إلى مُحَرَّم، ولا تبسطها كلَّ البسط إلى محلَّل، ولا تجعلها مغلولةً إلى عنقك عن العطايا، ولا تقبضها عن بسطة المكارم، ولا تمدَّها بالمسألة إلى غير اللهّ، واستعملها في مساعدة إخوانك في ضروراتهم...

«والرِّجْل فيُجْتَنَب السعي بها في غير مرضاة اللهَّ عزَّ وجلّ، وتبديل نعمة اللهَّ منها كُفراً، بكثرة الركوب ترفُّعاً عن المشي، فأقلّ ما في ذلك أنَّ قواك تضعف، وربَّما صرت إلى الزَّمانة، وعليك بها في عيادة المرضى وشهادة الجنائز، وفي حاجة أخيك إذا أمكنك السعي بها، وبالجملة، فلتكن مساعيك بها لك لا عليك... فاحفظها عن أن تمشي بها إلى حرام، أو تمشي بها إلى باب سلطان، فالمشي إلى السلاطين من غير ضرورةٍ معصية، فإنَّه تواضعٌ وإكرامٌ لهم، وقد أمر اللهَّ تعالى بالإعراض عنهم؛ وهو تكثيرٌ لسوادهم وإعانةٌ لهم على ظلمهم، وإن كان ذلك لسبب طلبة ما لهم فهو سعي إلى حرام...

«والبطن فاحفظه عن تناول الحرام والشبهة، واحرص على طلب الحلال، فإذا وجدته فاحرص على أن تقتصر على ما دون الشبع، وطلب الحلال فريضةٌ على كلّ مُسلم، والعبادة والعِلم مع أكل الحرام كالبناء على السَّرْقين...

ومن الحرام أيضاً ما يؤكل من الأوقاف من غير شرط الواقف...»[16].

«أمَّا القلب الذي هو البحر والجوارح منه تستقي، فالطاعة الواجبة عليه هي التبرُّؤ من كلّ عقيدةٍ فاسدةٍ ونيَّةٍ خبيثةٍ وفكرٍ مكدِّر. ثمَّ التنوُّر بنور التوحيد والإيمان، ولا شكَّ أنَّ ثمرة مثل هذه الطاعة الجامعة هي حتماً الخير، هي السعادة، هي البركة.

---

16. عجاج نويهض، التنُّوخيّ الأمير جمال الدين عبداللهّ، بيروت، دار الصحافة، 1963، ص ص. 151-157.

«فهلمَّ بنا جميعاً، نَلِجُ أبواب التوبة المفتوحة، هلمَّ نحاسب ذواتنا، ونجعل من تلك الأيَّام المباركة خميرةً صالحةً لسائر أيَّام عمرنا، ولنحاول جعلها أيَّاماً مميَّزةً عن سائر أيَّامنا، فنعفَّ عَمَّن أساء إلينا، ونُدخل السرور إلى قلب مصاب أو محتاج من خلال زيارةٍ أو هديَّةٍ أو صَدَقة، ولا ننام حتَّى نتصفَّح أعمالنا فنتوب عن فكر السوء وعمل الشرِّ...

«إنَّنا متى تدرَّجنا في الترقِّي بمعارفنا، ومتى التزمنا الصدق نهجاً ومسلكاً، سنتيقَّن دون أيِّ شكّ، أنَّ حقيقية العيد هي فعل كلّ ما يُرضي ضمائرنا الحيَّة، وبالتالي يُرضي خالقنا. فليست هي أبداً فرحاً مؤقَّتاً موسميّاً، ولا لذَّةً عابرةً بحطام دنيا زائلة، وهوى نفسٍ عن الحقّ مائلة»[17].

---

17. من دراسة مؤسَّسة العرفان التوحيديَّة، «كيف نحيا العيد وعشوره»، غير منشورة.

الفصل الخامس

الأحوال الشخصيَّة

تتمتَّع كلّ طائفةٍ دينيَّةٍ في لبنان باستقلاليَّةٍ وقانونٍ خاصٍّ للأحوال الشخصيَّة. أمَّا قانون الموحِّدين الدروز فقد صدر بتاريخ 24 شباط 1948، وهو يحدِّد خصوصيَّة أبناء الطائفة في موضوع الأحوال الشخصيَّة، الذي يختلف عن أوضاع أعضاء الطوائف الأخرى، ومن بينها طبعاً الطوائف الإسلاميَّة.

يضمّ قانون الأحوال الشخصيَّة الدرزيّ التشريعات المتعلِّقة بالوصيَّة والإرث، وغيرها. ويستند منذ بداية التاريخ الدرزيّ، إلى النصوص القرآنيَّة والمعاني الواضحة وغير المتشابهة لآياته. غير أنَّ التشريعات القرآنيَّة هذه تجدَّدت في أسلوب فهمها كما تطوَّرت في أسلوب تطبيقها، وفق ضرورات المكان والزمان. يتغذّى قانون الأحوال الشخصيَّة الدرزيّ، في مختلف مجالات تطبيقه، من دراساتٍ واجتهاداتٍ تستند، مع بعض الاختلافات البسيطة، إلى المذاهب الإسلاميَّة الفُقهيَّة الأُخرى، وتحديداً الحنفيّ والشافعيّ والمالكيّ والحنبليّ والجعفريّ. وهذه المذاهب معتَمَدة في لبنان وسائر الدول العربيَّة. دخلت هذه الدراسات والاجتهادات في حياة الموحِّدين الدروز اليوميَّة والعائليَّة، كما في عاداتهم الاجتماعيَّة، واستحالت جزءاً لا يتجزَّأ منها[1]. تسهر المحاكم المذهبيَّة الدرزيَّة اليوم، على تطبيق قانون 1948، بحيث تؤكِّد على أنَّ كلّ ما يتعلَّق بالأحوال الشخصيَّة عند الموحِّدين الدروز هو من اختصاصها

---

1. راجع كتاب الشيخ حليم تقي الدين، **الأحوال الشخصيَّة عند الدروز**، بيروت، 1981.

وصلاحيَّتها. وكلّ ما هو خارج هذا المجال وحقول تطبيقه، يعود أمره إلى المحاكم المدنيَّة والجزائيَّة للدولة اللبنانيَّة؛ حالها حال الطوائف اللبنانيَّة كافَّةً.

بالإضافة إلى دراسة بعض أوجه قانون الأحوال الشخصيَّة الدرزيّ سنتناول في هذه العجالة، التنظيم القضائيّ لطائفة الموحِّدين الدُّروز في لبنان.

الأحوال الشخصيَّة للموحِّدين الدروز

تحتلّ مسألة الأُبوَّة والأُمومة أهمِّيَّةً خاصَّةً ومميَّزةً بالنسبة إلى الأُسس الشرعيَّة والأبعاد الاجتماعيَّة التي ترتكز عليها. فالقرآن يذكر الأب والأبوين في 18 آية، والأُمّ والأُمَّهات في 28 آية، والأب والآباء في 112 آية. وتتجلَّى في هذه الآيات القواعد التشريعيَّة الأساسيَّة التي تحدِّد نظام الأُمومة، وبالتالي أشكال الحياة الزوجيَّة بحقوقها وواجباتها. ويتفرَّع من هذا النظام تنظيم النواة الأُسريَّة وفق النَّسَب الصاعد أي الأجداد، والهابط أي الأولاد.

وقد حرص الموحِّدون الدروز، بالاستناد إلى الدين والعقيدة، على تجديد الإطار التشريعيّ لقانون الأحوال الشخصيَّة لديهم، وتحديد الحقوق والواجبات ضمن الأُسرة في الزواج ومظاهره، والطلاق ومبرِّراته. وشدَّدت في الوقت عينه، على حفظ المبادىء المستمدَّة من التشريعات والأعراف الدرزيَّة المستمرَّة عبر الأجيال، حتَّى دخلت في صلب حياة الموحِّدين الدروز وكيانهم الفرديّ والاجتماعيّ. وبسبب نقص النصوص القانونيَّة، كانت عودة إلى المذهب الحنفيّ في التشريع الإسلاميّ. من هنا، لجأ الموحِّدون الدروز في تشريعهم وفُقههم الخاصّ، وفي إطار قوانين الأحوال الشخصيَّة، إلى تفسير بعض الآيات القرآنيَّة وتأويلها. وعلى سبيل المثال، يبتعد الموحِّدون الدروز عن إباحة تعدُّد الزوجات؛ والتقليد الذي اتَّبعوه منذ مطلع القرن الحادي عشر، قد ترسَّخ في النصوص القانونيَّة الوضعيَّة الخاصَّة بتشريعهم المذهبيّ: «تعدُّد الزوجات ممنوعٌ ولا يحقّ للزوج أن يتزوَّج بامرأتين، وفي حال حصول ذلك فإنَّ الزواج الثاني في حُكم الباطل». ومَنْعُ تعدُّد الزوجات جاء استناداً إلى قناعة الموحِّدين الدروز بأنَّ من واجب الأزواج أن يعيشوا حياةً

تكون فيها كرامة الإنسان وثقته في الوقت الراهن كما في المستقبل، حرَّةً من أيّ قيودٍ أو عوائق. كما أنّهم يعتبرون أنَّ تعدُّد الزوجات يقطع أواصر المحبَّة والوفاق بين الأولاد، ويُحلّ محلّها عوامل الحسد والبغضاء، في الوقت الذي يُعتبر فيه الأولاد ثمرةَ الزواج وكماله، بالإضافة إلى كونهم نواة الأسرة والمجتمع.

العادات والأعراف، كما التشريعات الدرزيَّة، قد تأكّدت وثبتت في نصوص واضحةٍ ورسميَّةٍ في قانون الأحوال الشخصيَّة الصادر في 24 شباط 1948. وهنا عرضٌ لفهرس هذا القانون ومحتواه، نورده على سبيل الإيضاح:

- في أحكام الزواج: الموادّ 20-22
- في المهر المعجَّل والمؤجَّل: الموادّ 24-27
- في النفقة: الموادّ 28-36
- في المفارقات (التفريق أو فسخ العلاقة الزوجيَّة بالتراضي): الموادّ 37-49
- في العِدَّة: الموادّ 50-53
- في الحضانة: الموادّ 54-66
- في النفقة الواجبة للأبناء على الآباء: الموادّ 67-74
- في النفقة الواجبة للأبوين على الأبناء، وفي نفقة ذوي الأرحام: الموادّ 75-80
- في الحَجْر ومفاعيله: الموادّ 119-125
- في المفقود والقيِّم عنه: الموادّ 126-136
- في النَّسَب: الموادّ 137-144
- في الوصيَّة والإرث: الموادّ 145-169
- في الأوقاف: المادَّتان 170-171

وفي الخلاصة، تتبدَّى الرغبةُ في تمتين أواصر العلاقات الأُسريَّة المبدأَ الأساس لمحتوى القانون. ويؤكّد تشريعاتٍ عدَّة متعلِّقة بالنفقة أو مدَّة العدَّة بعد الطلاق، على أنَّ المجتمع الدرزيّ يبحث عن حماية الأُسرة. أمَّا ما يلي فسيأتي معالجةً لروح قانون الأحوال الشخصيَّة الدرزيّ وتوجُّهاته، انطلاقاً من الزواج والطلاق من

جهة، والوصيَّة والميراث من جهةٍ أُخرى، في عودةٍ إلى العقيدة والقانون الوضعيّ على حدٍّ سواء.

التشريع المتعلِّق بالزواج والطلاق، بحسب العقيدة

وجَّه الأمير السيِّد عبدالله التَّنُوخيّ رسالةً ثقافيَّةً إلى معاصريه من أبناء المذهب، يحثُّهم فيها على تتميم «الشرط الملزِم من الإمام»، فيُمسي الموحِّد مسؤولاً عن الموحِّدة، ويعتبرها بالتالي مساويةً له، ويتقاسم معها كلّ ما يملك[2].

لاحظ الأمير السيِّد، وقد عاش بين أبناء طائفته وعرف أوضاعهم الاجتماعيَّة، أنَّ الكثيرين منهم ينبذون نصّ الإمام، متحاشين تطبيقه، ومتجاهلين حقوق الزوجة، معاملين إيَّاها بغير واجب المساواة الذي أمرهم به الإمام. وبما أنَّه لم يتوفَّر نصٌّ مكتوبٌ يتناول مسألة العلاقات بين الزوج والزوجة، وحقوق وواجبات كلٍّ منهما، عكف الأمير التَّنُوخيّ على صياغة تشريع يلتزم العدل والمساواة. فأتى التشريع على أساسٍ دينيّ، واجباً مفروضاً من اللهِ، وركناً من أركان اليقين، عنينا به الرضى المتبادل والاختيار الحرّ لدى الزوجين. واستحال هذا الشرط أساسيّاً من أجل التوافق والانسجام والحبّ والمودَّة والتسامح والعفو بين الزوجين. واستند في ذلك إلى أمرٍ إلهيٍّ ينقله القرآن الكريم: ﴿ومِن آياتِه أن خَلَقَ لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجَعَلَ بينكم مودَّةً ورحمةً إنَّ في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكّرون﴾[3].

الزواج

وضع اللهَّ تعالى بواسطة رسله وأنبيائه، قواعد الزواج بغية أن تُمسي هذه المؤسَّسة، أي العائلة، الوسيلةَ الأساسيَّة لصِلة الرجل بالمرأة. فالزواج يجسِّد

2. ورد ذلك في مخطوطة شرح الأمير السيِّد. أُنظر النبذة عن سيرته الذاتيَّة، في الفصل السادس.
3. سورة الروم، 21.

التزامهما باحترام واجباتهما تجاه بعضهما بعضاً، ويحمل في ذاته التشريعات التي تحدِّد العلاقة بين الزوجين. ودون هذه التشريعات، يفتقد كلٌّ من الزوجين شبكة أمانٍ تقيه ظلمَ الشريك وتعدِّياته، ولا يعود الزواج وسيلةً للتعاون والمشاركة في حملِ أعباء الحياة الزوجيَّة والاجتماعيَّة. أُعجِب الأمير التَّنُوخيّ بالزواج وشجَّع عليه للحفاظ على النسل الذي هو أساس الأسرة والحياة المجتمعيَّة. ولم يكن ليدعو إلى التبتُّل والعفاف، بل على العكس، كان يحثّ مَن يرفضِ الزواج، خوفاً من الوقوع في شبهة الخضوع للشهوات، على الإقبال عليه، دافعاً باتّجاه الاقتران بامرأةٍ واحدة. وقد شاعت عادة الزواج الأُحاديّ قبل زمانه، عملاً بتعاليم القرآن التي لا ترى إمكانيَّة العدل بين الزوجات. كما أنَّ كتب التاريخ تؤكِّد على شيوع هذه العادة أو هذا التقليد لدى الموحِّدين الدروز. فعلى سبيل المثال، يذكر تاريخ صالح بن يحيى لمدينة بيروت، أنَّ الأمراء التَّنُوخيِّين لم يكونوا ليتزوَّجوا بأكثر من امرأةٍ واحدة.

أَلزمت التشريعات التي أصدرها الأمير التَّنُوخيّ العروسَين بتوفير عددٍ من الشروط حتَّى يصبح زواجهما ممكناً ومقبولاً، ومنها أن يكون الزوج:

- بالغاً، أي في الخامسة عشرة من عمره، مع تفضيل بلوغه العشرين.
- وقادراً على تأمين مستلزمات العيش الكريم لأسرته، وفي حال كان فقيراً فأن يصبر إلى أن يرزقه الله.
- ومتعلِّماً، ومن أصلٍ حميدٍ حتَّى يستحقّ زوجته المقبلة.
- أكبر سنّاً من الفتاة، ولو بقليل.
- وبكامل صحَّته الجسديَّة والعقليَّة، وخالياً من أيّ مرضٍ مانعٍ للزواج.

وبالإضافة إلى خضوعها لشروطٍ مماثلة، على الفتاة أن تلتزم بواجباتٍ أخرى:

- ألاَّ تتزوج إلاَّ بعد سنتين من بلوغها، لكي يكون عقلها وإدراكها كاملين، فتستطيع تربية أطفالها وإدارة شؤون بيتها.
- أن تتمتَّع بصحَّةٍ عقليَّةٍ وجسديَّةٍ جيِّدةٍ وخاليةٍ من أيّ أمراضٍ مانعةٍ للزواج.

إحتفال الزفاف والعلاقات بين الزوجَين

ينعقد الزواج وتجري احتفالاته بحضور الأهل، بعد التأكُّد من تأمين الشروط السالفة الذكر، وخصوصاً بلوغ الزوجَين السنّ المحدَّدة. ولا يتمّ الزواج إلاّ بعد موافقة العروسَين الصريحة وغير المقيَّدة وغير الخاضعة لأيّ ضغطٍ أو إكراه، وأيضاً بعد موافقة أهلهما. ويسبق ذلك تحديد قيمة المهر المقدَّم والمؤخَّر. وقد أوصى السيِّد التنُّوخيّ بعدم المبالغة في قيمة المهر، أكان الزوج غنيّاً أم فقيراً. واشترط أن توافق المرأة التي يتقدَّم إليها فقيرٌ أن تسمح له باستعمال أراضيها دون مِنَّةٍ أو جَبْر، على أن يتعهَّد بألاَّ يبيع أيّ جزءٍ منها أو يتصرَّف بها دون موافقتها المسبقة.

وبحسب تشريعات الأمير السيِّد، ينبغي على المرأة أن تتحلَّى بخصالٍ عددها 78، ما يؤمِّن علاقاتٍ زوجيَّةً قائمةً على الوفاق والانسجام والمودَّة والسكنى. ومن بين هذه الخصال نذكر على سبيل المثال لا الحصر: على المرأة أن تكون مؤمنة، عفيفة، خاليةً من العيوب، مهذَّبة، مؤدَّبة، حليمة؛ لا تكذب ولا تحلف، وتتوقَّع أن تُزجَر إذا زجرت وأن تُؤمر إذا أمرت. كما عليها أن تُخلص لزوجها وتعتني به وتعامله برفقٍ وحنان، فلا تفارقه وقت الشدَّة أو تهجره وقت الفقر، وتسامحه إذا أهانها، وتصبر إذا فضَّل عليها امرأةً أُخرى.

وألزمت تشريعات الأمير السيِّد الزوجَ الرجلَ بخصالٍ مماثلةٍ من مثل أن يُعامل زوجته كندٍّ له على المستويَين المادِّيّ والدينيّ، فتُساويه في الشأن الروحيّ، ويمنحها ثقته واحترامه، ويعاملها بنبلٍ وكرامة، ويُلبسها من نفس ما يلبس، ويُطعمها من نفس ما يأكل، ويتفادى تحميلها مسؤوليَّات أكثر ممَّا تحتمل، ويناقشها ويأخذ رأيها بالاعتبار، ويكشف لها أسراره ولا يُخفي عنها شيئاً، وينبذ كلّ تكبُّر أو غرور حيالها، وإذا كانت أُمِّيَّةً عليه تأمين تعليمها القراءة والكتابة، حتَّى ولو كلَّفه ذلك جزءاً من ثروته. وفي شأن الأملاك أو المقتنيات المادِّيَّة وهي من الأمور الفانية في هذا العالم بنظر مذهب التوحيد، فيتوجَّب على الزوجَين التعاطي معها على قدر المساواة. فإذا كانت المرأة غنيَّةً وزوجها فقيراً التزمت التعاون معه في السرَّاء والضرَّاء من أجل تأمين حياةٍ هادئةٍ وسعيدةٍ لأُسرتهما.

التنظيم الأُسَريّ

ألزمت تشريعات التُّنوخيّ الزوجَين بالاكتفاء بولدين اثنين أو ثلاثة في حال التعارض، وأربعة في حالات الضرورة القصوى. أمَّا الفقير فعليه أن يكتفي بولدٍ واحد، مع الإجازة له بأن يكون أباً لاثنين، على أن تمضي أربع سنواتٍ بين الولادتين، حتَّى تستطيع الأمّ أن تمنح الولدَين نوعيَّة الرعاية والتربية نفسها. وتحافظ الأُسر الدرزيَّة، حتَّى اليوم، على هذا التقليد، وخصوصاً في الجبل. وقد يفسَّر هذا الأمر على أنَّه ردّ فعلٍ ثقافيٍّ شعبيٍّ ما زال واسع الانتشار ومتأصِّلاً بين الموحِّدين الدروز.

الطلاق

يعتبر التُّنوخيّ الطلاق انفصالاً مطلقاً بين زوجَين اجتمعا وفق الأصول الشرعيَّة والاجتماعيَّة. وقد اعترف السيِّد الأمير بحقّ المرأة كما الرجل، في طلب الطلاق، نظراً للأسباب والظروف والدواعي التي تبرِّر انفصالها. ولا يقوم الطلاق إلاَّ متى أضحى الوفاق والانسجام والمودَّة بين الزوجَين مستحيلةً، وحلَّ محلَّها الشقاق والخلاف. وحدَّد الأمير الأسباب والدواعي المؤدِّية إلى الطلاق، من ناحية الطرف المرتكب.

من جهة المرأة، فإنَّ ما يبرِّر طلاقها ويُفقدها نصف مهرها وممتلكاتها، يتلخَّص بالزِّنى، والسرقة، وعصيان الزوج، وزيارة الجيران دون موافقة زوجها، واستلاب مؤونة البيت لتعطي الجيران من دون علم زوجها، والسلوك الشائن أو الطبع العنيف.

أمَّا من جهة الرجل، فإنَّ ما يبرِّر للمرأة طلب طلاقها منه يتلخَّص بالسلوك الشائن، والطبع العنيف، والبخل، والظلم أو عدم العدل مع زوجته، والطلب من زوجته القيام بأعمالٍ لا تحتملها، والتعرُّض لامرأته بالضرب بقسوة، وأذيَّتها، واحتقارها، والتعامل معها بتكبُّر وفوقيَّةٍ متفاخراً بأصله وممتلكاته، وإصابته بالجنون أو الجُذَام أو العجز الجنسيّ.

الزواج في القانون: الأهليّة للزواج

الزواج عقدٌ في أبعاده القانونيّة والشرعيّة. ولصلاح العقد لا بُدَّ من أن يخلو من أيّ عيب، ويتمتَّع المتعاقدان بالأهليّة المطلوبة، تحت طائلة عدم القبول أو الإلغاء. ووفقاً للعقائد التوحيديّة، ليس الزواج مجرَّد استمتاع أو إشباع لرغبةٍ أو شهوة، بل هو أحد قوانين هذا الوجود فرضه الله علينا لتأمين حفظ الجنس البشريّ واستمراره. من هنا، نستنتج أنَّ صحَّة الزواج تُستلّ من القانون الشرعيّ، وأيّ عيب يشوب أيّ شرطٍ من الشروط يعرِّض الزواج للبطلان.

من ناحيةٍ أولى، ينبغي أن يكون الزوجان في سنّ البلوغ، وهذا ما حُدِّد قانوناً في المادَّة الأولى من قانون الأحوال الشخصيَّة: 18 سنة للخطيب (الزوج المقبل)، و17 سنة للخطيبة (الزوجة المقبلة). غير أنَّ القانون نفسه يلحظ بعض الاستثناءات، إذ بإمكان قاضي المذهب أن يسمح للفتى بالزواج بعد بلوغه السادسة عشرة من عمره (المادَّة 2)، وللفتاة بعد بلوغها الخامسة عشرة (المادَّة 3)، شرط أن يُثبتا قدرتهما على تحمُّل أعباء الزواج، ويتمّ زواجهما بموافقة أبويهما. كما أنَّ البند الأوَّل من المادَّة 5، يُلغي أيّ شرطٍ آخر متعلّقٍ بالسنّ: «يُمنع بكلّ الأحوال تزويج الفتى أو الفتاة اللذين لا يكونا قد بلغا على التوالي السادسة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر».

ويبرِّر التشريع الدرزيّ اشتراطاته هذه بواقع أنَّ الزواج عقدٌ يلزم فيه الإيجاب والقبول من الطرفين، وعليه يتوقَّف مصير الأسرة، وبالتالي مصير الوطن. وصحَّة العقد تؤكِّدها المرأة من خلال تعبيرها، بحرِّيَّةٍ وصراحةٍ جليَّة، عن موافقتها، على أن تكون بالغةً سنَّ الرشد، ومالكةً لكلّ قواها العقليَّة. وإن لم تكن قد بلغت السنّ المطلوبة أو لم تتمتَّع بكامل قدراتها على التمييز والاختيار، تبقى موافقتها وقبولها دون أيّ قيمة.

كما أنَّ هناك شرطاً إضافيّاً يُحدِّد صحَّة عقد الزواج، إذ لا يحقّ للموحِّدين الزواج إلاّ من داخل طائفتهم، وبما أنَّ الاختلافَ الدينيّ مانعٌ شرعيٌّ لصحَّة العَقد، وبابَ الدعوة قد أُقفل في القرن الحادي عشر، فإنَّ أيّ انتسابٍ جديدٍ إلى مسلك التوحيد غير ممكن.

الوصيّة بحسب العقيدة

يُعرِّف الأمير التنُوخيّ الوصيَّةَ بأنَّها كلّ ما نأمر بتنفيذه «نُوصي به»، وكلّ ما نتركه «نُوَرِّثه» في حياتنا وبعد موتنا. وقد ترك للموحِّد الحرِّيَّة الكاملة والمطلقة في أن يُورِث ما يملكه لوارثٍ مباشرٍ أو لوارثٍ غير مباشر، حتَّى لو كان أجنبيّاً أو من طائفة أُخرى. فكلّ درزيٍّ يتمتَّع بحرِّيَّة التصرُّف بأمواله وأملاكه ومقتنياته، بيعاً أو هبةً أو هديَّةً أو استخداماً على هواه. غير أنَّ الأمير فرض على كلّ شخص يملك مالاً أو أملاكاً أو أيّ مقتنياتٍ مادِّيَّةٍ أُخرى، أن يكتب وصيَّته طالما هو في صحَّة جيِّدة ومالكاً لقواه كافَّة. قد يتبادر إلى ذهن العامَّة أنَّ إطلاق يد الموصي في وصيَّته مخالفٌ للشرع الحنيف، غير أنَّ الحقيقة بخلاف ذلك، إذ إنَّ الموحِّدين الدروز يعتمدون في تشريعهم هذا على قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عليكم إذا حَضَرَ أحدَكُم الموتُ إن تَرَكَ خيراً الوصيَّةُ للوالدَين والأقربينَ بالمعروفِ حقّاً على المُتَّقين﴾[4]. هذه الآية المعروفة بآية الوصيَّة هي آيةٌ مُحْكَمَةٌ غير منسوخةٍ بآيات المواريث[5]. وفي هذا، الموحِّدون على مذهب الكثير من المسلمين[6]. لكنَّه حدَّد أيضاً، أنَّه ليس بإمكان الموصي أن يُورِث شيئاً من ماله أو ثروته ما لم يسدِّد كلّ ديونه ويستحصل على إشعارٍ بذلك. وفرض أيضاً على الموصي أن يُورِث أشقَّاءَه عمل الصدقة، حتَّى يصبح هذا العمل عادةً وتقليداً.

وبما أنَّ الأمير التزم دائماً بكلّ ما أمر به أو اشترطه أو حدَّده، وصار مثالاً يُحتذى لإخوانه، فقد أوصى لوارثين غير مباشرين، لأُسرةٍ مسيحيَّةٍ من آل سركيس، وأورثهم منزلاً وأراضياً وقسماً من محصول الزيتون ورَيْع الزيت في أراضيه. وأورث كذلك أشخاصاً آخرين مثل الشيخ زين الدين جبرائيل ابن نصر، وأعطى زوجته وكلّ مَن قرأ وصيَّته التي أعدَّها قبل أشهرٍ من وفاته، الحرِّيَّة التامَّة في توريث

4. سورة البقرة، 180.

5. سورة النساء، 11-14.

6. راجع الشيخان حليم تقيّ الدين ومرسل نصر، **الوصيَّة والميراث عند الموحِّدين الدروز**، تمهيد د. سامي مكارم، 1983.

أملاكهم لِمَن يشاؤون دون قيدٍ أو شرط. وقد دخل هذا التشريع لاحقاً في القانون الوضعيّ عام 1948. واعتنى التَّنُوخيّ على وجه الخصوص بأن يُورِث مالاً لبعض النساء، بالإضافة إلى أرضٍ لامرأةٍ كانت تعيش في جرمانا من ضواحي دمشق، منطلقاً من مبدإ المساواة بين الرجل والمرأة، فليس من العدل إذاً أن يترك الرجلُ المرأةَ ضحيَّة الفاقة أو الجوع أو ظلم الأهل والأشقَّاء، بعد وفاته. لذا، شدَّد الأمير على أن يوزِّع الموصي تَرِكَتَهُ بطريقةٍ عادلة، بين زوجته وأولاده، وحَرِص أيضاً على مساواة البنت بالابن. وبحسب التَّنُوخيّ، لا يصحّ للموصي كتابة وصيَّته إلاَّ بعد التأكُّد من حصول زوجته وبناته على كامل حقوقهنّ. وقد جسَّد بنفسه تعهُّده هذا مع زوجته عائشة أُمّ ابنه الذي توفِّي بحادثٍ يوم زفافه، فترك لها قسماً كبيراً من أملاكه وبيوته وأمواله، مانحاً إيَّاها حرِّيَّة التصرُّف بها بمشيئتها، على أن تُديرها بمساعدة رجالٍ مؤمنين أتقياء مخلصين.

وطلبت تشريعات التَّنُوخيّ من قضاة المذهب أن يعوِّضوا خسارة المرأة التي اضطرَّت لترك منزلها وأولادها، بدفع نصف ثروة زوجها لها.

الأمير التَّنُوخيّ هو أوَّل مشرِّعٍ في التاريخ، أعطى المرأة حقوقاً مقابلةً لحقوق الرجل، واعترف لها بوضعٍ اجتماعيٍّ مساوٍ للرجل، وبحقّها في المساواة مع الرجل من خلال تملُّكها نصف ما يملك. وهو بذلك يسبق الغرب بقرونٍ عدَّة. مع الإشارة إلى أنَّه أعطاها حقّ الطلاق وحقّ توريث أملاكها بحرِّيَّة، والاستقلال في رعاية شؤون أُسرتها ومنزلها.

الوصيَّة في القانون

1. في صحَّتها وصيغتها

وفقاً لقانون الأحوال الشخصيَّة الدرزيّ فإنَّ «اختلاف الدين أو المذهب لا يُبطل صحَّة الوصيَّة» (المادَّة 151). وبالمقابل، القانون المتعلِّق بالوصيَّة يختلف عن ذلك المتعلِّق بالمواريث، أكان لناحية المبدإ أم لناحية الانعكاسات المترتِّبة: «ففي غياب وصيَّةٍ يكون اختلاف الدين أو المذهب مانعاً للتوريث».

وتبقى الوصيَّة صحيحةً في كلّ ما يتعلَّق بالهبة أو الصَّدَقة أو تَرِكة الأوقاف أو المؤسَّسات الخيريَّة أو المؤسَّسات التعليميَّة (المادَّة 150).

لا تحدِّد التشريعات الدرزيَّة أيّ صيغة خاصَّة بكتابة الوصيَّة، إلاّ أنَّها تفترض وجودها مكتوبةً، حرصاً على استمراريَّة الأقوال والأعراف الموروثة عن الأجداد، والمكرَّسة في قانون الأحوال الشخصيَّة: «على الموصي أن يجهِّز وصيَّته مكتوبةً قرب رأسه»، بحسب العُرْف. أمَّا بحسب القانون فـ «تبقى الوصيَّة بعد إثبات صحَّتها عند القاضي، في حين يحتفظ الموصي بنسخةٍ مصدَّقةٍ عنها» (المادَّة 158، وما يليها).

2. في موت الموصَى له (المستفيد) قبل موت الموصي (المادَّة 155 وما يليها)

تبقى الوصيَّة صالحةً إذا كان لدى المتوفَّى الموصى له وريثٌ أو أكثر. فتعود حصَّة المتوفَّى إلى وريثه أو ورثته. أمَّا إذا لم يكن للمتوفّى الموصى له وريث، تُلغى الحصَّة العائدة له في الوصيَّة، ويتمّ توزيعها على سائر الموصَى لهم.

3. في أنواعها (المادَّة 158 وما يليها)

يسمح قانون الأحوال الشخصيَّة بأربعة أنواع من الوصيَّة: الوصيَّة الواجبة في حياة الموصي، أي المسجَّلة أمام قاضي المذهب (المادَّة 158)؛ والوصيَّة غير المسجَّلة التي لا تصبح نافذةً إلاّ بعد أن يحكم القاضي بصحَّتها ولزومها والعمل بها (المادَّة 158)؛ والوصيَّة المستورة (المادَّة 164)، أي تلك التي يضعها الموصي ضمن غلافٍ يختمه بالشمع الأحمر بخاتم المحكمة أمام القاضي، ويوقِّعه مع القاضي وأربعة شهود؛ والوصيَّة المحرَّرة خارج لبنان (المادَّة 161).

4. في شروطها ومستلزماتها

يتمتَّع الموصي بالحرِّيَّة الكاملة والمطلقة في تحديد مَن يورث، وكيف، دون أن يقيِّده في ذلك فرض توريث حدٍّ أدنى من تَرِكته إلى وَرَثته أو تفضيل وريثٍ على آخر (المادَّة 148).

غير أنَّ لهذه الحرِّيَّة التامَّة في الوصيَّة، وجهاً آخَر حيث يمتلك الموصي حقّ إسقاط أحد وَرَثته من التَّركة، فحرِّيَّة العطاء هي أيضاً حرِّيَّة الحرمان. ولتجاوز هذه المعضلة، تُطبّق الطوائف اللبنانيَّة الأُخرى مبادىء الاحتياط والتخصيص، محدِّدةً جزءاً من التَّركة يعود إلى الوَرَثة الشرعيِّين للمتوفَّى.

وتتألَّف الوصيَّة من ثلاثة عناصر هي: الموصي، والموصى له، والتَّركة. ولكلٍّ من هذه العناصر مستلزماته الخاصَّة والعامَّة التي تتوافق مع تلك التي عند الطوائف الإسلاميَّة، وأحياناً تختلف.

التَّركة والمواريث في التشريع الإسلاميّ

حين وفاة موحِّد لم يدوِّن وصيَّته، أو في حال إبطال الوصيَّة من قبل قاضي المذهب، تُعتمد تشريعات المذهب الحنفيّ (المادَّة 168). فتتمّ حينئذٍ قسمة ممتلكات المتوفَّى وثروته على الأساس التالي: الثُّمْن لأهله، والربع لزوجه، والباقي لأولاده، علماً بأنَّ البنت لا تنال سوى النصف من مقدار حصَّة الصبيّ. غير أنَّ المادَّة 169 من القانون الدرزيّ، تُلغي من التشريعات الإسلاميَّة تلك الموادّ التي تستثني بعض فروع المتوفَّى. فيأخذ التشريع الدرزيّ في الاعتبار مبدأ التمثيل، على خلاف باقي المذاهب الإسلاميَّة. وبعبارةٍ أخرى، إذا ما توفِّي الابن قبل أبيه تعود حصَّته مباشرةً إلى أولاده. ووفقاً لهذا التشريع، لا يحلّ الأولاد محلّ أبيهم، بل يمثِّلونه ويخلفونه في تَركة جَدِّهم. وتُعتمد هذه القاعدة بهدف العدل والمساواة، المبدأان اللذان هما اليوم، موضع دراسةٍ جدِّيَّة من قبل بقيَّة المذاهب الإسلاميَّة، تمهيداً لإقرارها في تشريعاتهم. وهناك حاليّاً مشروع تعديلٍ في نظام الأحوال الشخصيَّة الدرزيّ يهدف إلى إحلال الفقه الجعفريّ الأكثر عدلاً، محلّ الحنفيّ، في موضوع التَّركة دون وصيَّة، وهو لا يزال قيد الدرس.

وبمعزلٍ عن كلّ تلك التشريعات، تُحصر سلطة إصدار أحكام حول آثار وفاة ومترتِّباته، وإقرارها، أو حول توزيع التَّركة، في يد القضاء المذهبيّ الدرزيّ.

تنظيم القضاء المذهبيّ

تتألّف هيكليّة القضاء المذهبيّ الدرزيّ الذي تتبع له مختلف أوضاع الأحوال الشخصيّة للدروز في لبنان، من ستّ محاكم ابتدائيّة أو مذهبيّة، ومن محكمة استئنافٍ عليا.

تشكيل المحاكم الابتدائيّة وسلطاتها (قضاة المذهب)

المحاكم الابتدائيّة في القضاء المذهبيّ الدرزيّ هي:

1. محكمة بيروت، ومركزها بيروت، وتشمل سلطتها محافظة بيروت، ومحافظة الشمال، وأقضية المتن وكسروان وجبيل.
2. محكمة عاليه، ومركزها عاليه، وتشمل سلطتها قضاء عاليه فقط.
3. محكمة بعقلين، ومركزها بعقلين، وتشمل سلطتها قضاء الشوف.
4. محكمة البقاع، ومركزها راشيًّا، وتشمل سلطتها محافظة البقاع.
5. محكمة الجنوب، ومركزها حاصبيًّا، وتشمل سلطتها محافظة الجنوب.
6. محكمة المتن ومركزها القلعة، وتشمل سلطتها قضاء بعبدا.

ويرأس كلاًّ من هذه المحاكم قاضٍ مذهبيٌّ منفرد، ولكلٍّ منها قَلَمٌ يتألّف من رئيس قلمٍ وكاتبٍ ومُبَاشِرٍ وحاجب.

تشكيل محكمة الاستئناف العليا وسلطاتها

تتشكّل محكمة الاستئناف العليا من رئيس ومستشارَين اثنين. مركزها بيروت وتشمل سلطاتها كلّ الأراضي اللبنانيّة. ولها قلمٌ يتألّف من رئيس قلمٍ وكاتبٍ ومُبَاشِرٍ وحاجب. كما لها ديوانٌ إداريٌّ مرتبطٌ برئيس المحكمة القائم بمهامّ المدير العامّ واختصاصاته، ومؤلّفٌ من رئيس دائرةٍ ومحاسبٍ وكاتبٍ ومستكتبٍ وخادم.

المميّزات الحاليّة للقضاء المذهبيّ الدرزيّ

يتميّز القضاء المذهبيّ الدرزيّ، اليوم، بوجود تشريعاتٍ وقوانين، بلغت

مستوًى عالٍ من الدقَّة والوضوح القانونيَّين. وعلى الراغب بتبوُّؤ منصب قاضٍ مذهبيّ، أُسوةً بأيّ قاضٍ في محاكم الدولة العدليَّة، أن يحوز إجازةً في الحقوق، ومن المستحسن أن يحوز أيضاً، شهادة دبلوم من معهدٍ قضائيٍّ مماثلٍ من حيث التنظيم والإعداد والتدريب لمعهد القضاء الذي يدرس فيه قضاة المحاكم العدليَّة ويتدرَّبون، أو أن ينال الدبلوم من المعهد القضائيّ نفسه.

يُصنَّف القضاء المذهبيّ الدرزيّ جزءاً من الجهاز القضائيّ اللبنانيّ، وبالتالي فهو يقع تحت سلطة قانون الموظَّفين، وخصوصاً لجهة التقاعد وتعويض نهاية الخدمة التي حدَّدها القانون اللبنانيّ، وجعلت سنّ التقاعد 68 بدل 64. وبهذا، فإنَّ القضاء المذهبيّ الدرزيّ يشبه من حيث تحديد الحقوق والواجبات تنظيم جسم المحاكم العدليَّة. وفي السياق عينه، تُطبِّق محاكمُ القضاء المذهبيّ الدرزيّ قانونَ إجراءاتٍ خاصٍّ بها، يشابه القانون الإجرائيّ المدنيّ المطبَّق في المحاكم العدليَّة للدولة اللبنانيَّة. أمَّا رواتب القضاة والموظَّفين في القضاء المذهبيّ الدرزيّ فتُدفع من الماليَّة العامَّة، كما أنَّ النفقات القضائيَّة تُستوفى لصالح الماليَّة العامَّة.

يلبس قضاة المحاكم المذهبيَّة الدرزيَّة الثوب الدينيّ في المحكمة، كما يلبس قضاة محاكم الدولة العدليَّة الثوب القضائيّ في المحكمة. غير أنَّ صلاحيَّات قضاة المذهب وسلطاتهم لا تُطبَّق إلاَّ في حدود الأمور المتعلِّقة بالأحوال الشخصيَّة للموحِّدين الدروز. فعلى سبيل المثال لا الحصر، لا يحقّ لقضاة المذهب تطبيق سلطتهم وصلاحيَّتهم على زوجَين إلاَّ في حال كانا درزيَّين، ويستحيل عليهم ذلك إذا كان الزواج مختلطاً. ويُنتدب قاضٍ درزيٌّ من المحاكم العدليَّة لمنصب المدَّعي العامّ أمام محكمة الاستئناف العليا، وآخَر لتولِّي مهمَّات التفتيش لدى المحاكم المذهبيَّة الدرزيَّة.

الفصل السادس

الانتشار والإشعاع الثقافي

الانتشار

يصعب كلّ تحديدٍ دقيق لحجم الانتشار الدرزيّ بسبب غياب الإحصائيّات الرسميّة في لبنان، على أنّ الاغتراب يبقى جزءاً لا يتجزّأ من الاغتراب اللبنانيّ والسوريّ عموماً، وهو يقع ضمن خريطة هذين الاغترابَين. يُقدَّر عدد المغتربين الموحِّدين الدروز بحوالى مئة ألف، يعيش معظمهم في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة (حوالى 30 ألفاً)، ثمَّ في كندا (20 إلى 25 ألفاً)، ويتوزَّع الباقون في فنزويلا ونيجيريا وأستراليا ودول الخليج والمملكة العربيَّة السعوديَّة.

يتحدَّر دروز الولايات المتَّحدة من حركات الهجرة في مطلع القرن العشرين، والتي استقطبها الحلم الأميركيّ ونمط الحياة في بلاد العمّ سام. واندمج الموحِّدون الدروز في الولايات المتَّحدة إلى حدّ اختيار الأسماء الأميركيَّة مثل روجر بدل عجاج، وراي بدل رامز، أو راندي بدل رياض. واتَّسمت الجالية الدرزيَّة في أميركا بنشاطٍ مميَّز. ففي منتصف القرن العشرين تأسَّست الجمعيَّة الدرزيَّة الأميركيَّة، ومقرُّها لوس أنجلس للمقيمين على الساحل الغربيّ، وواشنطن العاصمة للمقيمين على الساحل الشرقيّ. يُنتخب رئيسها لمدَّة سنتين. تنظِّم الجمعيَّة بمناسبة العيد الوطنيّ الأميركيّ (4 تمُّوز - يوليو)، مؤتمراً سنويّاً يجمع العائلات الدرزيَّة من مختلف الفئات والاتِّجاهات والمناطق، ويعالج مواضيع ثقافيَّةً واجتماعيَّةً وعقائديَّة، ونادراً ما يتعرَّض للمواضيع السياسيَّة. يدير المؤتمر

كلّ عام رئيسٌ ينتخبه الأعضاء. وعام 1982، إبَّان الحرب الأهليَّة اللبنانيَّة، أطلق دروز أميركا اللجنة الأميركيَّة الدرزيَّة للشوؤن العامَّة، فأخذت على عاتقها إعلام السياسيِّين ووسائل الإعلام الأميركيَّة بحقيقة واقع الموحِّدين الدروز في العالم. وقد أثَّرت هذه اللجنة إلى حدٍّ بعيدٍ في السياسة الأميركيَّة حيال طائفة الموحِّدين الدروز في لبنان، وخصوصاً إبَّان الأحداث المؤلمة في حرب الجبل (1983-1984). وعام 1982 أيضاً، عيَّن الرئيس رونالد ريغان السيِّدة روزفلت المولودة سلوى شقير من أرصون في لبنان، وزوجة السفير روزفلت، في منصب رئيس البروتوكول في الإدارة الأميركيَّة.

ليست هذه الحيويَّة تفرُّداً درزيّاً، بل هي خاصِّيَّةٌ عامَّةٌ عند العرب المسيحيِّين والمسلمين المقيمين في أميركا، طالعةً من طابع الهجرة. فالحرِّيَّة التي يتمتَّع بها المهاجرون في بلاد الاغتراب، تشجِّع كلّ مَن هو من ذوي الأصول العربيَّة والشرق أوسطيَّة، على الانفتاح وإثبات الذات والإبداع الخلاَّق، فيبرز منهم العلماء والمُجلُّون في شتَّى الاختصاصات والاهتمامات. ويتعامل دروز أميركا مع مفردات الحرِّيَّة والديمقراطيَّة ومفاهيمها بيُسْر وبساطة، دون خوفٍ من قمع أو زجر. فتراهم لا يشعرون بالخوف أو الرهبة في التعبير عن أنفسهم أو عن إظهار أصالتهم، حتَّى على مستوى العقيدة، دون أن ننسى أنَّ الوضع الذي استجدَّ بعد الحادي عشر من سبتمبر/ أيلول 2001، والانقلاب الذي أحدثه هذا الزلزال المأساويّ، أدَّى إلى تصاعد موجة التمييز العنصريّ تجاه العرب، وتقييد حرِّيَّة التعبير والعمل في الولايات المتَّحدة. بيد أنَّ برامج الجمعيَّة الدرزيَّة الأميركيَّة ومشاريعها ما فتئت تعبِّر عن نجاح الموحِّدين الدروز في الاندماج في مجتمعات الإقامة. وتنشر الجمعيَّة مجلَّتَين فصليَّتَين: «عالمنا» و«تراثنا»، وأنشأت أيضاً موقعاً إلكترونيّاً للإعلام والتواصل.

لا يقلّ الموحِّدون الدروز في كندا عدداً عن إخوانهم في أميركا. وبحسب إحصاءات السفارة الكنديَّة في لبنان لعام 2002، يبلغ عدد اللبنانيِّين في كندا حوالى 250 ألفاً، يشكِّل الموحِّدون الدروز 10 % منهم. ففي «أدمنتون» جاليةٌ درزيَّةٌ كبيرةٌ

جاء معظم أفرادها من البقاع الغربيّ وراشيّا، وتحديداً بلدة ينطا في قضاء راشيّا.

في هذا الإطار، يدين العرب في اندماجهم بالمجتمع الكنديّ لجهود الدرزيّ محمّد سعيد مسعود الذي ساهم مع عددٍ من المهاجرين، في تأسيس جمعيّة الصداقة العربيّة-الكنديّة، وترأسها فيما بعد. وقد سمح له هذا الموقع بالانطلاق في شرح القضيّة الفلسطينيّة للشعب الكنديّ، داحضاً أسس السياسة الصهيونيّة. وأتيحت له مدّة رئاسته الجمعيّة، مخاطبة اللجنة الكنديّة للشوؤن الخارجيّة، وتأسيس مجلّة الصداقة الكنديّة-العربيّة التي نشر فيها العديد من المقالات المؤيّدة للقضيّة الفلسطينيّة، ودأب على توزيعها مجّاناً لعشرات الآلاف من الأشخاص في كندا والولايات المتّحدة، وصولاً إلى عصبة الأُمم ومختلف برلمانات العالم.

أمّا الجالية الدرزيّة في فنـزويلاً فقد تغذّت من الهجرات المتتالية من جبل لبنان، وجبل الدروز، منذ مطلع القرن العشرين. وسُمِّي أبناء الهجرات «توركوس»، أي أتراك، نظراً إلى كونهم من حاملي الجنسيّة العثمانيّة حين هاجروا، وذلك قبل زوال سلطة الإمبراطوريّة العثمانيّة عن ديارهم. وساهم هؤلاء بقوّة، في دعم القضايا العربيّة ومواجهة حملات التضليل والتشويه.

أمّا في أستراليا فيتركّز الموحّدون الدروز في جنوبيّ غربيّ البلاد، ابتداءً من مدينة كانبيرا، مروراً بسيدني وأديلاييد. كما توجد جالياتٌ درزيّةٌ كبيرةٌ في غرب أفريقيا وتحديداً في نيجيريا الذي يدين الحضور الدرزيُّ فيها إلى محمد حسين الخليل. وتعود هجرة هؤلاء إلى حركات الهجرة اللبنانيّة والسوريّة الواسعة والكثيفة في مطلع القرن العشرين.

وفي المملكة العربيّة السعوديّة وبلدان الخليج، يشكّل الاغتراب الدرزيّ ظاهرةً حديثةً نسبيّاً، إذ إنّه نشأ إثر دعوةٍ من تلك الدول إلى اللبنانيّين للقدوم إليها، للعمل واستثمار الأموال، ليتطوّر منذ النصف الثاني من القرن العشرين على إيقاع التطوُّر النفطيّ. وقد برز في هذا الانتشار فؤاد حمزة الذي شغل منصب وزير الخارجيّة في عهد مؤسِّس المملكة الملك عبد العزيز آل سعود، واسعد الفقيه أحد سفراء المملكة.

هذا، وأظهر الموحّدون الدروز حيويّةً فائقةً داخل الجمعيّات الاغترابيّة

اللبنانيَّة والعربيَّة، ولم يكتفوا بتأسيس جماعاتهم والسعي إلى اندماجها في البلدان التي استقبلتهم، بل أسهموا إسهاماً لافتاً في تأسيس الجامعة الثقافيَّة للمغتربين في العالم في الستِّينيَّات، وكان مركزها بيروت. ورئس الجامعة أنور محمَّد الخليل، كما رئس فرعها اللبنانيّ، توفيق عسَّاف. وبرز الاثنان في عمليَّة تنظيم المغتربين، فوحَّدوا مواقفهم وأوضاعهم وصانوا مصالحهم، آخذين بعين الاعتبار مصالح بلاد المنشإ. وقد أسَّس بعض الموحِّدين الدروز في بلاد الانتشار جمعيَّاتٍ لاستقبال مواطنيهم القادمين من لبنان ولتسهيل عمليَّة اندماجهم في المجتمعات الجديدة.

الإشعاع الثقافيّ: المساهمة في النهضة العلميَّة في القرن التاسع عشر

مدارس البعثات البروتستانتيَّة

أَنجبت حقبة الاستقرار السياسيّ والاقتصاديّ في مرحلة المتصرِّفيَّة، أواخر القرن التاسع عشر، حياةً ثقافيَّةً وفكريَّةً وعلميَّةً في البلاد[1]. وعلى الرغم من أنَّ المسيحيِّين ألَّفوا الأعمدة الأساسيَّة لقيام النهضة، فقد استفاد الموحِّدون الدروز منها أيضاً، بفضل المدارس التي أنشأتها البعثات التبشيريَّة الإنجيليَّة في مناطقهم. وقامت شخصيَّاتٌ درزيَّةٌ كبيرة الشأن، بسبب من هواها البريطانيّ وخلافها مع فرنسا، بتشجيع البعثات البروتستانتيَّة في الجبل، وحماية مسؤوليها من الضغوط التي مارستها المؤسَّسات الكاثوليكيَّة التي تدعمها فرنسا. وبرز منهم آل تلحوق في تقديم الأرض التي أُقيمت عليها الجامعة الأميركيَّة في رأس بيروت، إمَّا وهباً وإمَّا بيعاً بأسعارٍ بخسة. أمَّا أقدم تلك المدارس وأهمُّها فأَسَّستها بعثةٌ أميركيَّةٌ في عبيه، عام 1843. وتبع ذلك تأسيس مدارس إنجيليَّة في عرمون وبتاتر عام 1853، وفي بتخنيه عام 1854. وبغية دعم مدرسة بتاتر قام مشايخ آل عبد الملك بتسجيل حوالى العشرين من أولادهم فيها، ومنذ سنتها الأُولى. وأُسوةً بمشايخ القرى،

1. أنظر الفصل الثاني.

حثَّ مشايخ آل تلحوق في الغرب، سليمان الصليبي على إنشاء مدرسةٍ في عاليه، فكان ذلك عام 1855. وقامت مبادراتٌ مماثلةٌ في العديد من القرى في الغرب، في عيناب وبشامون ورأس المتن ودير قوبل.

المدرسة الداووديَّة

في مطلع عام 1862، عرض الشيخ سعيد تلحوق على حاكم المتصرفيَّة في لبنان، حاجة الموحِّدين الدروز إلى بناء مدارس جديدة. واقترح عليه إنشاء مؤسَّسة تُدرِّس الثقافة العربيَّة واللُّغات الأجنبيَّة، وتستوفي نفقاتها من عائدات الأوقاف الدرزيَّة، على أن يتمَّ تحويل منسك الشيخ أحمد أمان الدين في عبيه، إلى مدرسة. وافق المتصرِّف على هذه الطلبات، وتأسَّست المدرسة الدرزيَّة الأُولى عام 1862، وسُمِّيت «المدرسة الداووديَّة» نسبةً إلى المتصرِّف داوود باشا الذي رعى إقامتها، وعُهد بإدارتها للأوقاف.

تأثير المدارس

أَسهمت المدارس التي أُنشئت في المناطق الدرزيَّة، في تعليم أبناء الطائفة. غير أنَّ متخرِّجي هذه المدارس لم ينحوا نحو أقرانهم المسيحيِّين الذين أَسَّسوا مدارس جديدة، بل اكتفوا بإرسال أبنائهم إلى المدارس التي تعلَّموا فيها. وبرزت من بين هؤلاء نخبةٌ من المثقَّفين أَدَّت دوراً أساسيّاً في النهضة العربيَّة في لبنان، في حقول اللُّغة والأدب والعلوم والصحافة. ومن بين خرِّيجي الدفعة الأُولى في كلِّيَّة الطبّ في جامعة بيروت الأميركيَّة، في العقد الأوَّل من حياتها، أربعة موحِّدين دروز: أمين الحلبي وأسعد سليم ويوسف سليم وداوود سليم. وقد تألَّق اسم الدكتور أسعد سليم بفضل أبحاثه العلميَّة المختلفة، وتحديداً كتابه عن تربية دود القزّ، الصادر عام 1899. أمَّا شقيقه داوود فهاجر إلى أميركا الشماليَّة، واشتهر بأبحاثه عن العلوم الكهربائيَّة. وفي مجال العلوم، رئس الأمير محمَّد أرسلان الجمعيَّة العلميَّة السوريَّة التي أُنشئت عام 1847، وأُعيد تأسيسها عام 1868، ومن أهدافها نشر العلوم والفنون. واعترفت

السلطات العثمانيَّة بهذه الجمعيَّة فانتسب إليها العديد من رجال الفكر والقلم، من مختلف البلدان العربيَّة، ولمع منهم درزيَّان: الأمير مصطفى أرسلان والشيخ سعيد تلحوق. وفي الحقبة عينها، أنشأ الموحِّدون الدروز جمعيَّة مدارس المعارف العموميَّة، ومن اختصاصها الشؤون الثقافيَّة والتربويَّة للطائفة. وفي مجال الإعلام، برز الأمير علي آل ناصر الدين الذي أَسَّس عام 1868، جريدة **الصفا**.

الموحِّدون الدروز واليقظة العربيَّة

أدَّى التعليم الذي تنامى انتشاره منذ نهاية القرن التاسع عشر، بفضل البعثات الأجنبيَّة والمدارس العموميَّة العثمانيَّة والمدارس الخاصَّة الأهليَّة، إلى ولادة حركاتٍ سياسيَّةٍ إصلاحيَّةٍ ووطنيَّةٍ في كلّ بلدان المشرق. وبانت الثقافة التي تشرَّبها تلامذة تلك المدارس مشبعةً بالتوجُّهات السياسيَّة. وأَمَّنت البرامج التي اعتمدتها مدارس البعثات الفرنسيَّة، العمل والوظائف داخل جهاز المتصرفيَّة الإداريّ، أوّلاً وقبل كلّ شيءٍ للمسيحيِّين. وأرسل الموحِّدون الدروز أولادهم إلى المدارس البروتستانتيَّة أو الإسلاميَّة العثمانيَّة الرسميَّة والخاصَّة. من هنا، لم تكن النُّخبة المثقَّفة الدرزيَّة خارج النهضة الفكريَّة في لبنان. وقد عرف لبنان صحوةً سياسيَّةً تبلورت حول حساسيَّة موقعه داخل الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. وأخذت هذه الصحوة السياسيَّة شكلَين، أوَّلهما مطالِب بالإصلاح السياسيّ داخل الإمبراطوريَّة، وثانيهما يقظةٌ قوميَّةٌ عربيَّةٌ تدعو إلى إحياء الثقافة العربيَّة من ناحية، وإلى الاستقلال عن الدولة العثمانيَّة، من ناحيةٍ أخرى. أمَّا الموحِّدون الدروز فانحازوا بشكلٍ واضحٍ إلى معركة الاستقلال.

الموحِّدون الدروز والفنّ

يُظهر الموحِّدون الدروز حساسيَّةً تجاه الفنّ بحسب الحقول والميادين. إلاَّ أنَّ إيمانهم بالحقيقة الإلهيَّة الواحدة المنـزَّهة والخالقة لكلّ شيءٍ، منعهم من رسم الكائنات الحيَّة والأشياء المادِّيَّة أو تمثيلها، كما أنَّ هذا الأمر ليس مستساغاً عند

المسلمين وبعض المسيحيِّين. وهكذا، ابتعد الموحِّدون الدروز عن الفنون التصويريَّة، ليس بداعي قلَّة الاهتمام أو التحريم، بل بداعي احترام الواحد الأحد. بيد أنَّ عدداً من الفنَّانين اشتهروا بالفنّ التشكيليّ وفنّ الحروفيَّات كالشيخ نسيب مكارم الذي لُقِّب «بخطَّاط الملوك»؛ مع العلم بأنَّ التنُّوخيِّين تميَّزوا أيضاً بفنّ الخطّ العربيّ القرآنيّ. وفي المقابل، برع الموحِّدون الدروز في الفنون البلاغيَّة والشعريَّة والأدبيَّة، حتَّى صاروا مضرب مثل. فالشعر والرواية اللذان تراجعا في أيَّامنا تحت تأثير ضغط وسائل الإعلام والتواصل الحديثة، ما زالا يحظيان بشعبيَّةٍ كبرى عند الموحِّدين الدروز، ويمارسها الكثيرون منهم في القرى، وفي المناسبات المختلفة. وترتبط الموضوعات التي تعالجها هذه الفنون بشكلٍ وثيق وحميم بتراث الموحِّدين الدروز الثقافيّ والتاريخيّ. وهي في غالب الأحيان، كنايةٌ عن قصائد حبٍّ وحنين، أو تخليدٍ لمحطَّاتٍ بارزةٍ في تاريخهم من معارك تؤكِّد على حبّ الوطن. وتبرز هذه القريحة الشاعريَّة خصوصاً في المناسبات الكبرى المميَّزة، وتتبدَّى مسرحاً لمبارزاتٍ بلاغيَّةٍ وفصاحيَّة، فتتشابه من حيث المضمون ولو أنَّها تحمل أسماء مختلفةً باختلاف المناسبات. ففي حفلات الزفاف، يمارس الموحِّدون الدروز الحِداء الذي يقوم على بيتَين عفويَّين من الشعر يمدحان العروسَين، يُردِّدهما المحتفلون طوال السهرة. وفي مناسبات الانتصار السياسيّ أو العسكريّ تسود الحوربة، وهي عبارة عن بضعة بيوتٍ من الشعر العفويّ تتغنَّى بأمجاد المنتصر. أمَّا في الجنازات فيلجأ الموحِّدون الدروز إلى الندب لبكاء المتوفَّى وإظهار اللوعة على فقدانه، وذلك في بيتَين أو ثلاثة فقط.

كما يقدِّر الموحِّدون الدروز الموسيقى بحسٍّ فنِّيٍّ مُرْهَف. ويتميَّزون بالعزف على آلاتٍ تقليديَّةٍ تراثيَّةٍ مثل الناي والربابة والمجوز[2]. ويبقى عزفهم للموسيقى ذا طابعٍ شعبيٍّ، فيمارسه الراعي في وحدته في الجبال، ويُكمل بهجة سهرات الليل في الاحتفالات العائليَّة والخطوبة والزواج، ويتجلَّى أكثر ما يكون في الدبكة، تلك

2. الربابة آلةٌ وتريَّةٌ ذات وترٍ واحد؛ والمجوز آلة نفخٍ مؤلَّفةٌ من قَصَبتَين فيهما ثقوب.

الحلقة الشهيرة التي يرقص فيها الناس على إيقاع الموسيقى.

مجالات التميُّز

لقد استفادت طائفة الموحِّدين الدروز من النهضة الفكريَّة التي عرفها لبنان أواخر القرن التاسع عشر، كما من حركة الهجرة والاغتراب، ما سمح، منذ أواخر القرن التاسع عشر، بنشوء نخبةٍ مثقَّفة. وتَستمرّ هذه الحالة إلى اليوم، إذ ما زالت الطائفة تُخرِّج الفنَّانين، والكُتَّاب، والمفكِّرين في كلّ حقول المعرفة والعلوم والسياسة والأعمال. وتتبدَّى من الصعوبة بمكانٍ في حدود كتابٍ مماثلٍ، تغطية كلّ ذلك وإيفاء الموضوع حقّه، في حين أنَّ الاقتصار على ذكر بعضِ الشخصيَّات أو المواقف سيؤدِّي، لا محالة، إلى عشوائيَّةٍ في الاختيار، أو إلى النسيان والإهمال. لذا، ستأتي حتماً المحاولة لرسم صورة بعض الحقول والمجالات التي برع فيها الموحِّدون الدروز وتميَّزوا، منذ القرن الماضي وإلى يومنا هذا، ستأتي غير مكتملة، بل مقتصرةً على أمثلةٍ مختارةٍ لشخصيَّاتٍ حلَّقت مبدِعةً في مجال اختصاصٍ محدَّدٍ دون أن تختصره، ونوردها على سبيل المثال لا الحصر. وتهدف هذه المحاولة إلى إبراز مدى الإشعاع الفكريّ والثقافيّ للدروز، لا إلى تميُّز أفرادٍ أو أشخاصٍ، على أن تُضيء على مختلف العناوين التي كنَّا قد تطرَّقنا إليها سابقاً.

1. القانون والسياسة

بقدر ما برز الموحِّدون الدروز أوفياء لتراثهم التاريخيّ، بالقدر عينه تميَّزت مشاركتهم في الحياة السياسيَّة اللبنانيَّة. وتميَّز في هذا المجال نظيرة جنبلاط وابنها كمال، وشكيب وعادل أرسلان، وعليّ ناصر الدين، وعجاج نويهض، ومجيد أرسلان، وبهيج تقيّ الدين، وبشير الأعور، وتوفيق عسَّاف، وفؤاد نجار، ومروان حمادة، وكثيرون غيرهم. ويظهر دور الموحِّدين الدروز الفاعل وتأثيرهم في حياة لبنان السياسيَّة، وقد احتلَّ هؤلاء أعلى المناصب الوزاريَّة والقضائيَّة. غير أنَّ الأهمِّيَّة السياسيَّة للموحِّدين الدروز تدين اليوم، وفي آنٍ معاً، للموقع الذي تعطيها إيَّاه

طبيعة النظام السياسيّ اللبنانيّ من جهة، ولوزن ممثّلي الطائفة، من جهةٍ أُخرى[3]. كما انخرط الموحّدون الدروز بوجهٍ خاصٍّ، في مجالَي الحقوق والقانون. ومن بين الشخصيّات الكثيرة التي تميّزت عندهم في هذا المجال، يبرز الأستاذ أمين عبّاس الحلبي (1900-1948)، الذي كان من أوّل المحامين الدروز في لبنان، وشفيق بك الحلبي (1892-1978) الذي تولّى رئاسة مجلس شورى الدولة وكان محافظاً لمدينة بيروت ورئيساً لبلديّتها، وقد جعلها «بلديّةً ممتازة».

2. الاقتصاد

هاجر الموحّدون الدروز إلى الولايات المتّحدة الأميركيّة وكندا وأميركا اللاتينيّة وأستراليا، ومن ثَمّ إلى أفريقيا والسعوديّة والكويت وبلدان الخليج. واستثمروا في لبنان الثروات التي راكموها في بلاد الاغتراب، خصوصاً في المرحلة التي تلت الاستقلال، كما أسّسوا الشركات التجاريّة الكبيرة. وفي عام 1951، تأسّست أوّل شركة درزيّة، وهي «الشركة العصريّة اللبنانيّة للتجارة المساهمة»، صاحبة امتياز بيبسي كولا في لبنان، وسُجّلت في السجلّ التجاريّ باسم توفيق عسّاف. وانخرط الموحّدون الدروز بزخم في القطاع التجاريّ والصناعيّ والسياحيّ في لبنان، ممارسين نشاطهم أوّلاً، في قطاع الفنادق والمصارف والصناعة. ونتذكّر هنا سيرة توفيق عسّاف وأعماله (ت. 1996)[4]، ونجيب صالحة (ت. 1980) الذي كان يدير سلسلة فنادق فينيسيا والفندوم الكبيرة والشهيرة، وشركة ليكو (الشركة اللبنانيّة للصناعة والتجارة)، والشركة الشرقيّة للإعلام، ورجا صعب مؤسّس فندق السمرلاند.

وعرف الموحّدون الدروز الإفادة من الازدهار الاقتصاديّ اللبنانيّ، مثلهم مثل

---

3. أُنظر نبذات السير الذاتيّة لكمال جنبلاط ومجيد أرسلان، في القسم المخصّص للشخصيّات التاريخيّة الأبرز في طائفة الموحّدين الدروز.

4. أنظر النبذة عن سيرته الذاتيّة في القسم المخصّص للشخصيّات التاريخيّة الأبرز في طائفة الموحّدين الدروز.

بقيّة اللبنانيّين من الطوائف الأُخرى. وحقّقوا في هذا المجال كسباً كبيراً، إذ كانت حصّتهم من السوق الاقتصاديّ تفوق وزنهم الديموغرافيّ. لكنّهم ما لبثوا أن تأثّروا، كسائر اللبنانيّين، بالحرب الأهليّة وتداعياتها، ما أفقدهم الكثير من الثقل الاقتصاديّ الذي تمتّعوا به.

3. الإذاعة والصحافة والإعلام

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، فقد أظهر العديد من الموحّدين الدروز مواهب وكفاءاتٍ في الكتابة، وسيلةً للتعبير ومنبراً حرّاً يؤمّن جسر تواصلٍ مع الآخرين. فطبعوا عالم الصحافة بطابعهم الخاصّ، وأسهموا في تأسيس العديد من الصحف اليوميّة. فعلى سبيل المثال، شارك الكاتب والشاعر والصحافيّ أمين تقيّ الدين (1884-1937) في تحرير مجلّة **الزهور**، وأسهم عبدالله النجّار (1898-1976) في تأسيس مجلّتَي **القلم** (1919) في دمشق، و**المجلّة**. وحليم تقيّ الدين (1922-1984)، الأستاذ الجامعيّ السابق، والمُسمّى زمناً رئيساً لمحكمة الاستئناف العليا، قبل أن يُنتخب في مجلس أمناء المجلس الدرزيّ للبحوث والإنماء، في السنوات العشر الأخيرة من حياته، وله الكثير من المقالات في صحفٍ مختلفة. وعلى الأرجح أنّ جرأة مقالاته كان لها تأثيرٌ حاسم في اغتياله. وفي أيّامنا، مروان حماده النائب والوزير، هو في الوقت نفسه سياسيٌّ بارزٌ وكاتبٌ في جريدة **النهار** اللبنانيّة.

أبعد من الصحافة والإعلام، ساهمت بعض الشخصيّات الدرزيّة، عبر مبادراتٍ ملموسةٍ، في تطوير وسائل الإعلام والاتّصال والتواصل. ففي عام 1928، أدخل سليم عبّاس الحلبي (1902-1966) الراديو إلى بيوت اللبنانيّين عبر «راديو وستنكهاوس»[5]. وأثناء الحرب الأهليّة اللبنانيّة، وقبل أن يصبح وزيراً

---

5. في كتاب فارس ساسين ونواف سلام، لبنان: **القرن في صوَر 1900-2000**، الصادر عن دار النهار، ذكرٌ لهذه المبادرة كواحدةٍ من الأحداث المؤثّرة في تاريخ لبنان المعاصر. وقد خُصّصت لهذا الحدث صورةٌ مأخوذةٌ من إعلانٍ ظهر يومها لشركة «راديو وستنكهاوس».

للإعلام، كان غازي العريضي مسؤولاً عن الإعلام ومديراً لإذاعة صوت الجبل التي أطلقها الحزب التقدُّميّ الاشتراكيّ.

4. المجال الأكاديميّ

ملأَ المثقَّفون والكُتَّاب الموحِّدون الدروز صفحات الجرائد والمجلَّات، وأَصدروا الكتب المختلفة التي تتناول المواضيع الدرزيَّة الداخليَّة بهدف التعريف بالطائفة، كما بالقضايا والشوؤن العامَّة؛ غير أنَّ قضايا تاريخ الموحِّدين الدروز وعقائدهم تبقى الأكثر تناولاً. وتُضيء الكثير من الدراسات التاريخيَّة على هذا الواقع، نذكر منها: **الدروز: دراسةٌ جديدةٌ لتاريخهم ومعتقدهم ومجتمعهم** (بالإنكيزيَّة)، تأليف نجلا أبو عزّ الدين؛ **والتاريخ السياسيّ للموحِّدين الدروز، وتاريخ الإمارة الشهابيَّة**، تأليف عبَّاس أبو صالح، الأستاذ في الجامعة اللبنانيَّة في بيروت. كما اعتنى الكُتَّاب الدروز بالأمور العقائديَّة الدرزيَّة، ونذكر من مؤلَّفاتهم **التقمُّص** و**أصل الدروز ومعتقدهم** لأمين طليع (1911-1989)؛ **مسلك التوحيد** (بالعربيَّة والإنكليزيَّة)، **العرفان في مسلك التوحيد**[6]، **التقيَّة في الإسلام**، **لبنان في مهد الأمراء التنُّوخيِّين** لسامي مكارم، الأستاذ في جامعة بيروت الأميركيَّة ورئيس قسم الدراسات الفلسفيَّة والإسلاميَّة فيها، والمتخصِّص بالتصوُّف، وصاحب المؤلَّفات العديدة؛ **التقمُّص**، و**معجم أعلام الدروز**، بالإضافة إلى كتاب في اللغويَّات، لمحمَّد الباشا[7] (ت. 2003)، الذي انكبّ على شرح الجوانب التاريخيَّة والعقائديَّة للموحِّدين الدروز.

في مجتمع تختلط فيه الشوؤن الدينيَّة والمدنيَّة بشكل كبير، وجَّه الكُتَّاب الموحِّدون الدروز اهتمامهم نحو العلاقات بين هذين القطاعين، كما فعل أمين طليع في كتابه **مشيخة العقل والقضاء المذهبيّ الدرزيّ**، أو القاضي أحمد تقيّ الدين

---

6. أُنظر ملحق رقم 3، عن كتاب **العرفان في مسلك التوحيد** (الدرزيَّة)، لندن، مؤسَّسة التراث الدرزيَّة، 2006.

7. أُنظر ملحق رقم 8، «محمَّد خليل الباشا، المشعّ بنوره».

(ت. 1935) في كتابه القانونيّ **شرح قانون المخاتير ومجالس مشايخ القرى**. وبرز حليم تقيّ الدين[8] في كتاباته التي ركّزت على الجوانب القانونيّة والقضائيّة، ومنها **القضاء عند الموحِّدين الدروز، ماضياً وحاضراً**، و**الوصيَّة والميراث عند الموحِّدين الدروز**. أمَّا مؤلَّفه عن **قانون الأحوال الشخصيَّة عند الموحِّدين الدروز، وأوجه تباينه مع السُّنَّة والشيعة** فهو كنايةٌ عن دراسةٍ مقارنةٍ ممتازةٍ مع قوانين الأحوال الشخصيَّة لباقي المذاهب العربيَّة-الإسلاميَّة. وقد نشر الشيخ مرسل نصر، رئيس المحاكم المذهبيَّة للموحِّدين الدروز كتابه **الموحِّدون الدروز في الإسلام** ليدلّ بالبرهان على عمق انتساب الموحِّدين الدروز إلى الإسلام.

5. دعم القضيَّة العربيَّة

دعم المثقَّفون الموحِّدون الدروز القضيَّةَ العربيَّة بالكتابة عنها والتعريف بها، انطلاقاً من وعيهم لواقعهم كأقلِّيَّةٍ لها دورها وموقعها في الشرق الأوسط، وشعوراً منهم بعمق الانتماء العربيّ والمشاركة مع إخوانهم العرب. وبرز شعورهم القوميّ العربيّ منذ أواخر القرن التاسع عشر، في خضمّ النهضة العربيَّة الفكريَّة والثقافيَّة التي شهدها لبنان، ما كان له أبلغ الأثر في سياساتهم ومؤلَّفاتهم. وقد أثار أمين تقيّ الدين غضب الأتراك بكتاباته السياسيَّة، وأفلت من حُكم الإعدام والموت لَّما قرَّر اختيار المنفى طوعيّاً. وشارك عددٌ من الموحِّدين الدروز في حكومة فيصل العربيَّة الاستقلاليَّة التي ساندوها بقوَّة. نذكر منهم عبدالله النجَّار (1898-1976) الذي ترأَّس قسم الترجمة في الحكومة العربيَّة، والأمير عادل أرسلان معاون الحاكم العسكريّ. ولعب النجَّار فيما بعد دوراً مهمّاً في حلّ النـزاعات بين الموحِّدين الدروز والفرنسيِّين. ولم يتوقَّف أبداً عن الإضاءَة التأليفيَّة على الأمور القوميَّة والوطنيَّة التي تخصّ سوريا ولبنان وسائر بلدان المشرق العربيّ. ومنذ منتصف القرن العشرين، تسنَّى للحماس والوعي العربيَّين أن يُترجَما بالدعم الكامل وغير

---

8. أُنظر ملحق رقم 2، «الشيخ حليم تقيّ الدين، رجل العِلم بالتقوى والعمل بالحِلم. شهادةٌ شخصيَّة».

المشروط للقضيَّة الفلسطينيَّة. وكنَّا قد أسلفنا ذكر محمَّد سعيد مسعود المناضل في وجه الدعاية الصهيونيَّة منذ العام 1943، والمجاهد للتعريف بالقضيَّة الفلسطينيَّة في كندا. ويذكر التاريخ مثقَّفين آخرين من الموحِّدين الدروز لم يبخلوا بالغالي والرخيص في سبيل قضيَّة فلسطين، ومنهم عبدالله النجَّار مؤلِّف **الانتهاكات في الأراضي المقدَّسة** (بالإنكليزيَّة)، و**أسرار المؤامرة الصهيونيَّة**، و**إنحطاط اليهوديَّة المعاصرة**؛ وعجاج نويهض (1896-1982) من رأس المتن مؤلِّف كتاب **نفاق اليهود**[9]، و**أعلام فلسطين**، و**فتح القدس**.

6. التقارب مع الإسلام

سعى الموحِّدون الدروز، بالإضافة إلى تضامنهم العميق مع الوطن العربيّ وقضاياه، إلى تحقيق الوحدة الإسلاميَّة وتوحيد الخطاب الإسلاميّ، مع الاحتفاظ بأفضل العلاقات مع المسيحيِّين. وعمل حليم تقيّ الدين من أجل تثبيت الوحدة بين المذاهب الإسلاميَّة المختلفة، مستكملاً العمل الذي شرع فيه الشيخ محمَّد أبو شقرا. وفي عام 1983، شارك تقيّ الدين، إلى جانب مفتي الجمهوريَّة اللبنانيَّة الشيخ حسن خالد، ونائب رئيس المجلس الشيعيّ الإمام محمَّد مهدي شمس الدين، في وضع الثوابت الإسلاميَّة العشر وإعلانها، وهي الوثيقة التي أكَّدت على عروبة لبنان واستقلاله، وعلى الكيان اللبنانيّ كوطنٍ نهائيٍّ لجميع بنيه. وشارك في العام نفسه، مع مروان حمادة وعبَّاس الحلبي وغيرهما من الشخصيَّات، في صلاة عيد الفطر في الملعب البلديّ ببيروت.

في السياق عينه، لا يغيب عن بالنا الدور الكبير والتاريخيّ الذي لعبه الأمير شكيب أرسلان، وما احتوت كتاباته عن وحدة العالم الإسلاميّ والتقريب بين مذاهبه. وما زال الأمير يحظى باحترام كلّ العرب والمسلمين وتقديرهم، وخصوصاً في بلاد المغرب العربيّ حيث لعب الدور الأبرز في استنهاض العالم الإسلاميّ ومواجهة

9. الكتاب للمصلح مارتن لوثر، وقد عرَّبه نويهض.

مشاريع الاستعمار والتغريب. ويبقى كتابه **لماذا تأخَّر المسلمون وتقدَّم غيرهم؟** مَعْلَماً حضاريّاً نهضويّاً بكّر في معالجة أسباب الأزمات في العالم الإسلاميّ.

7. المجال الفنِّيّ والأدبيّ

غابت الفنون التصويريَّة تماماً عن اهتمامات الموحِّدين الدروز حتَّى نهاية القرن التاسع عشر، حين أسهم بعض الرسَّامين والفنَّانين في إثراء النهضة الفكريَّة والثقافيَّة والفنِّيَّة التي شهدها لبنان. وفي الوقت الحاضر، وبالرغم من أنَّ الموحِّدين الدروز، على غرار المسلمين كافَّةً يتركون الفنون التصويريَّة عموماً، فإنَّ بعضهم تمتَّع بشهرةٍ عالميَّةٍ في تلك المجالات. نذكر منهم خصوصاً عارف الريِّس ووهيب بتدِّيني وجميل ملاعب. وفرض بعض المبدعين الموحِّدين الدروز أنفسهم في النَّحت مثل سلوى روضة شقير.

يفضِّل الموحِّدون الدروز حتماً الموسيقى والشعر. فبالإضافة إلى شيوع هذين الفنَّين شعبيّاً، إلاَّ أنَّ العديد من أبناء الطائفة تميَّزوا في هذين الحقلَين، وتجاوزت شهرتهم نطاق الطائفة ولبنان. فمن أمير البيان شكيب أرسلان الذي انتُخب رئيساً للمجمع اللُّغويّ العربيّ في دمشق، عام 1938، إلى سميح القاسم، شاعر المقاومة القادم من الجليل، تميَّز الموحِّدون الدروز في الشعر حتَّى التألُّق. وفي مجال الموسيقى، برز كلٌّ من ديانا تقيّ الدين، عازفة البيانو ذات الشهرة العالميَّة، وفريد الأطرش (1916-1974)، المغنِّي والملحِّن وعازف العود والمخرج والممثِّل السينمائيّ، وأخته أسمهان (1917-1944) المغنِّية والممثِّلة، وجمال أبو الحسن في الموسيقى الكلاسيكيَّة الأوركستراليَّة.

أمَّا الكاتب الكبير سعيد تقيّ الدين فأبدع في مجال الرواية والقصَّة القصيرة والمقالة بأسلوبه الساخر والشخصيّ، بالإضافة إلى كونه من أعمدة المسرح اللبنانيّ، وقد نُشرت مؤلَّفاته الكاملة عام 1969. وتبقى الكاتبة والشاعرة ناديا حمادة تويني التي اكتسبت شهرةً واسعةً، وطنيّاً وإقليميّاً وعالميّاً، تخطّت الأوساط الفرنكوفونيَّة.

8. في التضامن الاجتماعيّ

سبق أن عرضنا كيف شدَّدت عقائد الموحِّدين الدروز، كما قانون الأحوال الشخصيَّة، على الوضع المميَّز للمرأة، صميم الأسرة، تاركةً لها واسع الحرِّيَّة ورحابة المساحة للتعبير عن نفسها. الأمر الذي دفع بالعديد من الكُتَّاب إلى تخصيص عددٍ من الدراسات والأبحاث لمعالجة هذا الواقع، نذكر منها المخطوط غير المنشور لأمين طليع: «دراسة حول المرأة الدرزيَّة». من هنا، لم يكن مستغرباً انخراط العديد من النساء الدرزيَّات، بدافعٍ من شعورهنَّ بالحرِّيَّة والمساواة، في النشاطات الاجتماعيَّة والإنسانيَّة. برزت في هذا المجال، وعلى وجه الخصوص، السيِّدة نظيرة زين الدين (ت. 1976)، التي أَسَّست أوَّل فيدراليَّةٍ عربيَّةٍ للمرأة، وصارت بعدها عضواً في الفيدراليَّة الدوليَّة. وكانت السيِّدة زين الدين أيضاً أوَّل مَن طالب بحقوق المرأة، لا سيَّما في ما يخصّ الحقّ في عدم لبس الحجاب؛ وهي قصدت النِّقاب وليس لباس الرأس في كلمة الحجاب. ولعب كتاباها **السفور والحجاب**، و**الفتاة والشيخ** دوراً خطيراً في تهيئة النفوس والأذهان لتحرير المرأة من العديد من القيود الاجتماعيَّة. أمَّا نجلا صعب (ت. 1971) التي شاركت في تأسيس بيت اليتيم في عبيه، وكانت لفترةٍ من الزمن رئيسة الفيدراليَّة العربيَّة للمرأة التي أَسَّستها نظيرة زين الدين، فساهمت مساهمةً كبرى في معركة استقلال لبنان. وحين قرَّرت سلطات الانتداب الفرنسيّ سجن قادة البلاد الاستقلاليِّين عام 1943، نظَّمت نجلا، على رأس الحركة النسائيَّة، مظاهرةً نسائيَّةً استمرَّت أكثر من عشرين يوماً، وجالت على كلّ السفارات الغربيَّة في لبنان. وبرزت أيضاً، زهيَّة سلمان في عملها من أجل الأمومة والطفولة. وتواصل اليوم أنيسة نجَّار حمل المشعل في الجبل، مناضلةً من أجل رِفْعة المرأة وسعادتها، وخولا أرسلان في عملها الداعم لبيت اليتيم الدرزيّ.

لا يختزل التزام الشخصيَّات النسائيَّة هذه، وانخراطها في العمل العامّ، دورَ المرأة الدرزيَّة. إذ ينبغي إلاَّ ننسى أنَّ المرأة الدرزيَّة تبقى الأمّ والزوجة والأخت والابنة، وقد أَظهرت شجاعةً أُسطوريَّةً خلال فترة الحرب الأهليَّة، بتحمُّلها شتَّى

الصعاب والآلام والنكبات عند فقدان الأحبَّة والأهل، وبدعمها أعمال الدفاع الذاتيّ عن الجبل والطائفة.

شخصيَّاتٌ تاريخيَّة

لا يسعنا في ختام هذا الفصل إلاَّ أن نطلّ بنبذةٍ مستقلَّةٍ عن بعض الشخصيَّات الدرزيَّة المدنيَّة والدينيَّة، والتي لا يمكن تجاهلها.

السيِّد جمال الدين عبدالله التنُّوخيّ (820-884 هـ. / 1417-1476 م.)[10]

عُرف السيِّد التنُّوخيّ بسماحته وحكمته، ما جعل منه مرجعاً للناس من شتَّى المناطق والاتِّجاهات والفئات، يزورونه للاستشارة والمراجعة. قام بتشييد وإعادة تشييد العديد من المساجد، وأمر بقراءة القرآن بصورةٍ دائمةٍ وصحيحةٍ، وتحريم الحرام واجتنابه، وممارسة الحلال والحضّ عليه، ناهيك عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحلِّي بالأخلاق الفاضلة والسلوكيَّات الحميدة. وخصَّص يوماً في الأسبوع لتدريس تلامذته وتنشئتهم وإعدادهم ليصيروا مبشِّرين ووعَّاظ في قراهم. وفاضت طيبته وشعَّت على كلّ مَن حوله لتشمل كلّ الطوائف الدينيَّة، إذ اعتبر جميع الناس أبناء الله. وبالرغم من أنَّ نجاحه وعلمه وصيته الحسن قد أثارت الحسد وغضب الأشقياء، فهو لم يبحث أبداً عن الوقوف في وجه حاسديه أو معارضتهم، بل اختار السفر والسياحة في بلاد الشام حتَّى ينشر حكمته ويرافق رجال القانون والعلم والمعرفة. واستمرَّ في ترحاله هذا مدَّة اثني عشر عاماً، كان خلالها موضع احترام كلّ مَن عرفه أو سمع به، وتقديرهم. وأنشأ الأمير مكتبةً عامرةً وغنيَّةً حوت 340 مخطوطة. كما وضع مؤلَّفاتٍ عدَّة، يبقى أشهرها وأهمّها الكتاب الموسوم بـ«شرح السيِّد»، ويقع في 14 مجلَّداً، و«تفسير الموسومة بكشف الحقائق».

---

10. أُنظر الملحق رقم 9، «إحياء مسلك التوحيد (الدرزيَّة) - الأمير السيِّد جمال الدين عبدالله التنُّوخي».

زين الدين عبد الغفَّار تقيّ الدين (900-965 هـ. / 1495-1558 م.)

جعلت خبرة زين الدين عبد الغفَّار تقيّ الدين، وكفاءته وهمَّته في الأمور الدينيَّة، بالإضافة إلى مستوى معرفته وحكمته وسماحته، عَلَماً كبيراً يأتي في المرتبة الثانية بعد السيِّد الأمير التَّنُوخيّ. وعُرف عن تقيّ الدين أنَّه عرض بطريقةٍ لامعةٍ نظريَّةَ وجود الإنسان المادِّيّ والعقليّ على هذه الأرض وفقاً للعقيدة التوحيديَّة، حتَّى اعتبر الموحِّدون الدروز نظريَّته تسبق وتتجاوز نظريَّات داروين ولامارك وسبنسر. ووضع تقيّ الدين **النقط والدوائر**، و**مختصر البيان في مجرى الزمان**، وشرح بعض آيات القرآن، وخصوصاً في كتابه **شرح الشهادتَين**.

الشيخ محمَّد أبي هلال المعروف بـ«الشيخ الفاضل»، (ت. 1050 هـ./ 1640 م.)[11]

عُرف بالشيخ الفاضل لمناقبه الحميدة وحُسن معاملته ونصائحه وعظاته وإحسانه ومحبَّته. سَمَت همَّتُه، وعَلَت درجته، وأخذ في الزُّهد والورع والعفاف والانفراد في الجبال والانقطاع إلى الله تعالى والاشتغال بعبادته. ثمَّ نزل الشيخ الفاضل إلى بيروت أو إحدى مدن ساحل لبنان أو دمشق، فطلب العِلْم في الفِقه والتجويد والنَّحو والحديث الشريف. من آدابه صيانة كتاب الله العزيز عن غير أهله، وإيصاله إلى أهله حسب التمييز والطاقة. ووقف على شروحات السيِّد الأمير جمال الدين عبدالله التَّنُوخيّ، ملتزماً حدودها حاضّاً على العمل بها وانتهاج نهجها. وحثَّ على القناعة والكفاف ونهى عن الإسراف والتبذير، واستحسن الرِّفْعة والإيثار بين الإخوان والرفاق والعائلة، حاذياً حذو الزُّهَّاد سُلاَّك طريق الآخرة في اختيار لبس الأزرق من الثياب دون غيره لأنَّ اللباس الأسود مخالفٌ للسُّنَّة الإسلاميَّة، وكذلك الأبيض فإنَّه لا يحتمل الوسخ والدرن. وقد شرح بعض الأحكام مثل زواج غير البالغ، والرجل الذي رمى امرأةً بمنكَر، والمرأة التي عاقت

11. عجاج نويهض، التَّنُوخيّ، بيروت، مطابع دار الصحافة، 1963.

أهلها وفَرَّت مع غريب، ووصيَّته في ألاَّ يُنعى وألاَّ يُدفن في قبرٍ مخصَّص، وتحديده مال الصَّدَقة، وماله الخاصّ، واحترامه لنسائه. ومن أبرز مؤلَّفاته **شرح الخصال، والغرر الخمس الحسان.**

فخر الدين الثاني (998-1044 هـ. / 1590-1635 م.)[12]

أحمد أمان الدين (ت. 1224 هـ. / 1809 م.)

يُعرف عن شيخ العقل الممتاز هذا أنَّه أَتَمَّ الصلح بين الأمير بشير شهاب الثاني والشيخ بشير جنبلاط. وكان الأمير بشير الشهابيّ يحترمه كثيراً ويلقِّبه بـ «الشيخ الحنون». غير أنَّ نزاعاً فرَّق بينهما وتفاقم أمره، خصوصاً وأنَّ الأمير الشهابيّ احتقر مشايخ الموحِّدين الدروز على وجه العموم. وعقب وفاة الشيخ أحمد، بحث الأمير بشير عن شيخ عقلٍ جديدٍ يمكن أن يدعمه، ووقع اختياره على الشيخ أبي حسين شبلي. وما إن علم هذا الأخير بغايات الأمير حتَّى اعتذر، بل حتَّى إنَّ بعض المصادر تشير إلى أنَّه اعتزل مشيخة العقل ليعتكف في خلوة البيَّاضة، تاركاً كلَّ أملاكه لوقف طائفة الموحِّدين الدروز.

حبوس أرسلان (1182-1239 هـ. / 1768-1824 م.)

تولَّت هذه السيِّدة الفاضلة شؤون الحكم إثر وفاة زوجها الأمير عبَّاس ابن فخر الدين. فحكمت نواحي سهل بيروت والغرب بحكمةٍ وشجاعةٍ أذهلت خصومها، وعرفت كيف تواجههم وتقارعهم، وتتعامل مع كلّ الشؤون المتعلِّقة بالحُكم والإدارة. وقد خضعت المحاكم المدنيَّة والجزائيَّة لأحكامها المباشرة. وحين سُجن الأمير بشير شهاب الثاني والشيخ بشير جنبلاط وشقيقه، قامت الستّ حبوس بإرسال كمِّيَّاتٍ كبيرةٍ من الأموال إلى الأمير واهتمَّت بعائلته. لتسافر من ثَمَّ إلى عكَّا لتُقنع الوالي أحمد باشا الجزَّار بإطلاق سراح السجناء الثلاثة مقابل

---

12. بما أنَّنا عرضنا في الفصل الثاني، لدور الأمير فخر الدين في صياغة الفكرة اللبنانيَّة، فإنَّنا نُحيل القارئ إليها.

مبلغ كبيرٍ من المال فديةً عنهم. وهكذا استطاع الأمير بشير أن يعود إلى الحُكم، إلاَّ أنَّه سرعان ما خلعه الجزَّار من جديدٍ ليُنصِّب مكانه الأميرَين الشهابيَّين حسن وسليمان. رافقت حبوس أرسلان بشير شهاب وبشير جنبلاط إلى جبل الدروز، ولم توفِّر المال في مساعدتهما. ويُحكى أنَّها واجهت في تلك المناطق غزوات البدو ضدَّ القرى الدرزيَّة، وهزمتهم. وحين عاد بشير شهاب وبشير جنبلاط إلى الحكم واصلت الستّ حبوس سياستها بتوثيق عُرى الصِّلات معهما، وخصوصاً في كلّ ما يتعلَّق بالشؤون العامَّة. أمَّا حين قام بشير الشهابيّ باستغلال دعم محمَّد علي باشا للانقلاب على بشير جنبلاط، تصدَّت له الستّ حبوس وساندت الأخير. وحين رأت استمرار المؤامرات ضدَّ الشيخ جنبلاط وأيقنت مصيرها مشابهاً لمصيره، قرَّرت الاعتكاف في بشامون عام 1823. لكنَّ الأمير الشهابيّ عمل على إهانتها، فأبعدها عن الحكم، وسمَّى مكانها ابنها الأمير أحمد أرسلان. كما حاول مصادرة ما تبقَّى من ثروتها، التي نضبت بسبب ما سَخَت به سابقاً. وتقول بعض المصادر إنَّ الأميرة حبوس توفِّيت عام 1824 م.، بسبب الألم والمعاناة والإهانات التي تعرَّض لها بها الأمير بشير، هي التي لم تبخل بالغالي والرخيص في مساعدته يوم كان بأمسّ الحاجة للعون.

خطَّار العماد (النصف الثاني من القرن التاسع عشر)

تعود شهرة خطَّار العماد إلى البطولة والشجاعة اللتين أظهرهما وهو شابٌّ صغيرٌ في صفوف الجيش العثمانيّ، وذلك إبَّان الصراع ضدَّ إبراهيم باشا. ذهب العماد إلى مصر حيث بقي هناك حتَّى عام 1840. وحين عاد إلى لبنان كان إبراهيم باشا يقاتل متراجعاً بعد هزيمةٍ كبيرةٍ مُني بها، في حين أنَّ والده محمَّد علي باشا كان ينتظره ليعطيه أكبر الأوسمة والألقاب التاريخيَّة الفضفاضة. واستولى محمَّد علي باشا على بيت الدين وجعلها مقرّاً له، وأقام فيها حكومته الجديدة، مفوِّضاً خطَّار العماد سلطةً كبيرة. فاستحال الأخير صاحب نفوذٍ قويّ، حتَّى توافرت له الكلمة الفصل في مختلف الشؤون التي كانت تعرض على الحكم الجديد في بيت الدين.

ونقل القنصل الفرنسيّ في بيروت، عن خطّار العماد، في تقرير رفعه بتاريخ 28 كانون الأوّل 1873، هذه العبارات: «لا تنسَوا أبداً أنَّ عدوَّنا الوحيد هو الحُكم التركيّ. فبسبب الأتراك وصلنا إلى الوضع الذي نحن عليه. المسيحيُّون هم خصومنا، وليسوا بأعداءٍ لنا، تقرَّبوا منهم واتَّحدوا معهم ولا تثقوا أبداً بكلمة أيّ تركيّ».

شكيب أرسلان (1286-1365 هـ. / 1869-1946 م.)

سبق أن ذكرنا كيف تصدَّر الأمير شكيب أرسلان طليعة العاملين من أجل وحدة المسلمين، ووحدة العرب، متصدِّياً للتدخُّلات الأجنبيَّة السافرة في الشرق الأوسط. كان الأمير رجل فكرٍ وقلمٍ وعملٍ وممارسة، في آنٍ معاً. وانخرط مبكراً في كلّ الحركات والنضالات العربيَّة-الإسلاميَّة. ودرس اللُّغة التركيَّة، والفقه، والتوحيد على يد كبار أساتذة عصره. سافر عام 1890، إلى مصر حيث التقى بالشيخ محمَّد عبده والزعيم سعد زغلول.

وتميَّز الأمير بأسلوبه الأدبيّ الرفيع وبلاغته وفصاحته وشعره، حتَّى سُمِّي «أمير البيان»، وانتُخِب رئيساً للمجمع العلميّ العربيّ في دمشق، عام 1938. وترك عشرات الكتب والمؤلَّفات المطبوعة، ناهيك عن المخطوطات والرسائل والمقالات الصحفيَّة. من مؤلَّفاته الشهيرة نذكر: **المسألة السوريَّة، لماذا تأخَّر المسلمون وتقدَّم غيرهم؟، تاريخ الفتوحات العربيَّة في فرنسا وسويسرا وإيطاليا والجزائر، شوقي أو صداقة أربعين سنة، تعليق على مقدِّمة ابن خلدون، حاضر العالم الإسلاميّ، الوحدة العربيَّة، سيرة ذاتيَّة**. كما ترك مخطوطاتٍ عدَّة نذكر منها: «تاريخ الجزائر»، «تاريخ لبنان»، «الفوضى الإسلاميَّة»، «النـزاع بين العلم والدين».

عادل أرسلان (1305-1373 هـ. / 1887-1954 م.)

كان الأمير عادل أرسلان عضواً في الجمعيَّة القحطانيَّة التي تأسَّست بعد انهيار جمعيَّة المنتدى العربيّ عام 1909، ثمَّ عضواً في جمعيَّة العهد. توجَّه عام

1919، إلى دمشق حيث عيَّنه الملك فيصل مساعداً للحاكم العسكريّ. غير أنَّه استقال لاحقاً ليتمَّ تعيينه فيما بعد مستشاراً سياسيّاً للإمارة. وفي عام 1920، نصح الجنرال أللّنبي الذي كان في فلسطين، الملكَ فيصل بالاستجابة لرغبة الجنرال غورو قائد القوّات الفرنسيَّة في المشرق، بعدم دخول القوّات الفرنسيَّة إلى دمشق دخول الفاتحين. غير أنَّ عدم استجابة فيصل أدَّى إلى معركة ميسلون التي انتهت بهزيمة الإمارة العربيَّة الوليدة، ما دفع بالأمير عادل إلى المغادرة فالسفر إلى أوروبّا.

إثر عودته إلى شرقيّ الأُردنّ عيَّنه الأمير عبدالله، شقيق فيصل وملك شرقيّ الأُردنّ لاحقاً، على رأس حكومته ليصير من ثَمَّ مستشاره الخاصّ. وسرعان ما اختلف الأمير عادل مع الملك الهاشميّ، فاضطُرَّ إلى اختيار المنفى الطوعيّ في الحجاز، حيث انضمَّ من هناك إلى الثورة السوريَّة الكبرى، وكُلِّف بقيادة جبهة الجولان. حُكِم عليه بالموت ثلاث مرَّات. وبعد انتهاء الثورة، عاد إلى أوروبّا ووجَّه جهوده نحو دعم القضايا العربيَّة. عام 1936، وبعد تشكيل حكومة وطنيَّةٍ في سوريا، رجع الأمير إلى دمشق ليُعيَّن سفيراً في أنقره. غير أنَّ سقوطَ الحكومة الوطنيَّة السريع أدَّى إلى اعتقاله على يد الفرنسيِّين ونفيه إلى تدمر. تبوَّأ الأمير عادل خلال تاريخه السياسيّ، مناصب كثيرةً منها وزارة المعارف (التعليم العموميّ) مرَّتين، ووزارة الخارجيَّة والمقعد النيابيّ عن الجولان في البرلمان السوريّ. وكُلِّف مرَّتين بتشكيل الحكومة السوريَّة، فرفض في المرَّتين. وانتُدِب لتمثيل سوريا في المؤتمر الدوليّ حول فلسطين الذي انعقد في لندن، ليُسمَّى من ثَمَّ رئيساً للبعثة السوريَّة في الأمم المتَّحدة. إستقال الأمير من منصبه هذا، احتجاجاً على سياسات الدول العربيَّة تجاه قضيَّة فلسطين. ولم يعد إلى وطنه لبنان إلاَّ بعد تقاعده من العمل السياسيّ. وضع الأمير مؤلَّفاتٍ كثيرةً منها مذكَّراته الخاصَّة التي نُشرت في ثلاثة أجزاء (مع جزء رابع مستدرك عن العام 1948 وضياع فلسطين) **مذكَّرات الأمير عادل أرسلان**، إلى مذكَّراته عن حسني الزعيم.

عارف نكد (1304-1395 هـ. / 1887-1975 م.)

رجلٌ وطنيٌّ وشخصيَّةٌ علميَّةٌ خلاَّقة. درس الفِقه الإسلاميّ على الشيخين عبَّاس الأزهريّ وحسن المدوَّر، ونال أيضاً دبلوماً في الحقوق. عُيِّن مديراً للتموين خلال الحرب العالميَّة الأُولى، ثمّ نَحَّاه الفرنسيُّون عن منصبه بعد احتلالهم لبنان، لأسبابٍ سياسيَّةٍ. حثَّ الموحِّدين الدروزَ في مؤتمر عيناب، على اتِّخاذ موقفٍ موحَّدٍ في مواجهة بعثة كينغ-كراين، يدعم إعلان استقلال لبنان داخل حكومة فيصل العربيَّة. انتُخب عضواً في المجمع العلميّ العربيّ في دمشق، ثمَّ عضواً مساعداً في المجمع العلميّ في العراق. من مؤلَّفاته: **العدالة في الإسلام**، و**المسألة الشرقيَّة**. ومن مخطوطاته غير المطبوعة: «حياة محمَّد»، و«الحركات اللبنانيَّة الثلاث في 1841 و1845 و1860»، و«الولايات المتَّحدة الأوروبيَّة». أمَّا على المستوى الاجتماعيّ فقد أَسَّس عارف نكد بيت اليتيم الدرزيّ في عبيه، والمدرسة التنُّوخيَّة للبنات، في عبيه أيضاً، وقام بتجديد المدرسة الداووديَّة، بالإضافة إلى خدمة الكثير من القضايا كالأوقاف الدرزيَّة.

سلطان باشا الأطرش (1308-1402 هـ. / 1891-1982 م.)

سلطان الأطرش هو قائد الثورة ضدَّ الفرنسيِّين وبطلها، تلك الثورة المعروفة باسم الثورة السوريَّة الكبرى (1925-1927). وهو المناضل الأوَّل من أجل وحدة دولة سوريا العربيَّة، يوم قسَّم الانتداب الفرنسيّ سوريا إلى دويلاتٍ طائفيَّة. وعارض السياسة الفرنسيَّة في لبنان وسوريا، مطالباً باستقلالٍ ذاتيٍّ أكبر للدروز، وبانسحاب القوَّات الفرنسيَّة. وبالطبع صَمَّت سلطاتُ الانتداب آذانها عن سماع مطالبه، في حين بدأ الاحتجاج والتمرُّد الدرزيَّان يتصاعدان شيئاً فشيئاً، إلى أن جاءت القشَّة لتقصم ظهر البعير، في حادثة اعتقال سلطات الانتداب للشيعيّ أدهم خنجر الذي كان قد لجأ إلى منـزل سلطان باشا الأطرش. سبَّبت هذه الحادثة انطلاقة الشرارة الأُولى للثورة الكبرى في جبل

الدروز، حيث انتفض الجبل بأكمله خلف أميره الذي رأى في اعتقال ضيفه انتهاكاً لقواعد الضيافة العربيَّة والدرزيَّة. وشارك سلطان باشا شخصيّاً، في المعارك التي قادها من أجل انسحاب القوَّات الأجنبيَّة وتحرير سوريا، مُظهراً شجاعةً أَضحت أُسطورةً للأجيال، وهو الذي رفض إقامة الدولة الدُّرزَيّة وانحاز لإقامة الدولة العربية السورية المستقلة.

الأمير مجيد أرسلان (1326-1403 هـ. / 1908-1983 م.)

دخل الأمير مجيد أرسلان العمل السياسيّ، ولمَّا يتجاوز بعدُ الثامنة عشرة من عمره، بعد أن عدَّل شهادة ولادته ليُقبل مرشَّحاً للانتخابات. إنتُخب نائباً عن جبل لبنان عام 1931، وأُعيد انتخابه عن المقعد نفسه حتَّى وفاته. تولَّى وزاراتٍ عدَّة، وظلَّ اسمه ملازماً على وجه الخصوص لوزارة الدفاع. وحين تعمَّدت سلطات الانتداب تهميش الموحِّدين الدروز عن أيّ تمثيلٍ في الحكومة التي عيَّنها المفوَّض السامي الفرنسيّ، أعلن الأمير مجيد معارضته لتلك الحكومة. وحين اعتقلت السلطات الفرنسيَّة رئيس الجمهوريَّة ورئيس الحكومة وعدداً من الوزراء والسياسيِّين عام 1943، اعتصم مجيد أرسلان ومعه عددٌ من الوزراء والنوَّاب والأنصار في معقله في بشامون، حيث أعلنوا استمراريَّة الشرعيَّة المُعَارِضة لسلطات الانتداب، ليصبح بطل الاستقلال الأوَّل وأحد رموزه الكبار. شارك عام 1948، بصورةٍ عمليَّةٍ وفاعلةٍ في الحرب مع الفلسطينيِّين ضدَّ القوَّات الصهيونيَّة، وخصوصاً في معركة المالكيَّة. وإبَّان حوادث 1958، عمل أرسلان على ترسيخ وحدة الموحِّدين الدروز، على الرغم من معارضته لسياسة كمال جنبلاط. وخلفه اليوم، ابنه الأمير طلال في زعامة البيت الأرسلانيّ.

محمَّد أبو شقرا (1328-1411 هـ. / 1910-1991 م.)

إنتُخب محمَّد أبو شقرا شيخ عقلٍ عام 1949. والشيخ أبو شقرا شخصيَّةٌ ساحرةٌ

موهوبة، لعبت دوراً بارزاً في تاريخ الموحِّدين الدروز المعاصر، في مرحلةٍ شديدة الخطورة والتعقيد. كان همُّه الأساس وحدة الطائفة، فاجتنب لعبة الانقسامات وصراعات الأحزاب والعشائر، ما جعله يحظى حتَّى باحترام أولئك الذين خالفوه الرأي. وتميَّز على مستويَين: الأوَّل، تجديده للخطاب الدينيّ الدرزيّ؛ والثاني، كونه رجل مؤسَّسات. لعب الشيخ أبو شقرا دوراً أساسيّاً على الصعيد الوطنيّ، في الدعوة إلى السعي لوحدة الموحِّدين الدروز والمسلمين. ودعا أيضاً إلى التعايش السلميّ بين الطوائف اللبنانيَّة، وتحديداً بين الموحِّدين الدروز والمسيحيِّين في الجبل. أُنشئت أثناء تولِّيه مشيخة العقل، المحاكمُ المذهبيَّة الدرزيَّة، وتأسَّس المجلسُ المذهبيّ الدرزيّ الذي انتخبه رئيساً له. وبادر مع عددٍ من الشخصيَّات، إلى إنشاء دار الطائفة في بيروت، بالإضافة إلى المؤسَّسة الصحِّيَّة في عين وزين التي صارت تضمّ مستشفًى، ومركزاً لرعاية المُسنِّين، ومعهداً للتمريض، وكلِّيَّةً للطبّ تابعةً للجامعة اللبنانيَّة.

توفيق عسَّاف (1333-1416 هـ. / 1915-1996 م.)[13]

رجل أعمالٍ مميَّزٌ ورجلٌ سياسيٌّ من الطراز الأوَّل. هاجر إلى فنزويلاً حيث أمضى ثلاث عشرة سنة، قبل أن يعود إلى لبنان ليؤسِّس عام 1951، فرعاً لشركة بيبسي كولا العالميَّة. فكانت أوَّل شركةٍ لبنانيَّةٍ مغفلة يؤسِّسها درزيّ. وعام 1956، أسَّس بنك بيروت والبلاد العربيَّة، وأسهم في النهضة الاقتصاديَّة اللبنانيَّة لتلك السنوات. وأسَّس شركاتٍ أُخرى، في مجالاتٍ مختلفة، مثل الصناعات البلاستيكيَّة، والتأمين، إلى خوضه مجال العقارات والإعلام، وغيرها من القطاعات. في السياسة، انتُخب نائباً عن عاليه، وكان مؤسِّساً لوزارة الصناعة والنفط. وأَسهم عسَّاف في صياغة وثيقة الطائف وإقرارها، بصفته الممثِّل الدرزيّ الوحيد في ذلك المؤتمر التاريخيّ.

13. أُنظر الملحق رقم 10، «توفيق عسَّاف رجلٌ بألف رجل».

كمال جنبلاط (1336-1397 هـ. / 1917-1977 م.)[14]

قائدٌ جماهيريٌّ وزعيمٌ سياسيٌّ لبنانيٌّ وعربيّ، بكلّ ما للكلمة من معنًى. هذا الإيديولوجيّ والسياسيّ المُحَنَّك، اعتبره البعض أفضل رجالات الفكر والسياسة والمعرفة والثقافة في المشرق العربيّ بأسره. وضع كمال جنبلاط فلسفته الخاصَّة وبلورها من توليفةٍ مختارةٍ جمعت الفكر الهنديّ إلى الفلسفة اليونانيَّة والتراث العربيّ والإسلاميّ الدرزيّ، ناهيك عن سِعَة اطّلاعه على الثقافة الغربيَّة الحديثة، وعمقه، ما انعكس في ثقافته العامَّة كما في أفكاره الثاقبة وأدبه الواسع وتهذيبه وتواضعه.

بين 1943 و 1956، تتالى انتخاب جنبلاط نائباً عن الشوف في البرلمان اللبنانيّ، وسقط عام 1957، إثر مؤامرةٍ سياسيَّةٍ. وفي العام 1949، أسَّس الحزب التقدُّميّ الاشتراكيّ وترأَّسه. كما أسَّس عام 1951، الجبهة الاشتراكيَّة الوطنيَّة التي أسقطت سلمياً حُكم الرئيس بشارة الخوري سنة 1952. أمضى جنبلاط حياته السياسيَّة في النضال ضدَّ الفساد وانحرافات السياسة اللبنانيَّة في الداخل والخارج. ودعا دوماً إلى التعاون العربيّ، معارضاً ومقاوماً الأحلاف الغربيَّة التي تمنع العرب من الانفتاح على العالم. ترأَس العديد من الهيئات الداعمة للقضيَّة الفلسطينيَّة، وقد يكون التزامه الشديد بالقضيَّة الفلسطينيَّة أحد أسباب اغتياله.

من ناحيةٍ أُخرى، مارس كمال جنبلاط الطبّ الطبيعيّ وطبّ الأعشاب مستقصياً آليَّة عمل أعضاء الجسم البشريّ. وأَسدى النصائح الصحِّيَّة المستندة إلى معالجاتٍ طبيعيَّةٍ، ودعا إلى استخدام عشب القمح في علاج الكثير من الأمراض.

نشرت لجنة تخليد تراث كمال جنبلاط فهرساً يحوي مجمل مؤلَّفاته، ومنها يتبيَّن كم هو عظيمٌ حجم مساهمته في كتابة الافتتاحيَّات والمقالات الصحفيَّة باللغتَين العربيَّة والفرنسيَّة، بالإضافة إلى الأعمال الفكريَّة والخطابات في مناسباتٍ وطنيَّةٍ وعربيَّةٍ ودوليَّة، والكلمات والبيانات داخل البرلمان، وفي مناسباتٍ سياسيَّةٍ وشعبيَّةٍ عامَّة، ناهيك عن الدراسات المتعلِّقة بالحزب التقدُّميّ الاشتراكيّ،

14. أُنظر الملحق رقم 4، «كمال جنبلاط، رجل الحوار مع الشباب. شهادةٌ شخصيَّة».

والجبهة الاشتراكيّة الوطنيّة، وغيرها من الأحزاب اللبنانيّة والعربيّة. ونشر كمال جنبلاط بعض مؤلّفاته باللّغة العربيّة والفرنسيّة، ومنها: **غاندي والعالم الجديد**، **لبنان وحرب التسوية**، **الديموقراطيّة الجديدة**، **فرح**، **المسيحيّة الاشتراكيّة**، **من أجل لبنان**. كما ترجم بعض المؤلّفات ومنها **نشيد النور**، **والحياة والنور**، لكريشنا موري، **وأن نكون أو لا نكون**، لفون روبنسكي. أمّا اليوم فيتولّى ابنه وليد رئاسة الحزب التقدميّ الاشتراكيّ، ويشار إليه بحقٍّ على أنّه زعيمٌ وطنيٌّ، استحقّ توصيف «ابن أبيه».

الفصل السابع

الدور السياسيّ من الاستقلال إلى يومنا هذا

إنخرط الموحِّدون الدروز وزعماؤهم في الحياة السياسيَّة اللبنانيَّة منذ استقلال 1943، بتميُّز وصلابة، ولو أنَّ انخراطهم أتى في سياق الوضع الدوليّ كما الأحداث التي عرفها الشرق الأوسط في تلك المرحلة. وبسببٍ من نظامه الطائفيّ، وتأثير بعض القوى الخارجيَّة على بعض طوائفه - النفوذ الفرنسيّ على الموارنة على سبيل المثال -، تبدَّى لبنان مرآةً عكست كلّ القضايا والمشاكل الشرق أوسطيَّة والدوليَّة. ووجدت كلُّ الصراعات الإسلاميَّة المسيحيَّة في أوروبَّا أو آسيا، صداها في العلاقات الإسلاميَّة المسيحيَّة في لبنان، بسببٍ من هشاشة بُنية النظام السياسيّ. فمنذ عام 1943، بدا أنَّ تاريخ لبنان عاجزٌ عن تحييد مجريات النـزاعات الدائرة بين الدول العربيَّة أو بين المحاور الإقليميَّة المختلفة. وكان لعددٍ من الأحداث الدوليَّة وقعها المدوِّي والفعَّال على لبنان.

فعام 1943، أدَّى الصراع الفرنسيّ الإنكليزيّ في الشرق الأوسط، إلى فتح أبواب الاستقلال أمام لبنان. وعام 1948، أحدث تأسيس دولة إسرائيل انقلاباً خطيراً في المشهد السياسيّ الشرق أوسطيّ، وكان له الأثر الأعمق على لبنان، لأنَّ هذا البلد الصغير الحديث الاستقلال والهشّ النظام، وجد نفسه في معمعة عاصفةٍ إقليميَّةٍ دوليَّةٍ ابتدأت بمأساة النكبة الفلسطينيَّة، واضطرار لبنان، على إثرها، لاستقبال آلاف اللاَّجئين الذين تركوا وطنهم وأرضهم بفعل الإرهاب الصهيونيّ، ما انعكس على التوازن الديموغرافيّ والسياسيّ الحسَّاس في الأصل. وعام 1956،

دخل لبنان محوراً ضمَّ المملكة العربيَّة السعوديَّة والعراق والأُردنّ، في مواجهة محورٍ بقيادة مصر عبد الناصر، ما أفرز ثورةً ضدَّ حُكم الرئيس كميل شمعون عام 1958. وأدَّت نكسة 1967، في حرب حزيران واحتلال إسرائيل لأراضٍ عربيَّة[1]، إلى بروز حركة الفدائيِّين الفلسطينيِّين وتمركزهم على الأراضي اللبنانيَّة وانطلاقهم منها. وعام 1970، خلط انقلاب الرئيس حافظ الأسد في سوريا الأوراق مجدَّداً في المنطقة، خصوصاً لجهة التوازن في الصراع العربيّ الإسرائيليّ. من هنا، وجد لبنان ذاته بين سوريا وإسرائيل، في وضعٍ شديد التعقيد والخطورة بحيث انعدمت كلّ إمكانيَّةٍ لإعادة التوازن في السلطة بين مختلف طوائفه، كما لرسم سُبُل مشاركةٍ حقيقيَّةٍ تحقِّق التوافق والاستقرار. ما لبث أن انفجر النظام اللبنانيّ وتمزَّق، وجرَّ البلاد والعباد إلى حربٍ أهليَّةٍ مدمِّرةٍ، بدأت عام 1975، واستمرَّت حوالى خمسة عشر عاماً. وانسجاماً مع إرثها التاريخيّ، حاولت طائفة الموحِّدين الدروز، وسط هذه الفتنة الأليمة، أن تلعب دوراً يحقِّق، على السواء، سيادة لبنان واستقلاله من جهةٍ، كما يحفظ المصالح العربيَّة، من جهةٍ أُخرى.

1943: الأداء السياسيّ

على الرغم من كونهم منذ القرن السابع عشر، من صانعي فكرة لبنان المستقلّ، بلغ الموحِّدون الدروز العام 1943 مستنـزَفين وضعفاء سياسيّاً. فقد أدَّت فتنتا 1841 و 1860، إلى إضعافهم أمام تقدُّم الموارنة المدعومين من فرنسا. وعملت سلطات الانتداب الأوروبيَّة على إضعاف القوَّة السياسيَّة للإسلام في الشرق الأوسط، لصالح باقي الطوائف. ففي حين وُضع العراق والأُردنّ وفلسطين تحت الانتداب البريطانيّ، أوكِل شأن لبنان وسوريا إلى الانتداب الفرنسيّ. وفي السنة عينها (1920)، أعلن المفوَّض السامي الفرنسيّ، من قصر الصنوبر في بيروت، وأمام حشدٍ من الوجهاء اللبنانيِّين من كلّ الطوائف، إنشاءَ دولة لبنان الكبير.

---

1. الضفَّة الغربيَّة وغزَّة والجولان التي لا تزال محتلَّة، وسيناء المصريَّة التي انسحب منها الاحتلال.

وعمل الفرنسيُّون على تفضيل الطوائف المسيحيَّة، والموارنة تحديداً، مانحين إيَّاها امتيازاتٍ في الجهاز الإداريّ للدولة الجديدة، على حساب بقيَّة الطوائف أيضاً. لم يكن الموحِّدون الدروز وحدهم مَن عرف الحرمان والاستضعاف، بل على مثال المسلمين كلِّهم، صاروا ضحيَّة سياسةٍ فرنسيَّةٍ ترسَّخت في دستور 1926، واستمرَّت طوال عهد الانتداب حتَّى استقلال 1943. لحظ دستور 1926 انتخاب رئيسٍ للجمهوريَّة لمدَّة ستّ سنوات غير قابلة للتجديد. وفي المرحلة الفاصلة بين الحربين العالميَّتين الأولى والثانية، سيطر على الحياة السياسيَّة اللبنانيَّة تنافسٌ بين شخصيَّتَين مارونيَّتَين تنحدران من عائلتَين عريقتَين: إميل إدّه ممثِّل الكتلة الوطنيَّة، وبشارة الخوري ممثِّل الكتلة الدستوريَّة. وفي حين التزم الأوَّل سياسةً مؤيِّدةً لفرنسا، انتهج الثاني سياسةً أكثر قرباً من الإنكليز فدعموا فكرة استقلال لبنان.

شكَّل هذا الانقسام السياسيّ اللبنانيّ استمراراً للانقسامات الإقطاعيَّة القديمة لدى الموحِّدين الدروز، وبالتالي لذلك الإرث التاريخيّ من الانقسام بين قيسيَّةٍ ويمنيَّة، وبين يزبكيَّةٍ وجنبلاطيَّة. ففي الواقع، لم يكن انقساماً طائفيّاً بقدر ما هو تنافسٌ بين حزبَين ضمَّ كلّ واحدٍ منهما فئاتٍ من كلّ الطوائف. فوقفت نظيرة جنبلاط، والدة كمال جنبلاط، إلى جانب إميل إدّه، مع حلم بالعودة إلى لبنان صغيرٍ كما في الماضي. في حين وقف مجيد أرسلان إلى جانب كتلة بشارة الخوري. وعام 1936، انتُخب إميل إدّه رئيساً للجمهوريَّة.

جاءت الحرب العالميَّة الثانية لتفتح الباب، بطريقةٍ غير مباشرة، أمام استقلال لبنان. فانقسمت فرنسا التي احتلَّتها القوَّات الألمانيَّة، بين أنصار حكومة فيشي، وأنصار فرنسا الحرَّة بقيادة الجنرال ديغول، ما جعلها تفقد المبادرة في السياسة الخارجيَّة، وخصوصاً في منطقة المشرق. وقوَّاتها المنتدبة انقسمت هي أيضاً تبعاً للانقسام الحاصل في فرنسا نفسها، فوجد الانتداب الفرنسيّ نفسه في أزمةٍ، حيث ضعفت هيبته وسيطرته على البلاد، الأمر الذي ساعد الإنكليز في سياستهم الخارجيَّة، واستفاد حلفاؤهم أيضاً على المستوى المحلِّيّ بانتخاب بشارة الخوري، من الكتلة الدستوريَّة، رئيساً للجمهوريَّة عام 1942. لم تتأخَّر حكومته الجديدة برئاسة

صديقه رياض الصلح، في إعلان استقلال لبنان وسيادته، بدعم من الإنكليز على حساب الفرنسيِّين. وأتى الدستور الجديد للبلاد يعكس الواقع التعدُّديّ الطائفيّ ويُقِرّ به ويحترمه، مرتكزاً في ذلك على ميثاق وطنيٍّ تَمَّ التوافق عليه على أساس تخلِّي المسيحيِّين عن فكرة دعم الانتداب الفرنسيّ لهم، مقابل تخلِّي المسلمين عن المطالبة بالوحدة السوريَّة أو العربيَّة. وإذا ما بُني الميثاق الوطنيّ على معادلة النفيَين، فإنَّ السيادة اللبنانيَّة لم تتأمَّن نظريّاً إلاَّ بموافقة الطوائف في الجانبَين. وقد عبَّر الصحفيّ جورج نقَّاش عن شكوكه في ثبات معادلة مماثلة في مقالة له في جريدة الأوريان، قال فيها «إنَّ نفيَين لا يصنعان وطناً»، غير أنَّ هذا الميثاق الوطنيّ أمَّن سيادة لبنان، ولم يتعرَّض لاهتزاز حتَّى العام 1975.

لحظ الدستور الجديد في المادَّة 95، توزُّع مقاعد الحكومة ومجلس النوَّاب على أساس طائفيٍّ، تبعاً للوزن العدديّ لكلّ طائفة. وتوافق اللبنانيُّون منذها، عُرْفاً، على أن تُناط رئاسة الجمهوريَّة بالموارنة، ورئاسة الحكومة بالسُّنَّة، ورئاسة مجلس النوَّاب بالشيعة. وهكذا، بدا الموحِّدون الدروز منسيِّين في هذا التوزيع الدستوريّ، على الرغم من دورهم التاريخيّ المعروف والمعترف به في تحقيق الفكرة اللبنانيَّة واستقلال لبنان. وفي نظر كمال جنبلاط، وجب أن يمثِّل لبنان الكبير استمراراً للإمارة، وليس لبروتوكولات 1864، التي أدَّت إلى زوال الإقطاع رسميّاً. فخاب أمل جنبلاط في دستورٍ جديدٍ يطبع لبنان طائفيّاً بأرجحيَّةٍ مسيحيَّة. ولمَّا وجد الفرنسيُّون أنَّ بعض بنود الدستور تناقض مصالحهم، رفضوا الاعتراف باستقلال لبنان. فقام المفوَّض السامي، في 11 تشرين الثاني 1943، باعتقال بشارة الخوري، ورئيس وزرائه رياض الصلح، وعددٍ من الوزراء والنوَّاب والمسؤولين، وسجنهم في قلعة راشيَّا. ثمَّ أوقف العمل بالدستور الجديد وعيَّن إميل إدّه رئيساً للدولة. على إثر هذا الانقلاب الخطير، عَمَّت موجةٌ عارمةٌ من السُّخط والاحتجاج الشعبيَّين لبنانَ بأسره، فقامت مظاهراتٌ واندلعت صداماتٌ عنيفةٌ في كلّ المدن، وخصوصاً بيروت، في حين لجأ أعضاء الحكومة الذين نجوا من الاعتقال إلى بشامون، وأعلنوا حكومةً مؤقَّتةً بقيادة مجيد أرسلان. وأمام عمق واتِّساع موجة

المعارضة والاحتجاج اضطُرَّ الفرنسيُّون للرضوخ لمطالب الاستقلاليِّين، فأَطلقوا سراح أعضاء الحكومة، واعترفوا باستقلال لبنان في 22 تشرين الثاني 1943.

الموحِّدون الدروز في الحياة السياسيَّة اللبنانيَّة (1943-1975)

لا يمكن مقاربة الدور السياسيّ لطائفة الموحِّدين الدروز بمعزلٍ عن دور زعيمها الأبرز الشهيد كمال جنبلاط. فجنبلاط زعيمٌ رفيع المستوى على صعيد النشاط السياسيّ كما على صعيد الفكر والثقافة، ما سمح للموحِّدين الدروز باستعادة دورٍ سياسيٍّ متميِّز في الشؤون اللبنانيَّة، كما في الإطارَين العربيّ والدوليّ. بيد أنَّه ينبغي ألاَّ ننسى في السياق عينه، دور زعماء الموحِّدين الدروز الآخرين، سياسيِّين وروحيِّين، في مواجهة استحقاقات تلك المرحلة الدقيقة والخطيرة، أو دور المجتمع المدنيّ الدرزيّ الذي أظهر حيويَّةً ونشاطاً بارزَيْن في تلك الحقبة.

حمل إنشاء دولة إسرائيل عام 1948، في طيَّاته، بذورَ العاصفة التي اجتاحت الشرق الأوسط، وتسبَّبت لاحقاً بأحداثٍ خطيرةٍ في لبنان. ظهر كمال جنبلاط، في بداية الأمر، ميّالاً إلى القبول بقرارات الأُمم المتَّحدة المتعلِّقة بتقسيم فلسطين دولتَين مستقلَّتَين، واحدةً لليهود وأُخرى للعرب. ورأى في قرار التقسيم حلاً مؤقَّتاً أو انتقاليّاً يسمح للفلسطينيِّين بالاستفادة من إقامة دولتهم كقاعدة لاستكمال النضال ضدَّ الاحتلال الصهيونيّ وتحرير أراضيهم بأنفسهم. واعتبر أيضاً، أنَّ قرار التقسيم سيسمح على الأقلّ بوقف موجة النزوح واللجوء الفلسطينيّ، وخصوصاً إلى لبنان، بعد أن صارت قضيَّة اللاَّجئين قضيةً إنسانيَّةً مقلقةً نتيجة حياة البؤس والتشرُّد في المخيَّمات التي استقبلتهم، وما زالت قائمةً حتَّى يومنا هذا.

تأثَّر جنبلاط خلال دراسته في فرنسا بالتيَّارات الاشتراكيَّة واليساريَّة، الأمر الذي جعله يؤسِّس في العام 1949، الحزبَ التقدُّميّ الاشتراكيّ، على قاعدة فلسفة الاشتراكيَّة الأكثر إنسانيَّةً من الماركسيَّة الرسميَّة، والأقرب إلى التحقُّق في الوضع العربيّ واللبنانيّ. وأراد جنبلاط الخروج من أَسْر السياسات والانقسامات الطائفيَّة وقيود العشائريَّة، ناهيك عن إرث الإقطاع العائليّ والمحلِّيّ، إلى رحاب الإنسان

وقضاياه، طامحاً إلى استقطاب المناضلين من كلّ الطوائف والمناطق. وقد لعب الحزب دوراً بارزاً في الحياة السياسيَّة اللبنانيَّة، وتسنَّى له، إلى جانب غيره من الأحزاب كالقوميّ والشيوعيّ، أن يستفيد من الروح الليبراليَّة الغالبة لدى الموحِّدين الدروز، ليُطلق حركةً ثقافيَّةً وسياسيَّةً تتكيَّف مع الإيديولوجيَّات الأمميَّة والقوميَّة.

وشهد لبنان في أواخر الأربعينيَّات، تفاقماً في المشاحنات السياسيَّة والنزاعات بين الطوائف والعائلات الكبرى. فعمد بشارة الخوري إلى تزوير الانتخابات في أيَّار 1947، ليأتي بمجلس نيابيٍّ مؤيِّد له، ما يسمح بتعديل الدستور بهدف تمديد عهده، بدءاً من عام 1948، خلافاً للأُصول الدستوريَّة والأعراف السياسيَّة اللبنانيَّة. وقامت معارضةٌ لحُكمه في عهده الثاني، بدعم شخصيَّاتٍ بارزةٍ من مختلف الاتِّجاهات والطوائف والمناطق، وبقيادة كمال جنبلاط وبيار إميل إدّه وكميل شمعون وغسَّان تويني. وأدَّت الثورة البيضاء في تلك الأيَّام، إلى استقالة بشارة الخوري قبل انتهاء عهده الممدَّد، وإلى إجراء انتخاباتٍ نيابيَّةٍ عام 1952، وانتخاب كميل شمعون رئيساً للجمهوريَّة.

رأس كمال جنبلاط الجبهة الوطنيَّة الاشتراكيَّة التي تشكَّلت لخوض الصراع ضدَّ حكم بشارة الخوري حتَّى أَسقطته. وأضحى مجيد أرسلان الحليف الرئيسيّ للرئيس الجديد كميل شمعون. وعلى الرغم من أنَّ عهد شمعون شهد نهضةً اقتصاديَّةً واستقراراً أمنيّاً وازدهاراً في شتَّى الميادين، إلاَّ أنَّ قطاعاتٍ واسعةً من شرائح المجتمع اللبنانيّ أَعْلَت صوتها ضدَّ كميل شمعون، خصوصاً لجهة قساوته في التعامل مع بقيَّة الزعماء السياسيِّين في البلاد. وبنتيجة ذلك، عمد كمال جنبلاط الذي دعمه في البداية، إلى فكِّ التحالف معه، قبل أيّ زعيم آخر. إلاَّ أنَّ ما عجَّل باندلاع الصراع المسلَّح في البلاد أَنتجته سياسة شمعون الخارجيَّة، وخصوصاً انضمامه إلى حلف بغداد الذي أنشأته أميركا من العراق وإيران وتركيا، بغية الوقوف في وجه عبد الناصر بطل القوميَّة العربيَّة وصديق الاتِّحاد السوفياتيّ في الشرق الأوسط. وتلازمت الأحلاف الغربيَّة والأميركيَّة الباحثة عن سُبُل منع امتداد النفوذ السوفياتيّ في المنطقة، مع سياسة العداء للقوميَّة العربيَّة والنموّ الاقتصاديّ

للبلدان العربيَّة التي حمل عبد الناصر لواءَها. ما أَدَّى إلى انقسام عميق في الطبقة السياسيَّة اللبنانيَّة حيال الموقف من مصر الناصريَّة وسياساتها العرّبيَّة. ومع تصاعد النفوذ الأميركيّ على حساب النفوذَين الفرنسيّ والبريطانيّ، بعد العدوان الثلاثيّ على مصر عام 1956، تراءَت لكميل شمعون مصلحة لبنان في تأييد الأميركيِّين. في حين ظلَّ كمال جنبلاط وفيّاً لمنطق القوميَّة العربيَّة والتزاماتها، وخصوصاً في جوّ الاصطفاف الإسلاميّ الواسع خلف عبد الناصر. وفي انتخابات 1957، حاول الرئيس كميل شمعون أيضاً، تعديل الدستور والتمديد لعهده، فواجه معارضةً واسعةً تحوَّلت مسلَّحةً على خلاف المعارضة السلميَّة في ثورة عام 1952 البيضاء. واندلعت ثورة 1958 على يد القوميِّين العرب اللبنانيِّين المدعومين من عبد الناصر، وشارك الموحِّدون الدروز فيها بقوَّةٍ وفاعليَّةٍ انطلاقاً من تراثهم في الحفاظ على عروبة لبنان. وعلى الرغم من التدخُّل الأميركيّ على شواطىء لبنان، انتهى عهد شمعون في وقته المحدَّد، وانتخب مجلسُ النوَّاب قائدَ الجيش فؤاد شهاب رئيساً جديداً، في أيلول 1958.

عمل الرئيس شهاب على تحديث جهاز الدولة وتجديد مؤسَّساتها، مركِّزاً على البناء والتطوير لتحقيق الازدهار للبنان. وعرف عهده تحديثاً كبيراً في الإدارة والعدل والأمن الداخليّ، وتجديدَ بناء المؤسَّسات المختلفة، والسهر على احترام الفصل الحقيقيّ للسلطات. حاول شهاب كسب ولاء الطوائف عبر الحفاظ على التوازنات الدقيقة، وتأمين التوافق فيما بينها من خلال احترام الميثاق الوطنيّ من ناحية، كما من خلال تركيز حكوماته على دعامتَين من دعامات السياسة اللبنانيَّة: الكتائبيّ المارونيّ بيار الجميِّل، والدرزيّ الاشتراكيّ كمال جنبلاط. فأيَّد هذا الأخير الشهابيَّة بحماسةٍ واندفاع، كما كسب موقعاً عربيّاً ودوليّاً مميَّزاً بفعل وقوفه إلى جانب عبدالناصر والسوفيات، وقيادته لثورة 1958. هذا كلُّه جعله زعيماً وطنيّاً وإسلاميّاً، وليس فقط درزيّاً.

وعام 1964، خلف شارل حلو فؤاد شهاب في الرئاسة ليواصل نهجه وسياسته. وعلى الرغم من كفاءاته وقدراته الثقافيَّة إلاَّ أنَّه كان أضعف على المستوى السياسيّ.

فشهد عهده سيطرة الأجهزة الأمنيَّة وتدخُّلها في الشؤون السياسيَّة الداخليَّة، الأمر الذي أساء إلى إنجازات شهاب قبل أن يُنهيها.

عام 1967، عاد الوضع الإقليميّ والدوليّ ليضغط بثقله على لبنان، بعد أن أدَّت حرب الأيَّام الستَّة ونكسة الخامس من حزيران إلى هزيمةٍ قاسيةٍ لمصر، واحتلال إسرائيل لسيناء وغزَّة والضفَّة الغربيَّة وهضبة الجولان. تلا ذلك استقالة عبد الناصر، ثمَّ رجوعه عن الاستقالة بفعل المظاهرات الشعبيَّة الضخمة التي عمَّت العالم العربيّ، ولبنان من ضمنه. هذا التقدُّم الإسرائيليّ السريع، وتلك الهزيمة العربيَّة السهلة شكّلا عامل اختلالٍ واضطرابٍ للشرق الأوسط. ومن أبرز نتائج نكسة حزيران انطلاقة المقاومة الفلسطينيَّة المسلَّحة، بعد أن قرَّر الفلسطينيُّون الاضطلاع باسترداد حقوقهم بأنفسهم. فتحوَّل لبنان قاعدةً أساسيَّةً للفدائيِّين، انطلقوا من أراضيه لتنفيذ عمليَّاتهم. وكوَّن استمرار تدفُّق اللاَّجئين إلى لبنان من الأراضي المحتلَّة حديثاً، وتزايد أعدادهم، وتصاعد الوجود الفلسطينيّ المسلَّح على أرض لبنان، عامل انقسامٍ جديدٍ في الطبقة السياسيَّة اللبنانيَّة، أُضيف إلى العوامل الأخرى الملتهبة، ما زاد من اشتعال الأزمة. وفي حين وجد الفلسطينيُّون في لبنان دعماً من اليسار وغالبيَّة الطوائف الإسلاميَّة والدرزيَّة، جُوبهوا بعدائيَّةٍ في الوسط المسيحيّ، كما عند بعض الموحِّدين الدروز، خصوصاً في ما يتعلَّق بالوجود المسلَّح. واندلعت الاشتباكات بين الفدائيِّين الفلسطينيِّين من جهة، والجيش اللبنانيّ والأحزاب المارونيَّة، من جهةٍ أُخرى. واستمرَّت الأزمة تتصاعد بشكلٍ خطيرٍ، طارحةً مسألة الوجود الفلسطينيّ المسلَّح وانتشاره خارج المخيَّمات قضيَّةً تتعلَّق بالسيادة الوطنيَّة اللبنانيَّة، ومعنويَّات الجيش والأمن الداخليّ اللبنانيّ على السواء، الأمر الذي تحوَّل مع الوقت إلى نزاعٍ مكشوفٍ قُدِّر له أن يشكِّل بداية الكارثة اللبنانيَّة فيما بعد. ثمَّ جاء اتِّفاق القاهرة عام 1969[2]، ليضع حلاً لهذه المشكلة.

---

2. إتِّفاق القاهرة هو بروتوكولٌ بين الحكومة اللبنانيَّة والفلسطينيِّين، يُسمح بموجبه، لهؤلاء بحمل السلاح في مناطق حدَّدها الاتِّفاق، الذي رعاه الرئيس جمال عبد الناصر شخصيّاً عشيَّة وفاته.

غير أنَّ الأمور لم تتوقَّف عند هذا الحدّ، إذ تبيَّن لاحقاً أنَّ الاتِّفاق المذكور، والذي عارضه ريمون إدّه بشجاعة، هو خطأٌ جسيمٌ على حساب لبنان وأمنه واستقراره، لأنَّه جعل من منظَّمة التحرير الفلسطينيَّة دولةً داخل الدولة. ولم يعد لبنان بعد ذلك قادراً على ضبط أعمال الفدائيِّين من أراضيه أو مراقبتها، وتحوَّل الوجود الفلسطينيّ المسلَّح مشكلةً خطيرة، وضعت لبنان في مأزق تجاه إسرائيل، في مجابهة تفوق قدراته وإمكاناته. وحصل أن تشكَّلت حكومةٌ جديدةٌ على إثر توقيع اتِّفاق القاهرة، وطُلب من كمال جنبلاط أن يتولَّى فيها حقيبة الداخليَّة، كونه الوحيد القادر على تحقيق الأمن الداخليّ في تلك الأيَّام، وعلى إقناع الفدائيِّين بعدم تعكيره أو الإساءة إليه، نظراً إلى تحالفه مع الفلسطينيِّين وعلاقاته العربيَّة والدوليَّة. نجح جنبلاط في حمل هذه المسؤوليَّة، وفي حفظ لبنان والثورة الفلسطينيَّة في آنٍ معاً. ومع نهاية عهد الرئيس حلو، انتُخب ابن زغرتا الشماليَّة سليمان فرنجيّة، عام 1970، رئيساً جديداً للجمهوريَّة، ليكون أوَّل رئيس مارونيٍّ يأتي من خارج جبل لبنان. وتميَّز الرئيس فرنجيّة بكونه شخصيَّةً تنتمي إلى الزعماء الإقطاعيِّين، والفرسان النبلاء، والزعماء الطائفيِّين، أكثر منه رئيس جمهوريَّةٍ على رأس دولةٍ تسير في طريق التحديث. وهو لم يَفُز في الرئاسة، في وجه المرشَّح الشهابيّ سوى بفارق صوتٍ واحد (50 صوتاً مقابل 49). وعكست هذه النتيجة عمق الانقسام الذي عاشته البلاد في تلك الآونة. وحظي فرنجيّة بدعم كمال جنبلاط مقابل وعودٍ بتحقيق عددٍ من المطالب لم ينفَّذ منها شيءٌ خلال عهده.

شكّلت سنة انتخاب فرنجيّة (1970) سنة التغيير السياسيّ الأساسيّ الذي جاء بالرئيس حافظ الأسد إلى السلطة في سوريا. والأسد هو صاحب الفضل في سياسة النفوذ السوريّ في لبنان، إذ رأى فيها دفاعاً عن هويَّة لبنان العربيَّة في وجه التدخُّل الإسرائيليّ في الشؤون اللبنانيَّة، والعلاقات التي نسجها بعض السياسيِّين المسيحيِّين مع الكيان الصهيونيّ. وقد دفع السوريُّون، في مرحلةٍ أُولى، بالطبقة السياسيَّة اللبنانيَّة لجهة تشكيل هيئةٍ للحوار الوطنيّ هدفها تخفيف حدَّة التوتُّرات الطائفيَّة وتحصين الميثاق الوطنيّ. وتمثَّل الموحِّدون الدروز في تلك الهيئة

بكمال جنبلاط ومجيد أرسلان. في تلك الأيّام، سيطر الموارنة على جهاز الدولة وتعزَّزت مواقعهم بفعل الإمساك بالجيش ووجود ميليشيات مسلَّحة لأحزابهم. فشعر المسلمون بالتهميش والاستبعاد عن المشاركة في الحُكم، ورأوا في الوجود الفلسطينيّ وسيلةً لإعادة التوازن في السلطات داخل البلاد.

الموحِّدون الدروز إبَّان الحرب الأهليَّة (1975-1989)

بلغ التوتُّر أقصاه في لبنان حين انطلقت، في 13 نيسان 1975، الشرارة التي أَشعلت الحرب الأهليَّة بعد اشتباكٍ بين فلسطينيِّين وكتائبيِّين أَوقع حوالى 30 قتيلاً في صفوف الفلسطينيِّين، في ما عُرف بحادثة البوسطة الشهيرة في عين الرمّانة. وبالرغم من أنَّ البلاد اشتعلت بالمعارك المتنقِّلة، إلاَّ أنَّ أحداً لم يتوقَّع استمرار النـزاع خمس عشرة سنة. تشكَّلت جبهتان في الحرب: ضمَّت الأُولى تحالف أحزاب «اليمين» ذات الغالبيَّة المارونيَّة والمعارضة للوجود الفلسطينيّ؛ والجبهة الثانية «اليسار»، تكوَّنت من الطوائف الإسلاميَّة السُّنِّيَّة والشيعيَّة وطائفة الموحِّدين الدروز والقوّات الفلسطينيَّة التي شكَّلت القوَّة المسلَّحة لهذه الجبهة، إلى جانب ميليشيا حركة أمل الشيعيَّة. غير أنَّ المسيحيِّين الذين سيطروا على الحكم وتفوَّقوا عسكريّاً واستعدُّوا للمواجهة، امتلكوا أَرجحيَّتَين أساسيَّتَين عنينا الأرجحيَّة السياسيَّة والأرجحيَّة الميدانيَّة.

أمَّا كمال جنبلاط فظلَّ يمثِّل نصف البلاد على المستوى السياسيّ، إذ قاد، إضافةً إلى طائفة الموحِّدين الدروز، معظم المسلمين، ناهيك عن تحالفه المتين مع الفلسطينيِّين، ومن خلالهم مع الدول العربيَّة، والدول الشرقيَّة (الاشتراكيَّة)، دون أن ننسى المسيحيِّين التقدُّميِّين واليساريِّين وغيرهم ممَّن التفُّوا حوله أيضاً. همَّشت هذه الوضعيَّة السياسيَّة المميَّزة الناشئة عن الحرب الأهليَّة إلى حدٍّ كبير، بقيَّة الزعامات الدرزيَّة طوال فترة الحرب. ذلك أنَّ الموحِّدين الدروز لَبَّوا نداء الشعور بالخطر على الجماعة والهوِيَّة فالتفُّوا حول زعيمٍ وحيد، كمال جنبلاط في مرحلةٍ أولى، وبعد اغتياله حول ابنه وليد.

ومع اتِّساع الصراع وتصاعد خطورته شعر كمال جنبلاط بضرورة إنقاذ التعايش بين الموحِّدين الدُّروز والمسيحيِّين في الجبل. وكان التاريخ القريب والبعيد ماثلاً أمام الجميع، يذكِّرهم بالمجازر المتبادلة بين الطائفتين خلال القرن التاسع عشر، كما بإرث التعايش الثمين، ما يستدعي تضافر جهود الجميع لحفظه وإنقاذه. وأدرك جنبلاط أنَّ الأرجحيَّة المارونيَّة في الحُكم لا تبرِّر حرباً أهليَّةً قد تمتدّ إلى قلب الجبل. فعمل على حفظ السلم لفترةٍ من الزمن قبل أن يُضطرَّ لأن يطلب من الرئيس حافظ الأسد التدخُّل لدعم تحالف اليسار والفلسطينيِّين في وجه المسيحيِّين، وعادت الأيَّام لتُثبت المشروع السوريّ لإرساء هيمنته على لبنان. فتورَّط السوريُّون بصورةٍ غير مباشرةٍ في هذا الصراع، من خلال قوَّات الصاعقة الفلسطينيَّة الموالية لهم، والتي قاتلت إلى جانب التحالف اليساريّ الفلسطينيّ، في حين وجدت فئةٌ من الطرف المسيحيّ في إسرائيل حليفاً موثوقاً، إلى أن حدثت متغيِّراتٌ كثيرةٌ جعلت كمال جنبلاط يغيِّر من سلوكه السياسيّ.

ونشب خلافٌ بينه وبين السوريِّين حين طلب منهم عدم التدخُّل في الشؤون الداخليَّة اللبنانيَّة، وعدم دعم المرشَّح الشهابيّ الياس سركيس للانتخابات الرئاسيَّة عام 1976 من ناحية، وحين اضطُرَّ إلى إدخال الموحِّدين الدروز طرفاً في الصراع حتَّى لا يقال إنَّه يحاول تجنيب طائفته أثمان صراعٍ هو قائده ومحرِّكه، على حساب بقيَّة المسلمين، من ناحيةٍ أُخرى. وحصلت القطيعة بين جنبلاط وسوريا حين قرَّرت هذه الأخيرة التدخُّل المباشر، وعلى المستوى العسكريّ، إلى جانب الموارنة. وقد تعدَّدت التحليلات والتكهُّنات حول أسباب هذا الموقف السوريّ، بحيث إنَّه يصعب التحديد إن كانت سوريا قد تدخَّلت تلبيةً لطلب هذه أو تلك من الفئات اللبنانيَّة المتصارعة، أم أنَّها فعلت ذلك بمبادرةٍ واعيةٍ تهدف إلى حماية المصالح السوريَّة في لبنان والمنطقة. وفي كلّ الأحوال، وعى الرئيس الأسد أنَّ استمرار الأوضاع على ما هي عليه، سيؤدِّي إلى انفجار لبنان وتقسيمه، وإلى تدخُّلٍ إسرائيليٍّ أوسع في شؤونه.

عارض الفلسطينيُّون والحركة الوطنيَّة اللبنانيَّة برئاسة كمال جنبلاط التدخُّل

العسكريّ السوريّ ودخول القوّات السوريَّة لبنان في حزيران 1976. وحاول الموحِّدون الدروز التصدِّي لهذا التدخُّل ميدانيّاً، في حين وجَّه كمال جنبلاط نداءً إلى العالم العربيّ دعاهم فيه إلى إيقاف التدخُّل السوريّ في الشؤون اللبنانيَّة، دون أن يلقى جواباً حازماً، بما أنَّ سوريا حسمت أمرها في التدخُّل ولن تعود عن قرارها. وحاولت قمَّتان عربيَّتان في الرياض والقاهرة، وضع حدٍّ للحرب في لبنان، إلاَّ أنَّ جنبلاط رفض قراراتهما معتبراً أنَّ سوريا لن تنفِّذ منها شيئاً، ولن تتخلَّى عن تحرُّكها داخل لبنان. وبسبب معارضته العنيفة، نصحه البعض بمغادرة لبنان، فأبى بحزم مؤكِّداً أنَّ معارضته للسوريِّين لا تعني أبداً رفضاً للوجود العربيّ في لبنان، أكانَ سوريّاً أم فلسطينيّاً، بل معارضته هي رفضٌ للوصاية الخارجيَّة على البلاد. وقد اعترف الرئيس الأسد، بعد انتهاء الحرب اللبنانيَّة، بأنَّ كمال جنبلاط الذي اطَّلع بعمق على مجريات السياسات اللبنانيَّة الداخليَّة، عرف مسبقاً وبعكس سوريا، أنَّ إسرائيل تستخدم المسيحيِّين وتدفعهم لأخذ موقفٍ مُعادٍ للوجود السوريّ.

إغتيل كمال جنبلاط في 16 آذار 1977، بالتأكيد بسبب من مواقفه في الدفاع عن السيادة اللبنانيَّة. وتولَّى ابنه وليد زعامة الطائفة ورئاسة الحزب التقدّمي الاشتراكيّ من بعده، فألبسه شيخ العقل الشيخ محمَّد أبو شقرا، أثناء جنازة والده، عباءة وراثة الزعامة وفقاً للتقاليد الإقطاعيَّة.

بعدها زاد شعور اللبنانيِّين بأنَّهم يفقدون بلدهم، كلَّما توسَّع الفلسطينيُّون في سيطرتهم على مناطق لبنانيَّة. وما عاد الوجود الفلسطينيّ المسلَّح يزعج المسيحيِّين وحدهم، بل بات مزعجاً أيضاً للطوائف الإسلاميَّة. فنشبت اشتباكاتٌ متفرِّقةٌ بين الشيعة والفلسطينيِّين، خصوصاً في الجنوب وضاحية بيروت الجنوبيَّة.

وعام 1982، قرَّر الإسرائيليُّون التدخُّل مباشرةً في لبنان، بعد أن اتَّسع نطاق الوجود الفلسطينيّ، وتعاظمت قوَّته، وأصبح يمثِّل خطراً كبيراً يستوجب بالتالي تدمير القاعدة الأساسيَّة لمنظَّمة التحرير الفلسطينيَّة في لبنان. وهكذا اجتاح الإسرائيليُّون جنوبيّ لبنان خلال أيَّام قليلة، ووصلوا عبر الشوف إلى مشارف بيروت وفرضوا عليها حصاراً قاسياً. فاتُّهم الموحِّدون الدروز بأنَّهم لم يقاوموا

التقدُّم الإسرائيليّ داخل مناطقهم، علماً بأنَّهم ما كانوا ليستطيعوا ذلك نظراً إلى عدم امتلاكهم أدنى قوَّةٍ تسمح لهم بمواجهة تقدُّم أحد أقوى الجيوش في العالم وأحدثها، دون أن يؤدِّي عملهم إلى مجزرةٍ وإبادةٍ للطائفة القليلة العدد. وقامت القوَّات الإسرائيليَّة بمحاصرة وليد جنبلاط في المختارة، ومنعته من الوصول إلى منزله في بيروت. في الوقت الذي أصدرت فيه ثلاث شخصيَّات درزيَّة بياناً من منزل جنبلاط في بيروت، تدعو فيه إلى إطلاق حرِّيَّة حركته وانسحاب قوَّات الاحتلال الإسرائيليّ من الجبل، وهي: حليم تقيّ الدين ومروان حمادة وعبَّاس الحلبي. لم يتمكن جنبلاط من مغادرة المختارة، إلاَّ بعد التوصُّل إلى تفاهمٍ مع السفير الأميركيّ في بيروت روبرت ديلون.

في المقابل، شارك الموارنة بقيادة بيار الجميِّل وابنه بشير في حصار بيروت بهدف طرد الفلسطينيِّين منها. بإزاء هذا الضغط العنيف، وبغية حماية المدنيِّين وإنقاذ البلد من الانفجار، حاولت بعض القيادات اللبنانيَّة إقناع الفلسطينيِّين بالانسحاب من لبنان. فوافق ياسر عرفات في النهاية، وغادر وقوَّاته لبنان إلى تونس. من ثَمَّ انسحبت القوَّات الإسرائيليَّة من بيروت لتتمركز في أجزاء واسعةٍ من الجنوب.

بعدها، بدأ الاحتكاك المارونيّ الدرزيّ في الجبل، إذ سمحت القوَّات الإسرائيليَّة المحتلَّة للموارنة بالاحتفاظ بميليشياتهم المسلَّحة، وإقامة حواجز بين القرى الدرزيَّة، وفي داخلها. وقد طمح الموارنة إلى السيطرة على جبل لبنان الأوسط، ولو كلَّف ذلك طرد الموحِّدين الدروز منه؛ وهؤلاء يعتبرون تلك المنطقة موطنهم التاريخيّ. وحصلت حينها مبادراتٌ شعبيَّةٌ عدَّة بهدف منع نشوب نزاعٍ مسلَّح بين الطرفَين، نذكر منها على سبيل المثال ما قام به المكتب الدائم للمؤسَّسات الدرزيَّة الذي يضمّ ممثِّلين عن كلّ مؤسَّسات الطائفة، فوضع خطَّة تحرُّكٍ باشرها بتنظيم مسيرةٍ إلى بيروت ضمَّت مئات الشخصيَّات، توجَّهت من بيت الطائفة في فردان إلى مقرّ رئاسة الوزراء في الصنائع للمطالبة بدخول الجيش اللبنانيّ إلى مناطق التوتُّر بين الموحِّدين الدروز والموارنة، وتهدئة الخواطر عبر انتشاره القويّ في مناطق الجبل.

وما إن انسحبت إسرائيل من الجبل حتَّى انتفض الموحِّدون الدروز، واندلعت حربٌ أهليَّةٌ ثانيةٌ عُرفت باسم «حرب الجبل»، في أيلول 1983. وقد حملت آثاراً كارثيَّةً ومدمِّرةً للتعايش بين الطائفتين، هذا التعايش العزيز على قلب كمال جنبلاط، والمبنيّ خيطاً خيطاً بصبرٍ وأناةٍ من الطرفين، على مدى قرونٍ طويلةٍ بالرغم من الخلافات والشقاقات والنـزاعات العَرَضيَّة. فسقطت في يومٍ واحدٍ، حوالى سبعين قريةً مسيحيَّةً في أيدي الموحِّدين الدروز، وقُتل أهاليها أوْ أُجبروا على الفرار في هجرةٍ كثيفة، ما أفرغ الجبل تماماً من المسيحيِّين، وشكَّل ما عُرف بقضيَّة المهجَّرين من الجبل. وما لبثت أن قامت محاولتان لإقامة حوارٍ وطنيٍّ بغيةَ وضع حدٍّ للحرب الأهليَّة، في لوزان وجنيف في سويسرا، لم ينتج عنهما أيّ توافقٍ أو مشروع حلّ.

واستمرَّت الأوضاع في التدهور، وخصوصاً داخل الصفّ المسيحيّ الذي شهد خلافاتٍ وصراعاتٍ مسلَّحةً بين جماعاتٍ وتيَّاراتٍ استنـزفت الجميع، إلى أن أتى اتِّفاق الطائف عام 1989، علامةً فارقةً بين مرحلتين، واضعاً حدّاً لمرحلة الاقتتال والنـزاعات المسلَّحة، ومؤسِّساً لمرحلة السلم الأهليّ والتوافق. في الطائف، قام النوَّاب اللبنانيُّون، برعايةٍ سوريَّةٍ سعوديَّةٍ، ودعم كبيرٍ من أميركا والفاتيكان وجامعة الدول العربيَّة، بصياغة وفاقٍ وطنيٍّ جديدٍ وبلورته، وفاقٍ يُعيد التوازن إلى الدستور من خلال الإفساح في المجال أمام مشاركةٍ في السلطة لمختلف الطوائف. فشكَّل اتِّفاق الطائف خطوةً بالغة الأهمِّيَّة، إذ إنَّ مطلب المشاركة، وعدالة التوزيع، والمساواة، والتوازن في السلطة، هو في أساس المطالب الإسلاميَّة التي سَبَّبت الحرب الأهليَّة بعد شعور المسلمين بالتهميش والإبعاد.

عن مؤتمر الطائف، غاب وليد جنبلاط لأنَّه لم يكن نائباً منتخباً. غير أنَّ لقاء بيت الدين الذي تأسَّس عام 1988، سمَّى مندوباً درزيّاً إلى الطائف ليدافع عن الموقف الدرزيّ. وقد ترأس اللقاء شيخ العقل محمَّد أبو شقرا، وضمَّ وليد جنبلاط وطلال أرسلان وتوفيق عسَّاف، وعدداً كبيراً من وجهاء الموحِّدين الدروز وأعيانهم. ومثَّل الموحِّدين الدروزَ توفيق عسَّاف، النائب الدرزيّ الوحيد

في مجلس النوّاب اللبنانيّ يومذاك، ورافقه صهره عبّاس الحلبي بصفته عضو الأمانة العامّة للّقاء ومستشاره الخاصّ. إتّفق النوّاب إذاً، في الطائف، على انتخاب برلمان جديدٍ على قاعدةٍ وطنيّةٍ لا طائفيّة. ولم يحصل الموحّدون الدروز على أيّ جديدٍ في بُنية النظام السياسيّ اللبنانيّ، باستثناء تشكيل مجلس شيوخ برئاسة درزيّ.

قدَّم عمل توفيق عسّاف عبر مشاركته الفاعلة في الطائف، مساهمةً بارزةً في الوفاق الوطنيّ اللبنانيّ، وحفظ خير جميع اللبنانيّين، بعد تمسُّكه بإقامة توازنٍ ومساواةٍ في توزيع السلطات، وإلغاء الطائفيّة السياسيّة، والعمل على تفعيل مشاركةٍ أوسع في القرارات الإداريّة والعسكريّة وإقرار مبدإ الإنماء المتوازن.

مرحلة ما بعد الحرب الأهليّة

أظهر الموحّدون الدروز خلال الحرب في لبنان، إرادةً صلبةً في الدفاع عن عروبة لبنان واستقلاله وسيادته، وقدّموا الكثير من الشهداء والجرحى والمعوّقين والمهجّرين، وتعرّضت مدنهم وقُراهم للدمار والخراب. بعد توقُّف الحرب انصرفت الطوائف اللبنانيّة إلى استخلاص نتائجها وإعادة التفكير في سلوكها وممارساتها خلالها.

خرج المسيحيُّون ممزّقين، إذ خاض الجيش اللبنانيّ بقيادة العماد ميشال عون أعنف المعارك ضدّ القوّات اللبنانيّة بقيادة الدكتور سمير جعجع، ما شتّت الوحدة المسيحيّة، وخلّف خسائر بشريّةً وماديّةً فاقت بكثيرٍ تلك التي فقدوها خلال سنوات الحرب الأهليّة. إستجاب البابا يوحنّا بولسُ الثاني إلى طلب الكنيسة الكاثوليكيّة في لبنان، وميّزهم في الدعوة إلى عقد سينودوس خاصٍّ من أجل لبنان. ذلك أنّ مجامع مماثلة لا تُعقد إلاّ من أجل قارّةٍ كاملةٍ أو قضيّةٍ كبرى، وبالتالي فالدعوة لعقده من أجل بلدٍ صغيرٍ مثل لبنان – وصفه البابا بالبلد الرسالة – بانت في تلك الظروف أكثر من استثنائيّةٍ.

إبتدأت الأعمال التحضيريّة للسينودوس عام 1991، وتُوِّجت باجتماع الأساقفة الكاثوليك اللبنانيّين في الفاتيكان بين تشرين الثاني وكانون الأوّل 1995. رمى

السينودوس إلى السماح للمسيحيِّين، والكاثوليك منهم تحديداً، بتجديد خطابهم والإفادة من دروس الحرب، وإعادة النظر في أفكارهم وأعمالهم ومراجعة ما قاموا به خلال تلك الأحداث.

وبالنظر إلى الخصوصيَّة اللبنانيَّة، وجَّه البابا يوحنَّا بولس الثاني الدعوة إلى الطوائف الإسلاميَّة والدرزيَّة، كما إلى باقي الطوائف المسيحيَّة غير الكاثوليكيَّة، للمشاركة في هذا المجمع وانتداب ممثِّلين عنها. على إثرها، جرت مشاورات بين الزعماء السياسيِّين والدينيِّين المسلمين والموحِّدين الدروز، لتحديد الموقف المناسب وطبيعة التمثيل في مجمع موجَّهٍ أساساً إلى المسيحيِّين. فرحَّبوا بدعوة البابا وأعلنوا قبولها تأكيداً على وحدة العيش والمصير التي تجمع بين اللبنانيِّين، على الرغم من الاختلافات الطائفيَّة والمذهبيَّة والسياسيَّة. فمثَّل محمَّد السمَّاك مفتي الجمهوريَّة اللبنانيَّة، وسعود المولى رئيسَ المجلس الإسلاميّ الشيعيّ الأعلى، وعبَّاس الحلبي طائفة الموحِّدين الدروز بتوافقٍ بين زعيمَيها الرئيسيَّين وليد جنبلاط وطلال أرسلان[3]. حضر الثلاثة في السينودوس بصفة مراقبين، مع العلم بأنَّهم شاركوا في جلساته وأعماله[4].

وعام 1999، وبمناسبة زيارة البطريرك المارونيّ الكاردينال مار نصر الله بطرس صفير إلى منطقة الشوف، انعقدت في المختارة مصالحةٌ وطنيَّةٌ كبرى بين الموحِّدين الدروز والموارنة، أعلن خلالها وليد جنبلاط في خطاب تاريخيٍّ، أنَّ صفحة الأحداث المؤلمة والدامية التي وقعت عام 1860 كما 1983، قد طُويت وأنَّه لا عودة إلى الوراء، مع رفض كلّ النـزاعات والقلاقل بين الطائفتَين، أو بين المسلمين والمسيحيِّين في لبنان. وبدا واضحاً أنَّ حقبات التسالُم بين الطوائف التي جسَّدت فكرة العيش المشترك، كانت أكبر وأهمّ من فترات الحرب والصراع. وخلال هذه المصالحة الوطنيَّة، صرَّح البطريرك المارونيّ بأنَّ كمال جنبلاط، رجل المبادىء

3. راجع الملحقين رقم 11 و 12.

4. أنظر في الملحق رقم 6، نصّ كلمة عبَّاس الحلبي في السينودوس.

والقناعات، قد اغتيل بسبب صلابته وإيمانه والتزامه تجاه نفسه وتجاه طائفته. وأكَّدت هذه المصالحة أنَّ الوحدة الوطنيَّة الحقيقيَّة تُجسِّد وحدها خشبة خلاص لبنان وباب عبوره إلى المستقبل.

الوضع السياسيّ الراهن

مثَّل كمال جنبلاط، خلال الحرب الأهليَّة، وإلى جانبه غيره من كبار زعماء الطائفة، آمال الموحِّدين الدروز وطموحاتهم. وأدَّت الظروف المأساويَّة التي رافقت وفاته، وبفعل غريزة حفظ الذات والدفاع عن النفس، إلى الالتفاف حول ابنه وليد الذي وجد نفسه بفضل تراث والده، على رأس حركةٍ وطنيَّةٍ لا تعرف الفوارق الطائفيَّة. وسمحت حرب الجبل لوليد جنبلاط بإثبات قدرته على الدفاع عن الطائفة من جهة، وتكريس نفسه قائداً سياسيّاً وعسكريّاً، من جهةٍ أُخرى. ثمَّ إنَّ تراجع سلطة شيخ العقل ونفوذه بعد وفاة شيخ العقل الشيخ محمَّد أبو شقرا، وخفوت قوَّة الزعيم الأرسلانيّ، إضافةً إلى قدرة الحزب التقدّمي الاشتراكيّ على التحوُّل ميليشيا مسلحة تقاتل في كلّ المعارك والجبهات ضدَّ المسيحيِّين، كلّ ذلك أسهم في منح وليد جنبلاط حجماً سياسيّاً كبيراً.

ولعب الموحِّدون الدروز دوراً سياسيّاً هامّاً شمل لبنان والشرق الأوسط، على الرغم من قلَّة عددهم. غير أنَّ انتهاء الحرب غيَّر المعادلة وأفقد هذا الدور الكثير من وهجه. ومع تصاعد المدّ الأُصوليّ وغياب شخصيَّةٍ عربيَّةٍ من حجم عبد الناصر انهارت الحركة القوميَّة العربيَّة. ثمَّ إنَّ تطبيق الدستور اللبنانيّ، بالشكل الذي حدَّده الميثاق الوطنيّ لعام 1943، وأعاد تجديده اتِّفاق الطائف في العام 1989، أعطى طوائف معيَّنةً حصَّةً ودوراً أكبر على حساب طوائف أُخرى، لاسيَّما مع تجاوز مبدإ فصل السلطات. جاء ميثاق 1943 اتِّفاقاً بين الموارنة والسُّنَّة، في حين أنَّ اتِّفاق 1989 شمل كلّ الطوائف، ليتحوَّل تفاهماً بين السُّنَّة والشيعة والموارنة. وحَصْرُ السلطات والمواقع الأساسيَّة في يد الطوائف الثلاث: رئاسة الجمهوريَّة للموارنة، ورئاسة الحكومة للسُّنَّة، ورئاسة البرلمان للشيعة، أدَّى إلى

تهميش الأقلِّيّات كالموحّدين الدروز والأُرثوذكس والأرمن، فاستُبعدوا عن حكم لبنان الجديد وإدارته. كما أنَّ خُطط الإنماء والتطوير المناطقيَّة التي وضعتها الحكومات المتعاقبة، انصبَّت على العاصمة بيروت، وبعض مناطق الجنوب، على حساب بقيَّة المناطق اللبنانيَّة، وعلى وجه الخصوص الجبل الذي بات يعاني أزمةً اقتصاديَّةً تنمويَّةً خانقة.

حوَّلت نهاية الحرب والشروع في تطبيق اتِّفاق الطائف وليد جنبلاط زعيماً محلِّيّاً لبنانيّاً، بعد أن ورث عن أبيه زعامةً دوليَّةً وعربيَّةً راسخة. واضطُرَّ الموحّدون الدروز بسبب من هذه الظروف، إلى الانكفاء نحو السياسة الداخليَّة اللبنانيَّة، في وقتٍ لم يؤمِّن لهم الدستور الجديد سوى مشاركةٍ محدودة. فبانت الهوَّة بين تراثهم التاريخيّ وواقعهم السياسيّ الراهن، جالبةً معها شعوراً بالإحباط والقهر.

ويعود أيضاً فقدان الموحّدين الدروز لنفوذهم إلى عجزهم عن تجديد طبقتهم السياسيَّة ونُخَبهم، بما أنَّ وزن الإرث الإقطاعيّ والنظام العشائريّ حافظا على عائلة جنبلاط على رأس الطائفة، دون أن تتعرَّض سلطتها وهيمنتها لأيّ مُسَاءَلة أو إعادة نظر. ولم يفقد وليد جنبلاط أيّ قدرٍ من عطف الطائفة وولائها له، ولا حتَّى من زعامته أو قيادته لها. في هذا الإطار، تبدو الطائفة فاقدةً أيَّ مقاربةٍ نقديَّة. غير أنَّه ينبغي الاعتراف أيضاً، بأنَّ قوَّة وليد جنبلاط ووزنه السياسيّ اللذين جعلا الطائفة كلّها تصطفّ خلفه، ليسا نتاج التراث الإقطاعيّ والظروف التاريخيَّة فحسب، بقدر ما جاءَا أيضاً وليد حنكته السياسيَّة ومهارته وصفاته الشخصيَّة. فإذا حاز كمال جنبلاط على حجم دوليٍّ وعربيّ، فيستأهل ابنه وليد لقب القائد والسياسيّ اللبنانيّ المُحنَّك والمُجرَّب والخبير في الشأن الداخليّ اللبنانيّ. لذا، فهو يفرض نفسه اليوم زعيماً أوحد لطائفة الموحّدين الدروز، مُمسكاً بتمثيلٍ سياسيٍّ شبه حصريّ.

أمَّا القوى السياسيَّة التي سارت بمحاذاة الزعامة الجنبلاطيَّة داخل الطائفة، فقد خسرت إشعاعها ونفوذها خلال الحرب الأهليَّة حين واجه الموحّدون الدروز محنةً كبرى تهدَّدت مصيرهم ووجودهم، وجعلتهم يتَّحدون متجاوزين كلّ انقساماتهم

العائليّة والحزبيّة، ليقفوا وقفة رجلٍ واحدٍ خلف كمال جنبلاط. فالتيّار الدرزيّ السياسيّ الثاني الممثَّل بالحزب اليزبكيّ، ضعف جدّاً. وكرّس استمرارُ الحرب الأهليّة الزعامةَ التي ورثها وليد عن كمال، في البيت الجنبلاطيّ. لكن، ما إن حلّت السياسة محلّ الحرب واضمحلّت التهديدات الخارجيّة، عادت المعارضة الداخليّة لتأخذ مداها. وعلى الرغم من أنّ الحزب اليزبكيّ ما زال ضعيفاً ويشكّل أقلّيّةً، إلاّ أنّه وجد اليوم، في شخص الأمير طلال ابن مجيد أرسلان حاملاً لرايته. ولخّصت نتائج انتخابات عام 2000، إلى حدٍّ كبيرٍ الصورة السياسيّة للوضع السائد داخل طائفة الموحّدين الدروز. فمن أصل ثمانيةٍ نوّاب منتخبين أتت حصّة جنبلاط خمسة مقابل واحد فقط يمثّل التيّار اليزبكيّ، هو الأمير طلال نفسه. أمّا الاثنان الآخران فهما مستقلاّن من مناطق ليس الانقسام السياسيّ اليزبكيّ الجنبلاطيّ ذا أهمّيّةٍ فيها.

إلاّ أنّ الخلاف السياسيّ الحقيقيّ الذي فرّق بين جنبلاطيّة ويزبكيّة، اختفى في هذه الأيّام. ففي حين مثّل كمال جنبلاط التيّار القوميّ العربيّ في لبنان، ارتبط الأمير مجيد أرسلان بسياسةٍ لبنانيّةٍ تقليديّة، وبالمدرسة المارونيّة في شؤون الحُكم. إختفت هذه الإيديولوجيّات اليوم، وستظلّ غائبةً طالما بقي وليد جنبلاط وطلال أرسلان يخضعان لنظام سياسيٍّ لبنانيٍّ تسيطر عليه سوريا. والانقسام بين تيّارين أوّلهما يزبكيّ وثانيهما جنبلاطيّ ليس سوى قضيّة أشخاص ومصالح فرديّة لا علاقة لأيٍّ منهما بالنظريّات السياسيّة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ وزن زعيم طائفة الموحّدين الدروز السياسيّ الأساسيّ، يختزل اليوم وزن الطائفة السياسيّ، على ما يبدو. فبعدما خرج الموحّدون الدروز من الحرب منهوكي القوى على الرغم من انتصارهم العسكريّ في الجبل، والعدد المرتفع للخسائر، ناهيك عن الهجرة الكثيفة للمسيحيّين من الشوف وعاليه، قد أضعفا الحيويّة والنشاط الاقتصاديّ والثقافيّ والاجتماعيّ لتلك المناطق. وما عاد بمقدور الموحّدين الدروز أن يلعبوا أيّ دورٍ جدّيٍّ على الصعد السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والديموغرافيّة في لبنان. وحده حضور وليد جنبلاط يعوّض هذا الضعف العامّ، من خلال التعبئة السياسيّة والاجتماعيّة التي يولّدها.

مرحلة ما بعد سنة ألفين

في 25 أيّار 2000، افتتح تحرير لبنان من الاحتلال الإسرائيليّ للمناطق الجنوبيّة، نتيجة المقاومة الوطنيّة اللبنانيّة المحتضَنة شعبيّاً من قبل جميع الفئات السياسيّة، وبتضامن الجيش اللبنانيّ ومساعدته لها، افتتح مرحلةً جديدة. وبفضل هذا الإنجاز الوطنيّ الكبير الذي لم يُضطرَّ لبنان إلى توقيع معاهدة سلام مع العدوّ الإسرائيليّ، في سبيل تحرير أرضه، قُيِّض للبنان أن ينتقل من حالة الحربً إلى حالة السلام والرخاء. وقد أدّى هذا التحرير إلى المطالبة بتنفيذ بعض بنود وثيقة الوفاق الوطنيّ المتعلِّقة بانسحاب تدريجيٍّ للجيش العربيّ السوريّ من لبنان، طالما أنّ سوريا حرصت على القولً إنَّ وجودها العسكريّ فيه يوازن إستراتيجيّاً الاحتلال الإسرائيليّ، وقد أفقد هذا الإنجازُ السوريِّين أيَّ مبرِّر للبقاء. وجاء بيان المطارنة الموارنة في أيلول من السنة نفسها، ليطالب صراحةً وجهاراً، السوريِّين بالانسحاب من لبنان وترك اللبنانيِّين يتدبَّرون أمرهم باستقلالٍ تامّ. وزكّى وليد جنبلاط هذا الطلب في خطابٍ في مجلس النوّاب، متمايزاً عنً المطارنة الموارنة بطلب إعادة التموضع وفق اتِّفاق الطائف.

هنا، بدأت مرحلةٌ عاصفةٌ تشوب العلاقات بين بعض القيادات اللبنانيّة وسوريا من جهة، خصوصاً على إثر التمديد لرئيس الجمهوريّة العماد إميل لحّود، في أيلول 2004، حتّى إذا ما حصل الزلزال الكبير الذي أدّى إلى استشهاد الرئيس رفيق الحريري في 14 شباط 2005، علَت الأصوات المطالبة بالانسحاب الفوريّ للجيش السوريّ، وتوحّد اللبنانيُّون، مسلمين ومسيحيِّين، في هذا الطلب. وقد أحدث هذا الاغتيال لشخصيَّة مسلمة معتدلة ومنفتحة وحائزةٍ على شعبيّةٍ واسعةٍ لدى جميع الطوائف، ولها علاقاتٌ شخصيّةٌ بأكثر المسؤولين والرؤساء الدوليِّين شأناً ورفعةً، أحدث موجة غضبٍ عارمٍ يوم التشييع وفي الأيّام التي تلت، ولا تزال آثارها مستمرّةً إلى اليوم.

هذه الأزمة المفتوحة فجّرتها شرارة عمليّة الاغتيال، إلاَّ أنَّ صدور قرارٍ عن

مجلس الأمنٍ الدوليّ تحت الرقم 1559، والتمديد القسريّ لرئيس الجمهوريّة العماد إميل لحود، والذي أدّى إلى خروج رفيق الحريري من رئاسة الوزارة، شكّلا السببَين المباشرَين لها.

وقد نصَّ القرار 1559 على وجوب انسحاب القوّات السوريّة من لبنان، وإزالة السلاح من أيدي الميليشيات المسلّحة على الأراضي اللبنانيّة. فانقسم اللبنانيُّون حول هذا القرار وإن بَدَوا موحّدين على استنكار جريمة الاغتيال.

في وقتٍ سابق، في الأوّل من تشرين الأوّل عام 2004، تعرّض الوزير والنائب الدرزيّ مروان حماده، لمحاولة اغتيالٍ كادت تودي بحياته، ذهب ضحيّتها مرافقه الشهيد غازي بو كرُّوم ابن مزرعة الشوف.

وقد تشكّلت نتيجةَ هذه الأحداث جبهةٌ وطنيّةٌ لبنانيّةٌ عابرةٌ للطوائف، للمرّة الأولى بعد الحرب الأهليّة، ضمّت إلى وليد جنبلاط مجموعةً من الشخصيّات المارونيّة والمسيحيّة ممّا عُرف بلقاء قرنة شهوان، والقوّات اللبنانيّة والتيّار الوطنيّ الحرّ الذي يتزعّمه العماد ميشال عون، وتيّار المستقبل الذي يتزعّمه نجل رفيق الحريري سعد الدين، كما ضَمَّ عدداً من الشخصيّات الشيعيّة المستقلّة. تدرَّج خطاب هذه الجبهة من اعتبار أنَّ سوريا حوّلت لبنان دولةً بوليسيّة، إلى القول بتحوُّل الوجود السوريّ إلى انتهاكٍ صريح لسيادة لبنان واستقلاله، وتوصّلت في النهاية، إلى المطالبة بالانسحاب الفوريّ لقوّاتها المسلّحة وأجهزة مخابراتها من جميع الأراضي اللبنانيّة.

أدّى اغتيال رفيق الحريري إلى استشهاد عشرة لبنانيّين آخَرين، وجرح المئات. فوُجّهت أصابع الاتّهام إلى سوريا أنّها وراء العمليّة، هي المعروفة بدهائها السياسيّ وحُسن معرفتها بالواقع اللبنانيّ، ما طرح علامات استفهام حول دورها في عمليّة الاغتيال التي شُبِّهت بعمليّة انتحارٍ قادتها مجموعةٌ في النظام السوريّ.

في مقابل تجمُّع 8 آذار الذي دعا إليه حزب الله، في ساحة رياض الصلح، والذي شاركت فيه مئات الألوف من المواطنين، وغالبيّتهم من الطائفة الشيعيّة، لشكر سوريا على دورها في لبنان واحتضانها للمقاومة، حصل تجمُّعٌ آخَر، بتاريخ

14 آذار، وهو الأكبر في تاريخ التجمُّعات الشعبيَّة في لبنان، في ساحتَي رياض الصلح والشهداء التي أصبحت ساحة الحرِّيَّة. وقد طالبت الجموع المنتمية إلى جميع الطوائف، لا سيَّما من السُّنَّة والمسيحيِّين والموحِّدين الدروز وبعض الشيعة، بالحرِّيَّة والاستقلال والقرار الحرّ وانسحاب الجيش السوريّ. وما لبث أن تَمَّ هذا الانسحاب في 26 نيسان 2005، نتيجة الضغط الشعبيّ والضغوط الدوليَّة بعد صدور القرار 1559، وخاصَّةً من قبل رئيس الولايات المتَّحدة الأميركيَّة جورج بوش في إطلالاته اليوميَّة، مطالباً بخروج الجيش السوريّ.

بعد الخروج السوريّ، جرت انتخاباتٌ نيابيَّة، وهي الأولى منذ عام 1975، دون وجود قوَّاتٍ أجنبيَّةٍ على الأراضي اللبنانيَّة، على أساس قانون انتخاب سنة 2000، بعدما تعذَّر إقرار قانونٍ انتخابيٍّ جديدٍ، في الفترة القصيرة التي تَلَت الانسحاب السوريّ وسَبَقَت الانتخابات.

شهد الجميع، بِمَن فيهم بعض المراقبين الأجانب، على حرِّيَّة أجواء العمليَّة الانتخابيَّة ونزاهتها وحُسن سيرها، وقد أسفرت، بالرغم من بعض الثغرات اللوجيستيَّة والنواقص الإداريَّة، عن إنتاج أكثريَّةٍ نيابيَّةٍ تشكَّلت من تيَّار المستقبل بزعامة سعد الدين الحريري، واللقاء الديمقراطيّ بقيادة وليد جنبلاط، وحلفائهما من القوَّات اللبنانيَّة، والكتائب، ومجموعة قرنة شهوان. كما أدَّت النتائج إلى اجتياح حزب الله وحركة أمل للساحة الشيعيَّة، والاستئثار بالتمثيل الشيعيّ في المناطق حيث يتواجد الشيعة بكثافة، لا سيَّما محافظتَي البقاع والجنوب.

ولئن استفاد تيَّار المستقبل وحلفاؤه من عطف اللبنانيِّين بسبب التغييب المريع لرفيق الحريري، إلاَّ أنَّ الانتخابات جاءت استفتاءً على استقلال لبنان وسيادته وتحريره من الوجود العسكريّ والمخابراتيّ السوريّ.

بعدها، تشكَّلت الحكومة اللبنانيَّة برئاسة فؤاد السنيورة الذي حاز على أعلى رصيدٍ نتيجة الاستشارات النيابيَّة المُلْزمة، ما عكس واقع التمثيل النيابيّ المدعوم شعبيّاً. في المقابل، تصاعدت الضغوط الدوليَّة باتِّجاه تشكيل محكمةٍ دوليَّةٍ لمحاكمة المجرمين الذين ارتكبوا عمليَّة الاغتيال. إلاَّ أنَّ التأثير السوريّ

على الوضع السياسيّ والأمنيّ اللبنانيّ لم يَخْفُت، واستمرَّت الاغتيالات حاصدةً مجموعةً من الشخصيَّات السياسيَّة والفكريَّة والصحافيَّة من أمثال سمير قصير الصحافيّ الموهوب، وجورج حاوي أحد كبار الشيوعيِّين الوطنيِّين، الذي انقلب في سياسته ضدَّ السوريِّين، وباسل فليحان الوزير الواعد الذي كان برفقة رفيق الحريري ساعة الاغتيال، وجبران تويني السياسيّ الشابّ الذي جسَّد أمل جريدة النهار، وبيار أمين الجميِّل القياديّ البارز والواعد في الصفّ المسيحيّ، ووليد عيدو النائب الجريء والقاضي السابق ونجله، وآخرهم النائب الكتائبيّ في كتلة اللقاء الديمقراطيّ أنطوان غانم، وآخَرين. هذا، عدا محاولات الاغتيال التي اقتصَّت من الإعلاميَّة مي شدياق، ووزير الدفاع الياس المرّ، وقبلهما مروان حماده.

أمَّا الظاهرة الأبرز على الصعيد الدرزيّ فتمثَّلت باجتياح وليد جنبلاط التمثيل الدرزيّ الذي اقتصر عليه حصريّاً، وعلى الحزب التقدُّميّ الاشتراكيّ في سبعة مقاعد من أصل ثمانية، والثامن احتلَّه حليفه أنور الخليل في حاصبيَّا. فجاءت انتخابات 2005 لتُثبت ما بدأه الزحف الجنبلاطيّ وبدت مؤشِّراته في انتخابات العام 2000.

إنَّ انتماء جميع النوَّاب الموحِّدين الدروز إلى كتلة اللقاء الديمقراطيّ، باستثناء أنور الخليل الذي ينتمي إلى كتلة التحرير والتنمية بزعامة رئيس مجلس النوَّاب نبيه برِّي حليف جنبلاط، سهَّل إصدار قانونٍ جديدٍ لتنظيم شؤون طائفة الموحِّدين الدروز[5]، الذي ألَّف المجلس المذهبيّ، وانتخب شيخ عقلٍ جديد، وأنهى حالة التردُّد والضياع التي عاشتها طائفة الموحِّدين الدروز منذ سنوات، بسبب غياب هيئاتٍ تمثِّل المجتمع المدنيّ.

يتطلَّع الموحِّدون الدروز في أيَّامنا هذه، وبعد اجتيازهم امتحان إقرار القانون وإجراء الانتخاب وحُسن الاختيار، إلى مرحلةٍ جديدةٍ في حياتهم، على قاعدة قيام المؤسَّسات التي تُعنى بشؤونهم أُسوةً بسائر الطوائف اللبنانيَّة، والإسلاميَّة منها

---

5. أُنظر الفصل الثالث.

على وجهٍ خاصّ، مرحلةً تضع الأُسُس للمزيد من التشاور والتحاور في إدارة شؤونهم الروحيَّة والزمنيَّة، مقدِّرين لوليد جنبلاط مبادرته في تسهيل قيام هذه المؤسَّسة التي تشكِّل القاعدة الأساس لأيّ عمل مؤسَّسيٍّ داخل طائفة الموحِّدين الدروز، ولا سيَّما في موضوع الأوقاف الذي أثار ولا يزال تجاذباتٍ كثيرة، بين جهاتٍ متعدِّدة بسبب الفوضى والفساد.

ويأمل الموحِّدون الدروز أن تفتتح هذه الخطوة مرحلةً جديدةً في تجميع محافظ الأوقاف المبعثرة، وحصرها واستثمارها بما يُعين الفئات المستفيدة منها، وفق شرط الواقف من جهة، والمؤسَّسات العاملة التي تحتاج إلى دعمٍ ماليٍّ ومعنويٍّ لاستمرارها في أداء خدماتها.

آفاقٌ مستقبليَّة

لم تستفد الطوائف الأُخرى من دروس الحرب ونتائجها، مع أنَّها دفعت خلالها أثماناً باهظة. ذلك أنَّ سوريا تعمل في سبيل تحقيق توازنٍ في اللعبة السياسيَّة الداخليَّة اللبنانيَّة، على لجم كلّ الزعماء وتحديد أدوارهم، بل تحجيمها. كان من المفترض، نظريّاً، أن يؤدِّي ذلك إلى قيام دولةٍ قويَّةٍ في لبنان، غير أنَّ الواقع يُبرز بوضوح تفوُّق الزعيم الطائفيّ على الدولة. وما توانى الإمام الراحل محمَّد مهدي شمس الدين عن وصف هذه الحالة المَرَضيَّة، إذ قال: «إن وضعاً تكون فيه الدولة أقوى من مجتمعها يؤدِّي إلى الاستبداد، كما أنَّ وضعاً يكون فيه المجتمع أقوى من دولته يقود إلى الفوضى».

إنَّ غياب الحسّ المؤسَّساتيّ، وسعي كلّ زعيم درزيٍّ للاستئثار بالقرارات السياسيَّة، والاستفادة الحصريَّة من امتيازات الدولة وخدماتها، جعلت من المستحيل استيلاد فرصةٍ لتجديد الطبقة السياسيَّة. كما أنَّ غياب المجلس المذهبيّ[6]،

6. أُعيد انتخاب المجلس المذهبيّ في 24/ 09/ 2006، بعد إقرار قانون تنظيمه في المجلس النيابيّ ونشره بتاريخ 09/ 06/ 2006. وتَمَّ انتخاب شيخ عقل هو الشيخ نعيم حسن. أمّا اللجنة التي أشرفت على أوّل انتخاب للمجلس فقد رئسها بجدارة، القاضي المتقاعد الشيخ سجيع الأعور.

واستمرار النـزاع حول شخص قائمقام شيخ العقل، وعقم نشاط مجلس أُمناء الأوقاف الدرزيَّة في الفترة السابقة، وهجرة الشباب والكفاءَات، أَدَّت إلى تراجع حضور طائفة الموحِّدين الدروز. ثمَّ إنَّ جمود النُّخب الثقافيَّة للطائفة، ناهيك عن غياب الإرادة وعدم قدرة كوادرها السياسيَّة على المبادرة وحلّ المشاكل، عرقلت أيّ محاولة لإعادة الأمل إلى صفوف طائفة الموحِّدين الدروز.

لم يؤدِّ الإضعاف السياسيّ للدروز إلى إبعادهم عن الاهتمام بالشؤون الداخليَّة اللبنانيَّة. فهم يطمحون أوَّلاً وأخيراً، إلى العيش في ظلّ نظام سياسيٍّ يضمن لهم حرِّيَّتهم وخصوصيَّتهم، من خلال ضمان حرِّيَّة كلّ الطوائف وخصوصيَّاتها. لذا، تبقى الأغلبيَّة المطلوبة أغلبيَّةً نوعيَّة، لا أغلبيَّةٌ عدديَّةٌ ديموغرافيَّةٌ تحتكر الحُكم والسلطة. ويؤيِّد الموحِّدون الدروز مبدأً سياسيّاً متطوِّراً، هو الديموقراطيَّة التوافقيَّة التي ينبغي أن تشمل المجال السياسيّ، مجال حضور الجماعات على قاعدة قِيم أخلاقيَّةٍ واجتماعيَّةٍ وثقافيَّة.

ويفسِّر هذا التعلُّقُ بالديموقراطيَّة التوافقيَّة الدورَ الفعَّال للموحِّدين الدروز في الدعوة إلى الحوار الإسلاميّ المسيحيّ على الصعيد اللبنانيّ، كما على الصعيد العربيّ. ذلك أنَّ العلاقات الإسلاميَّة المسيحيَّة ليست اليوم في أحسن حالاتها في لبنان، بل تجتاز محنةً قويَّةً بسبب وجود مشكلاتٍ داخليَّةٍ أوَّلاً، وبسبب الخلط الحاصل بين الدِّين والسياسة ثانياً، كما بسبب انعكاس المشكلات الإسلاميَّة المسيحيَّة في العالم على لبنان، ثالثاً. وبغية تأمين وضوحٍ وشفَّافيَّةٍ في التعامل مع هذه القضيَّة ومواصلة حوارٍ منتجٍ وفعَّال، لا بُدَّ، بدايةً، من التمييز بين المجال الطائفيّ والمجال الدينيّ. ففي حينٍ أنَّ الدين أو التديُّن ليسا عاملَي فرقةٍ ونزاع، غير أنَّ استخدام الدين في السياسة يلد النـزاعات الطائفيَّة. إذ يستخدم السياسيُّون الطائفيَّةَ بهدف الحفاظ على مصالحهم الشخصيَّة في الصراع السياسيّ الداخليّ، باسم الحفاظ على حقوق طائفتهم. إذاً، لا تكمن مشكلة السياسة اللبنانيَّة الأساس في النظام كما حدَّده الدستور، بل في طبيعة إدارة الحكم والممارسة الزبائنيَّة والفساد السياسيّ. ويمثِّل الموحِّدون الدروز أكثر الفئات ابتعاداً عن هذا الواقع، وأَقلّهم اهتماماً به،

وهم يناضلون بالتالي من أجل مشاركة أكثر عدالةً تعطي الفرصة لكلّ الكفاءات الفرديَّة لتثبت نفسها وتمارس أهليَّتها أيّاً تكن انتماءاتها الطائفيَّة.

حاول المسيحيُّون القيام بنقدٍ ذاتيٍّ، ومراجعةٍ لتجربتهم في الحرب الأهليَّة، ويبقى أنَّ المسلمين والموحِّدين الدروز مدعوُّون هم أيضاً للقيام بنقدٍ مماثل، والتفكير بمستقبلهم. ولعلَّ الصراع الدائر حاليّاً بين السُّنَّة والشيعة في لبنان، والذي يتغذَّى من الأحداث المماثلة في المنطقة لا سيَّما في العراق، وظهور الدور الإيرانيّ الهجوميّ الذي استفادت منه بعض الفئات الشيعيَّة في لبنان والمنطقة، لعلَّه يُحَفِّز إجراء المراجعة المرجوَّة حتَّى لا تنزلق هذه الفئات إلى المواجهات المسلَّحة واستحضار المآسي التاريخيَّة في الفِرْقة على أساس سياسيٍّ مغلَّفةٍ ببعض الاجتهادات الدينيَّة. كما على الموحِّدين الدروز أن يحدِّدوا الأسباب التي جعلت منهم أقلِّيَّةً هامشيَّةً بعد أن كانوا أسياد لبنان في القرن السابع عشر. ويقتضي أن تجري هذه المراجعة الضروريَّة على ضوء رسالتهم التاريخيَّة، وبهدي ما ستؤول إليه هذه الرسالة في المستقبل، آخذين بعين الاعتبار طبيعة الواقع اللبنانيّ الراهن وطبيعة الوضع في الشرق الأوسط. واليوم، يلوح في الأفق بريق أملٍ بنتيجة عمليَّة انتخاب المجلس المذهبيّ الجديد الواعد.

الفصل الثامن

رسالة الموحِّدين الدروز
ضمانة الوحدة والتعدُّد

لم تُجْرَ حتَّى يومنا هذا أيُّ مقاربةٍ علميَّةٍ لرسالة الموحِّدين الدروز في العالم. إذ انهمك كلّ الذين كتبوا عن طائفة الموحِّدين الدروز في دراسة جوانب مختلفة من التاريخ أو العقائد، أو سوسيولوجيا المجتمع الدرزيّ. وحده كمال جنبلاط حاول في مؤلفاته كما في المقابلات المختلفة التي أُجريت معه، أن يقدِّم تحليلاً معمَّقاً لمجمل جوانب حياة الموحِّدين الدروز وواقعهم ومستقبلهم. من هنا، يستند هذا الفصل في الأساس إلى أفكاره وملاحظاته، وخصوصاً ما جمعته برناديت شينك، ويشرح بعمقٍ موقعَ الموحِّدين الدروز ودورهم التاريخيَّين في الشرق الأوسط[1]. إلاَّ أنَّه من غير الجائز الاكتفاء بهذا التحليل، بل المطلوب تحديثه. وما سيلي يبقى محاولةً لاستشراف المستقبل ورؤية ما ينبغي أن تكون عليه رسالة الموحِّدين الدروز في عالم اليوم.

يواجه الموحِّدون الدروز كباقي العرب والمسلمين، أزمةً عميقة، فهم مضطرُّون للعيش في محيطٍ دوليٍّ مُعادٍ، لكنَّه يمنح حماية حقوق الأقلِّيَّات اهتماماً متزايداً. وبات من الصعب، إن لم يكن من باب المستحيل، اضطهاد أيّ أقلِّيَّةٍ تحت

1. برناديت شينك، كمال جنبلاط. الإرث العربيّ الإسلاميّ ودور الدروز في صياغة تاريخ لبنان، برلين، 1994 (بالألمانيَّة)؛ وطبعة دار النهار العربيَّة عام 2000. إنَّ الاستشهادات الواردة في هذا الفصل دون ذكر مصدرها، مقتطعةٌ من الطبعة العربية.

أنظار وسائل الإعلام ومنظَّمات حقوق الإنسان والمدافعين عن الحرِّيَّات. فسرعان ما يتحوَّل أيّ حادثٍ مهما كان بسيطاً، قضيَّةً دوليَّة. ويتمثَّل أحد أشكال الأزمة التي يعيشها العالم العربيّ الإسلاميّ في التناقص العدديّ المستمرّ للوجود المسيحيّ في لبنان والشرق الأوسط، جرَّاء الأوضاع الاقتصاديَّة إلى حدٍّ ما. أمَّا السبب الرئيس فيكمن في غياب الديموقراطيَّة، وانعدام الأمن والأمان، بحيث باتت الأقلِّيَّات تشعر بأنَّها مهدَّدةٌ يوماً بعد يوم، في شخصيَّتها ووجودها، وخصوصاً تلك الأقلِّيَّات المسيحيَّة التي شكَّل وجودها على الدوام، عامل استقرار وأمانٍ لباقي الأقلِّيَّات، مُضفياً على الشرق الأوسط خصوصيَّةً نادرة. وعلى وجه التأكيد، يهدِّد إضعافُ الوجود المسيحيّ في الشرق العروبةَ كمشروعٍ حضاريٍّ قادرٍ على استيعاب الأقلِّيَّات الإثنيَّة كالأكراد والبربر، والأقلِّيَّات الدينيَّة كالموحِّدين الدروز والعلويِّين. كما تعاني العروبة أيضاً من خطر تنامي التطرُّف الإسلاميّ المُكنَّى بـ«الأُصوليَّة». وتتَّسم الحركات الأُصوليَّة بالنـزعة الإلغائيَّة للآخَر، كما بالانغلاق على الذات، ما يُطيح بإمكان الإبقاء، ليس فقط على الموحِّدين الدروز، بل على كلّ الأقلِّيَّات الإثنيَّة والدينيَّة، وربَّما الانزلاق في دوَّامة الإجهاز على المسلمين المعتدلين. هذا الوضع الراهن يطرح إعادة تحديد دور تلك الأقلِّيَّات وموقعها. فقوَّة الموحِّدين الدروز على سبيل المثال، تكمن بالضبط في ذلك الشعور المزدوج بالانتماء المحمَّل به تاريخهم، فمن جهةٍ تراهم يتمسَّكون بخصوصيَّتهم ويفتخرون بدرزيَّتهم، ولكنَّهم من جهةٍ أُخرى، يشعرون بانتمائهم إلى منطقةٍ وثقافةٍ أوسع بكثير، ويؤكِّدون بالتالي إرادتهم بالانخراط في محيطهم العربيّ الإسلاميّ.

وبقدر ما يتمسَّك الموحِّدون الدروز بهوِّيَّتهم الثقافيَّة والدينيَّة، وخصوصيَّتهم المذهبيَّة والطائفيَّة المميَّزة، يقاومون بالقدر عينه كلّ طروحاتٍ انفصاليَّةٍ أو تقسيميَّة، رافضين تصنيفهم في خانة هوِّيَّةٍ سياسيَّةٍ أو اجتماعيَّةٍ محدودةٍ أو مشوَّهة. وإذ يرفضون كلّ ادِّعاءٍ قد يؤدِّي إلى وصمهم بسمةٍ الانعزاليَّة أو الانفصاليَّة على المستوى السياسيّ، أو البِدْعة أو الهرطقة أو الإلحاد على المستوى الدينيّ، وبغية المحافظة على خصوصيَّتهم، عمل الموحِّدون الدروز دوماً، على تعزيز الوحدة

اللبنانيَّة والدفع بها لتكون مثالاً، وعلى الإسهام في القضايا العربيَّة من موقع وطنيٍّ لبنانيٍّ وقوميٍّ ودينيٍّ يحفظ مصالح العرب والمسلمين. وقد حقَّقوا بذلك رسالتهم في الخصوصيَّة الثقافيَّة والمذهبيَّة، وفي التجذُّر في أرض لبنان الذي يفخرون بأنَّهم من بُناته ومؤسِّسيه. ويؤكِّد الموحِّدون الدروز على أنَّ تمسُّكهم بهوِّيَّتهم الطائفيَّة الخاصَّة لا يتعارض البتَّة مع المصالح العليا للوطن، ولا حتَّى مع المصالح الأوسع والأكبر للعالَمين العربيّ والإسلاميّ. بل على العكس، فإنَّ وعي هذه الخصوصيَّة يترافق ووعيٌ تاريخيٌّ ووطنيٌّ أكثر قوَّةً دفعهم دائماً كلبنانيِّين وعرب ومسلمين، إلى ممارسة دور فاعلٍ وحيويٍّ داخل الشرق الأوسط.

ولا بُدَّ من التشديد على أنَّ الموحِّدين الدروز، وعلى الرغم من كونهم أقلِّيَّة، ما عاشوا يوماً عقدة الأقلِّيَّة، على عكس طوائف أُخرى، وتحديداً مسيحيَّة.

الرسالة التاريخيَّة

يُظهر تحليل دور الموحِّدين الدروز التاريخيّ في الشرق الأوسط، أنَّ رسالتهم حكمتها أربعة عناصر هي جزءٌ من طبيعة طائفتهم ومذهبهم.

فعلى المستوى الوطنيّ، شكَّل الموحِّدون الدروز أقلِّيَّةً محاربة، حسب عبارةٍ لكمال جنبلاط، وقد ارتبطوا بالأحداث التي عايشتها الطائفة طوال تاريخ لبنان السياسيّ، مروراً بتاريخ بلاد الشام والشرق الأوسط المعاصر.

وينتمي الموحِّدون الدروز إثنيّاً، إلى الشعب العربيّ، من خلال أُصولهم وجذورهم[2]، كما من خلال أماكن انتشار دعوة التوحيد خلال العهد الفاطميّ في بلاد الشام، التي تعرَّبت بالكامل بحيث إنَّ الدعوة لقيت استجابةً وقبولاً بين قبائل عربيَّة أو متعرِّبة.

أمَّا على المستوى الدينيّ، فيعتبر الموحِّدون الدروز أنَّ مسلكهم تتويجٌ للرسالات الدينيَّة كافَّةً، ولكلّ التيَّارات الفكريَّة بحيث يضحي وحده الطريق

---

2. راجع الفصل الأوَّل.

الحقيقيّ للمسلك العرفانيّ. كما أنَّ تسميتهم بـ«الموحِّدون» تعطي فكرةً حاسمةً عن طبيعة معتقدهم.

وعلى المستوى الدينيّ، لا ينِي الموحِّدون الدروز في شمل ذاتهم مع الإخوة المسلمين بالرغم من عدم شيوع أو عمق هذا القول في أوساطهم، ولم يزل يلقى هذا الشمول اعتراضات الكثيرين من الموحِّدين الدروز أنفسهم، كما حفيظة المسلمين أيضاً، حتَّى ليرفض العديد من المرجعيَّات الإسلاميَّة، الاعتراف بإسلاميَّتهم.

وبالتالي، تقدِّم هذه العناصر الأربعة، وإذا ما تعمَّقنا بمقاربتها، فهماً أفضل لمواقف الموحِّدين الدروز الإيديولوجيَّة والسياسيَّة، خصوصاً لجهة فهم أثر الكثير من المراحل التاريخيَّة الحاسمة على حاضرهم السياسيّ.

«أقلِّيَّةٌ محاربة» وضمانة الوحدة

يظهر الموحِّدون الدروز خلال تاريخهم، في صورة العنصر القويّ والحيويّ على المستوى المحلِّيّ، كونهم مؤسِّسين للتاريخ اللبنانيّ، كما على المستوى الإقليميّ بحيث إنَّهم أيضاً عنصرُ قوَّةٍ في الشرق الأوسط. ولا يعود فضل استمراريَّة الموحِّدين الدروز ديموغرافيّاً ودينيّاً واجتماعيّاً وثقافيّاً وسياسيّاً، بل حتَّى عسكريّاً في بعض المراحل، إلى تفوُّقهم العدديّ، وإنَّما إلى موقعهم الجغرافيّ وتصميمهم وصلابتهم من ناحية، وإلى وجود أرستقراطيَّةٍ محاربة أثبتت عبر الأزمنة كفاءَتها العالية على مستوى القيادة والسياسة. وعوَّض الموحِّدون الدروز بذلك عن وضعهم كأقلِّيَّةٍ فأوجدوا لأنفسهم موقعاً ضمن النسيج الإثنيّ والسياسيّ والدينيّ للشرق الأوسط. وإذا ما راجعنا التاريخ نجدهم لم يرضخوا أو يستسلموا أبداً دون مقاومة، ولا انغلقوا ضمن أسوار أيّ شعور بالدُّونيَّة، أو انعزلوا دينيّاً واجتماعيّاً. ما أنتج في الوقت الراهن، وعياً فرديّاً لتراثهم الثقافيّ والدينيّ والسياسيّ.

ولكون الموحِّدين الدروز أُمَّةً فخورةً عزيزة النفس والجانب، تأبى الذُّلَّ

والخضوع، شديدة التنظيم والحيويَّة، ترى توصيف «الأقلِّيَّة المحاربة» الشديدة المراس ينطبق عليها بالتمام، بحسب تعبير كمال جنبلاط. فلقد واجه الموحِّدون الدروز وتصدَّوا دوماً، بطريقةٍ متماسكةٍ وموحَّدةٍ، لكلّ الأخطار التي تهدَّدت بلادهم وجماعتهم على حدٍّ سواء، وعلى الرغم من كلّ خلافاتهم وانقساماتهم الداخليَّة. ويؤشِّر هذا التضامن إلى لُحمةٍ اجتماعيَّةٍ قوامها وعيٌ وسلوكٌ جماعيَّان، وينفي كلَّ تفسيرٍ يحصره بالتراصّ المذهبيّ الطائفيّ. وهم قانعون بأنَّ أيَّ ضعفٍ في حلقةٍ ما من السلسلة التي تجمعهم يُضعف السلسلة جمعاء. وتُضاعف عقيدةُ التقمُّص التي يولد بموجبها الموحِّد الدرزيّ مجدَّداً ضمن جماعة الموحِّدين الدروز، من هذا الشعور الأقلَّويّ اللاَّحم للجماعة، ما يؤمِّن اعتناءً باستمرار الجماعة وحماية تاريخها وحاضرها ومستقبلها على مرّ العصور.

وتشتدّ غريزة الدفاع الذاتيّ عند الموحِّدين الدروز، وتدفعهم إلى الردّ السريع على الاضطهادات المتكرِّرة التي عانوا منها خلال التاريخ، فيتجلَّون موحَّدين عقائديّاً في المواجهات أكثر ممَّا يسمح به أيّ كيانٍ سياسيٍّ أو كتلةٍ ديموغرافيَّة. فعلى سبيل المقارنة، يستطيع المسيحيُّون الاتّكال على دعم الفاتيكان والغرب ومساندتها، كما باستطاعة السُّنَّة الاتّكال على العالم الإسلاميّ بملياره من السُّنَّة، أو على الأقلّ على دعم مصر والسعوديَّة، كما يعوِّل الشيعة على إيران. أمَّا الموحِّدون الدروز فليس لهم سوى أنفسهم وجماعتهم وصلابتهم وتصميمهم وذكائهم في المناورة السياسيَّة المحلِّيَّة والإقليميَّة بهدف الحفاظ على وجودهم. وبالإضافة إلى روحهم القتاليَّة وحكمتهم العسكريَّة، يتمتَّع الموحِّدون الدروز أيضاً، بحنكةٍ سياسيَّةٍ وبُعد نظرٍ وتمرُّسٍ في جَبْه الصعاب. وهم اعتادوا في تاريخهم الطويل كأقلِّيَّةٍ تحارب من أجل البقاء والاستمرار، على أن يحذروا من محيطهم السياسيّ بشكلٍ عامّ، وممَّا يجري من حولهم، متكيِّفين مع البيئة التي هم فيها، وعلى أن يتنبَّهوا لدقَّة خياراتهم ومرمى كلامهم وأعمالهم وعلاقاتهم الديبلوماسيَّة. في هذا المقام، يجدر أن نستذكر أنَّ وهج الموحِّدين الدروز التاريخيّ وصدقيَّتهم ما استتبَّا إلاَّ بعد دفع ثمنٍ باهظٍ من الدماء. وسبَّبت سمعة الموحِّدين الدروز كأقلِّيَّةٍ محاربةٍ الكثير من المعارك والشهداء،

أسياداً ومشايخ وفقراء وبسطاء، سقطوا كلُّهم معاً دفاعاً عن هوِيَّتهم ومنازلهم ومناطقهم، ولم يتردَّدوا لحظةً واحدةً في القتال دفاعاً عن هذه الأهداف. ويُردِّد الشيخ أبو حسن عارف حلاوي[3] دائماً، أنَّ الموحِّدين الدروز لقوا على الدوام الدعم والحماية الربَّانيَّة، فهم دافعوا عن أنفسهم وما اعتدوا يوماً على أحد. أمَّنت هذه الميزات للموحِّدين الدروز حضوراً سياسيّاً ومعنويّاً منذ نشوء الطائفة، إلى احتلالهم موقعاً مميَّزاً ومهمّاً في تاريخ لبنان والشرق الأوسط.

المساهمة في الوحدة الوطنيَّة اللبنانيَّة

بدايةً، لا بُدَّ من التذكير بأنَّ «الإمارة العربيَّة أقامها المسلمون وعلى رأسهم الدروز». فأتى تأسيس الإمارة على يد الأُمراء الموحِّدين الدروز في مطلع القرن السابع عشر حجر الأساس للوحدة اللبنانيَّة. وقد وضعت هذه الإمارة موضعَ التنفيذ جملةً من التراكيب الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة في إطار سياسيٍّ ودستوريٍّ فرض على اللبنانيِّين شروط التطوُّر المشترك، بل الواحد. وقد تشكَّل اللبنانيُّون كشعب واحدٍ موحَّدٍ يعيش في ظلّ دولةٍ واحدةٍ موحَّدة. فشكَّلت الإمارة، في الإطار الجديد الذي رسمته حينها، القاعدةَ الأساس لنشوء لبنان الحديث. لقد حكمت العائلات الدرزيَّة الكبيرة وعلى رأسها آل معن، لمدَّة تزيد على القرنين، واضطلعت بـ«عبء المؤسَّسة السياسيَّة للإمارة» وأعطتها لوناً سياسيّاً واجتماعيّاً وثقافيّاً محدَّداً ومميَّزاً. أمَّا العثمانيُّون فاعترفوا بهذه الإمارة «ذات اللون الدرزيّ الفاطميّ» رسميّاً، حتَّى إنَّهم سمَّوا جبل لبنان بـ«جبل الدروز» - والحديث هنا عن غير جبل الدروز الشهير في سوريا -. أمَّا على المستوى السياسيّ فقد سلكت الإمارة الدرزيَّة منذ إنشائها، سبيل «الليبراليَّة والعقلانيَّة»، بغية الاستفادة من الوقائع السياسيَّة لزمنها وأرضها، وتكريس فكرة «لبنان المتعدِّد الطوائف». وبالتالي، أتى النظام تجسيداً لـ «روح علمانيَّة»، وقائماً على التسامح حيال الأفكار والعقائد المغايرة، ومشرِّعاً حرِّيَّة

3. أُنظر الملحق رقم 7، «حِرْز الموحِّدين. الشيخ أبو حسن عارف حلاوي».

ممارسة الشعائر الدينيَّة. وأرسى هذا الخيار السياسيّ الذي اختطَّه الأُمراء المعنيُّون، دعائمَ الوحدة اللبنانيَّة، متجاوزاً القيود الطائفيَّة والدينيَّة، ومؤكِّداً خصوصاً على العيش المشترك السلميّ والحضاريّ بين مختلف الطوائف اللبنانيَّة، المسيحيَّة والإسلاميَّة.

وحدَّد الأمير فخر الدين الثاني السياسة الخارجيَّة للإمارة اللبنانيَّة على أساس قيام وضع مستقلٍّ عن الباب العالي، والحفاظ على استمراريَّة هذا الاستقلال، مع بلورة رؤية «الدولة الفاعلة المنخرطة في كلّ أمور الشرق الأوسط». وفي هذا السياق، تبدَّت «الوحدة اللبنانيَّة الحقيقيَّة» نتاجَ إمارةٍ فاعلةٍ مستقلَّةٍ منخرطةٍ في سياسةٍ خارجيَّةٍ ناشطةٍ من جهة، وإمارةٍ مؤسَّسةٍ على صلابة الموحِّدين الدروز وعلمانيَّتهم، من جهةٍ أُخرى. وكان لا بُدَّ لهذه الوحدة الناشئة من فكرة وطنٍ مشتركٍ قائم على تعاون طوائفه وتكاملها، من أن تسعى لتحقيق استقلال لبنان وسيادته. وهذا لم يكن ممكناً بمعزلٍ عن «عقليَّةٍ ليبراليَّةٍ»، تمجّ التعصُّب القوميّ أوَّلاً، وتواجه العدوّ الخارجيّ الذي وجب على لبنان الاستعداد له، ثانياً. وقد أمَّن الموحِّدون الدروز، بتأسيسهم الإمارة العربيَّة وبتجسيدهم لوحدتها، استقلالاً لجبل لبنان على مدى قرنين من الزمن. واستحقُّوا لقب مهندسي لبنان المعاصر، إذ أرسوا البُنى السياسيَّة والاجتماعيَّة التي ما قُيِّض للوحدة اللبنانيَّة أن تتحقَّق من دونها.

ترسم هذه اللوحة، بشكلٍ مثاليّ، دور الموحِّدين الدروز في تأسيس الإمارة العربيَّة على كيانٍ جغرافيٍّ وسياسيٍّ متماسك، ودورهم بالتالي في إنشاء الدولة اللبنانيَّة المعاصرة السيِّدة المستقلَّة. ويؤكِّد الموحِّدون الدروز من خلال هذا الدور على كونهم جزءاً لا يتجزَّأ من الشعب اللبنانيّ ومكوِّناً أساسيّاً في تاريخ لبنان. وقد لخّص كمال جنبلاط أهمِّيَّة هذا الدور بقوله: «ما أصبح معروفاً بعد عام 1917 باسم لبنان الكبير، أُقيم على المبدإ السياسيّ للدروز حول لبنان متعدِّد الطوائف، تحت السيطرة الدرزيَّة والإسلاميَّة، أي مفهوم الحُكم الذاتيّ الذي أعاد تاريخ الإمارة العربيَّة الصغيرة». والفرق الوحيد هو النظام السياسيّ المطبَّق في لبنان

الكبير، وإنشاء نظام طائفيٍّ يعتمد على الناحية الدينيَّة أكثر منه على العلمانيَّة، ما أفسح المجال للسيطرة المارونيَّة دون مبرِّر. وكانت كارثة»[4].

ولئن وضع الموحِّدون الدروز هندسة البنية السياسيَّة والإيديولوجيَّة وهيكليَّتها التي تأسَّس عليها لبنان المعاصر، إلاَّ أنَّ الاستمرار في الإمساك بمقاليد هذه البُنى أفلت تماماً من أيديهم في وقتٍ لاحق. وعلى الرغم من انتصارهم في معاركهم العسكريَّة فهم فشلوا في تثمير هذه الانتصارات في المجال السياسيّ. هكذا حصل عام 1860، وهكذا يحصل أيضاً اليوم. وتضعضع بناؤهم وقيمته على يد أولئك الذين ورثوا السلطة، ومن دون أن يتمكَّن الموحِّدون الدروز من مواجهة ذلك أو منع حصوله، وهم يراكمون العجز والتآكُل التدريجيّ لسلطتهم على الجبل. في هذا السياق، يدفعنا التاريخ إلى إعادة التفكير في معنى لبنان الحاليّ، ويقدِّم لنا عِبَراً تُفيدنا أنَّ لبنان لا يمكن أن تحكمه طائفةٌ واحدةٌ على حساب الآخرين. وعلينا أن نتذكَّر أنَّ مَن ربح ومَن ينبغي أن يربح بنتيجة كلّ الصراعات والحروب التي خيضت وتُخاض في لبنان، هو الوطن، وليس هذه أو تلك من الفئات أو الطوائف. إلاَّ أنَّ الواقع، اليوم، وبكلّ أسف، يشير إلى عكس ذلك!

المساهمة في تاريخ الشرق الأوسط

أَسهم الموحِّدون الدروز في النضال العربيّ من أجل الحرِّيَّة والاستقلال، ما أهَّلهم ليُشكِّلوا عنصرَ قوَّةٍ عربيَّةٍ، وجزءاً لا يتجزَّأ من التاريخ العربيّ الإسلاميّ للشرق الأوسط. وبالقدر نفسه الذي حلَّ فيه جبل لبنان، أو جبل الدروز، محلّ الإمارة العربيَّة مع بقائه مركز سلطتها السياسيَّة، بفضل إشعاعه وحضوره القويّ في وجه المناطق الأخرى، بالقدر عينه استحال لبنان تحت حكم الأُمراء الموحِّدين الدروز مركزاً حيويّاً في قلب الشرق الأوسط. وخاض هؤلاء سلسلةً طويلةً من حروب التحرير الوطنيَّة بهدف استعادة الحقوق والمصالح العربيَّة الإسلاميَّة،

4. راجع: Kamal Joumblatt, *Pour le Liban*, Stock, Paris, 1978, p. 28.

ومارسوا نفوذاً جعلهم ينخرطون بقوّةٍ وفاعليّةٍ في شؤون الشرق الأوسط، ويؤدُّون دوراً محوريّاً كأقلّيَّةٍ محاربةٍ بعيدةٍ كلّ البُعد عن أيّ سِمَةٍ انعزاليَّة. وميَّز الدعمُ الكامل والثابت للقضايا العربيَّة الإسلاميَّة زعماء الموحِّدين الدروز أجمعين ودون استثناء، ما ساعد على تنمية الوعي الفرديّ والوطنيّ لدى أبناء الطائفة.

ففي مرحلة الحروب الصليبيَّة[5] (من نهاية القرن الحادي عشر وصولاً إلى الثالث عشر)، لجأ حُكَّام دمشق العرب إلى طلب الدعم والمساندة من الموحِّدين الدروز لصدّ حملات الفرنجة وحماية الساحل السوريّ من غزواتهم. وبسبب موقعهم الوسط ما بين إمارات الفرنجة اللاَّتينيَّة والممالك العربيَّة، اختار الموحِّدون الدروز الوقوف بقوّةٍ إلى جانب المسلمين وحماية المصالح العربيَّة، وخصوصاً حين أطلق صلاح الدين الأيوبيّ حملته المضادَّة لاستعادة القدس والأراضي المحتلَّة، وأعلن نفير الجهاد. ومنذ القرن الثالث عشر، ساندوا باستمرار المقاومة ضدَّ مختلف القوى الأجنبيَّة التي حاولت مدَّ نفوذها إلى بلاد الشام. فشاركوا في القتال ضدَّ المغول وقوّات تيمورلنك، وضدَّ الحكومة المركزيَّة العثمانيَّة، وضدَّ تدخُّلات القوى الغربيَّة الكبرى. واستمرَّت حروب الموحِّدين الدروز الوطنيَّة حتَّى القرن العشرين حيث افتتحوه بمشاركتهم في الثورة العربيَّة مع الشريف حسين والملك فيصل ضدَّ الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. وبين عامَي 1925 و1927 انتفضوا وثاروا ضدَّ الاحتلال الفرنسيّ لسوريا، وأَسهموا، على الرغم من هزيمتهم العسكريَّة، في تسريع عمليَّة استقلال سوريا ولبنان. وخلال النصف الثاني من القرن العشرين، ظلَّ دروز فلسطين الذين لم يتركوا أراضيهم وقراهم بعد إنشاء دولة إسرائيل، أوفياء للمصالح العربيَّة الإسلاميَّة، متمسّكين بثقافتهم وحضارتهم وانتمائهم. فشاركوا منذ 1929، في المقاومة العربيَّة التي انطلقت ضدَّ الانتداب البريطانيّ والهجرة الصهيونيَّة، وتصدَّوا بين عامَي 1936 و1948، للاستيطان الصهيونيّ العسكريّ والسياسيّ، وساندوا كلّ الثورات الفلسطينيَّة. وها هم يواصلون اليوم

5. ما عادت هذه التسمية معتمدةً للالتباسات التي تحكمها، وباتت تُعرف بحملات الفرنجة.

إقامة أوثق العلاقات مع قادة المقاومة الفلسطينيَّة والمقاومة اللبنانيَّة، ويدفعون ثمن ذلك غالياً. ويبرز في هذا السياق اسم الدرزيّ سمير القنطار الملقَّب بـ «عميد الأسرى العرب»، الذي شارك في عمليَّةٍ عسكريَّةٍ ضدَّ الاحتلال الصهيونيّ في قلب فلسطين المحتلَّة، وأسرته القوَّات الإسرائيليَّة منذ أكثر من 25 سنة.

يشعر الموحِّدون الدروز «بنبض القوميَّة العربيَّة» ولا يتوانون عن بذل أيّ جهدٍ عسكريٍّ لتأكيد مشاركتهم في مناصرة كلّ القضايا العربيَّة. ويجدر بنا هنا، أن نذكر أنَّ النضال الذي أطلقته الإمارة اللبنانيَّة من أجل الاستقلال أسهم بطريقةٍ غير مباشرةٍ في اليقظة العربيَّة للقرن التاسع عشر، وشكَّل بطريقةٍ ما نقطة انطلاق النهضة اللاَّحقة. ذلك أنَّ اليقظة والوعي القوميَّين العربيَّين يحملان واقعيّاً ملامح التراث السياسيّ الذي حملته الآمال والمطالب الدرزيَّة منذ مطلع القرن، والتي تمثَّلت ببناء شرق أوسطٍ مستقلٍّ عن الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. وقد ظلّ الموحِّدون الدروز تاريخيّاً، من أبرز المتمسِّكين بالتراث العربيّ الأصيل، أكان في ثقافتهم أو فكرهم أو اتِّجاهاتهم السياسيَّة، أم في عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم الفصيحة. وقد جسَّد لهم الأمير فخر الدين الثاني، أحد الأعمدة الثقافيَّة للنهضة العربيَّة، نموذجاً يُحتذى به.

ويبلغ اعتبار الموحِّدين الدروز أنفسهم في الوقت الراهن، مهندسي القضيَّة العربيَّة ورأس حربتها، حدَّ اعتقادهم بأنَّهم أدَّوا دوراً أكبر ممَّا أدَّاه المسلمون السُّنَّة في هذا الإطار. حيث إنَّ السُّنَّة العرب لم يتحمَّسوا على غرار الموحِّدين الدروز، للانتفاضة في وجه الدولة العثمانيَّة أو التمرُّد عليها. وجرى تجاوز هذه القناعة رويداً رويداً، منذ مطلع القرن العشرين، مع دخول الهاشميِّين حلبة معارضة العثمانيِّين ورفعهم لواء الحركة القوميَّة العربيَّة، الأمر الذي أدَّى إلى مشاركة فئاتٍ من السُّنَّة العرب في حركة الملك فيصل، مع بقاء فئاتٍ كبيرةٍ متمسِّكة بالخلافة العثمانيَّة في الأستانة. ومع صعود نجم جمال عبد الناصر، في النصف الثاني من القرن العشرين، تحوَّلت الغالبيَّة العظمى من السُّنَّة إلى صفّ القوميَّة العربيَّة.

الأُصول العربيّة

الموحّدون الدروز عربٌ أقحاحٌ برابطة «الدم والعقليّة والنضال»، وينتمون على مستوى القرابة، كما على مستوى العقليّة والولاء، إلى الثقافة العربيّة. وقد حاول فيليب حتّي في دراسةٍ تاريخيّةٍ قديمة، أن يُلقي نوعاً من الغموض على الأُصول الإثنيّة للدروز، مُدَّعياً أنّهم ينحدرون من خليطٍ سُكّانيٍّ فارسيٍّ عراقيٍّ عربيٍّ[6]. غير أنَّ المؤلّفين والكُتّاب والمثقّفين والمؤرّخين والقادة الموحّدين يؤكّدون ويجزمون عروبة الموحّدين الدروز الصافية، ولو اعتراها بعض التشويش على المستوى التاريخيّ، إلاّ أنّ هذا التشويش تُزيله الرؤية العقيديّة الدرزيّة. ذلك أنّ عقيدة التقمُّص كما تحدّدها الدرزيّة، والقاعدة المذهبيّة التي تقضي بعدم الزواج إلاّ من داخل المذهب والطائفة، تجعل المجتمع الدرزيّ حلقةً مغلقةً منذ القدم. وبحسب الدراسات التاريخيّة، انحدر الموحّدون الدروز من القبائل العربيّة الكبيرة الاثنتي عشرة، التي استوطنت بلاد الشام حتّى قبل الفتح الإسلاميّ، وبالتالي تَمَّ الحفاظ على أنسابهم وجذورهم الإثنيّة على مرّ العقود والقرون بفعل الزواج الداخليّ وعقيدة التقمُّص. ويقدّم المؤلّفون الموحّدون الدروز حُججاً إضافيّةً لدعم نظريّتهم هذه، وهي حججٌ تجد تبريرها أيضاً على مستوى العقيدة، ومن أهمّها اللّفظ العربيّ الفصيح والصافي المعروف عند الموحّدين الدروز، والذي لا يجاريهم فيه أحدٌ[7].

إلاّ أنَّ هذا الالتباس المفتعل والردّ عليه زالا تدريجيّاً على المستوى العمليّ، بما أنَّ انفتاح الموحّدين الدروز ونبذهم أيّ انعزاليّةٍ مناطقيّةٍ أو محلّيّةٍ أو ما شابه، وواقع مشاركتهم وانخراطهم الكامل في السياق الشرق أوسطيّ الأوسع، يجعل مسألة اللُّغة العربيّة الفصحى التي ينطقون بها أقلّ حسماً. كما أنَّ العديد منهم تزوّج

6. راجع كتابه **أُصول الشعب الدرزيّ وديانته مع مقتطفاتٍ من كتبهم المقدّسة** (بالإنكليزيّة)، نيويورك، 1928.

7. راجع في هذا الصدد كتاب سعود المولى عن الأمير شكيب أرسلان: **بنو معروف أهل العروبة والإسلام**، بيروت، المجلس الدرزيّ للبحوث والإنماء، 1990.

ويتزوّج اليوم من خارج الطائفة.

ثمّ إنّ الخلفاء العرب وحُكّام دمشق طلبوا تاريخيّاً، من آل تُنوخ ولخم الذين تنحدر منهم كبرى العائلات الدرزيّة أن يستوطنوا جبل لبنان والساحل بغية صدّ هجمات القوى الخارجيّة، عنينا البيزنطيّة ثمّ الفرنجة. ويمكننا هنا أن نلحظ الدافع الأصليّ الكائن في أساس كلّ الحروب التي خاضها الموحّدون الدروز باسم القضيّة العربيّة، والتي استمرّت وتتالت حتّى القرن العشرين، ما كان له أبلغ الأثر على الوعي الفرديّ والجماعيّ للموحّدين الدروز. فأن تكون عربيّاً لا يعني في نظر الموحّدين الدروز، عراقة الأصل وفصاحة اللُّغة فحسب، بل امتداداً للولاء الثابت والصلب للمصالح العربيّة. فالإمارة التي أَسَّسها الأُمراء الموحّدون الدروز تكون والحالة هذه، تعبيراً عن وحدةٍ لبنانيّةٍ متحقِّقة عبر العائلات العربيّة الحاكمة. ثمّ إنّ استمرارها لفترةٍ طويلةٍ من الزمن دليلٌ على أنّها اندرجت طبيعيّاً في السياق السياسيّ والثقافيّ العربيّ للشرق الأوسط، ونسيجه.

المسلك: خلاصة كلّ التعاليم الدينيّة وضمانة التعدُّديّة والاختلاف

يعتبر الموحّدون الدروز مسلكهم، وبسبب من جذوره الثقافيّة ومحتواه الروحيّ، «طريق الحكمة والتوحيد»، ومكان التقاء كلّ المذاهب والمعتقدات الدينيّة. وفي حين يؤكّدون على هذا الأمر، فهم يحاولون إبراز العناصر المشتركة بين كلّ الأديان. إنّهم في اعتقادهم، الموحّدون الحقيقيّون والمؤمنون بوحدة كلّ الأديان وفقاً لمنطوق وحي الله في الآية 115 من سورة البقرة: ﴿ولله المَشرِقُ والمغرِبُ فأينما تُوَلُّوا فَثَمَّ وجهُ الله إنَّ الله واسعٌ عليم﴾.

وممّا لا ريب فيه أنّ المسلك الدرزيّ ولد، تاريخيّاً وكلاميّاً، من رحم الإسلام، وتحتوي بُنيته التعليميّة على العديد من العناصر المستمدّة من التصوُّف الإسلاميّ، والفكر القرآنيّ، ونهج الحنيفيّة (الزُّهد والنُّسك والتوحيد الحقيقيّ والأصليّ الذي عُرف منذ عهد إبراهيم الخليل). إلاّ أنّ الصحيح أيضاً، أنّ الدرزيّة تحوي عناصر كثيرةً مستمدَّةً من الباطنيّة العرفانيّة والأفلاطونيّة المحدثة والديانة الفارسيّة. ثمّ

إنَّ المسلك الدرزيّ، وبفعل جمع هذه العناصر المختلفة والتوليف بينها، أثبت أنّه خلاصةٌ للعديد من التيّارات الروحيّة والثقافيّة.

ويعطي العيش اللبنانيّ المشترك، وما سمح به من صِلاتٍ وتواصلٍ بين مختلف الطوائف الدينيّة، إطلالةً جليّةً عمّا كانت عليه التبادلات الثقافيّة والفكريّة والدينيّة الحتميّة التي عرفتها بلاد الشام خلال التاريخ. ويترك تراث مختلف الطوائف والمذاهب مجالاً أيضاً للتفكير في ما كانت عليه وما خلّفته تلك الثقافات والحضارات الكبيرة التي عرفتها المنطقة، والتي تعايشت وتجاورت وتواصلت وتتالت في لبنان والشرق الأوسط. ويؤكّد ذلك على أنَّ العقيدة الدرزيّة تشتمل على تراثٍ ماضٍ ما زال حيّاً في ضمير أتباعها ووجدانهم. كما أنَّ المسلك الدرزيّ يتمايز عن غيره من المذاهب الدينيّة من حيث إنّه التقاء كلّ المعتقدات الدينيّة والثقافيّة والروحيّة القديمة، وتفاعلها وتبلورها في خلاصةٍ هي قمّةٌ جديدةٌ أنتجت نظاماً عقيديّاً جديداً وفريداً، ما يجعله يبدو أشبه «نوعاً ما باليونان القديمة، الصغيرة والإنسانيّة في آنٍ معاً، أو إحدى الساحات العامّة في مدنها القديمة»، والتي كانت أماكن حوارٍ ونقاشٍ وتبادلٍ ثقافيٍّ وفكريٍّ ثريّ.

ومن بين العناصر الرئيسة التي تحدِّد جوهر المعتقد الدرزيّ وطبيعته، يحتلّ «الزُّهد، وتصوُّر الواقع الجوهريّ، وروحيّة أن لا شيء يمكن أن يقف في طريق البحث عن المطلق» مكانةً حاسمة. وبنتيجة ذلك لا يتحدَّد المسلك الدرزيّ باعتباره دين شريعةٍ وقوانين مثل الإسلام واليهوديّة، وإنّما دين «تقوى روحيّة». وما إن تُحدِّدها أنّها ديانةٌ بدون قوانين وشرائع، تُمسي حينذاك محرَّرة من أيّ قيدٍ أو فرض، ومن أيّ تناقضٍ مع الديانات التوحيديّة الأُخرى، لتصبح بالتالي حيِّز التقاء مختلف الديانات وتعاليم الحكمة، ومسلكها هو العرفان الباطنيّ الذي لا يحدُّه زمانٌ أو مكان. لذا، لا يمكن اتّهام الموحّدين الدروز بالطائفيّة أو المذهبيّة طالما أنّهم يشكّلون وحدةً اجتماعيّةً وسياسيّةً، وليس طائفةً دينيّةً مغلقةً على نفسها. ويعود تضامنهم ولحمتهم إلى الشعور الوطنيّ أكثر منه إلى تعبيرٍ عن شعورٍ بالانتماء الحصريّ إلى ديانةٍ محدَّدة. وبسبب كونها مكان التقاء كلّ الأديان،

تؤكّد الدرزيّة على الجذع المشترك لكلّ الأديان. فعلى الرغم من تعدُّد أشكال هذه الأديان وطقوسها تراها ترتكز على طرح أنَّ الإنسان مدعوٌّ إلى التحرُّر خلال بحثه عن الحقيقة المطلقة المتجاوزة حاجز المادَّة أو قيودها، متطلّعةً كلّها لبلوغ الحكمة. وحده الزهد والتقشُّف الدينيّ يمكنهما أن يجيبا على الأسئلة الكبرى التي يطرحها الإنسان، وخصوصاً حول الوجود وسببه ومعناه وأصل الحياة ومفاهيم الولادة والموت والحياة. ويدعو الموحّدون الدروز من خلال تمسُّكهم بسُلَّم قِيَم أخلاقيَّةٍ ثابتة، إلى تجاوز كلّ الانقسامات الدينيَّة بغية الوصول إلى حقيقةٍ إنسانيَّةٍ أعمق، هي جوهر الروحانيَّة الحقَّة. فالأديان في نظرهم، روافد تصبّ في مجرى نهرٍ واحدٍ وحيد.

الموحّدون الدروز جزءٌ من الإسلام

على الرغم من أنَّه ثبت أنَّ مسلك التوحيد الدرزيّ هو حيِّز التقاء كلّ الأديان، إلاَّ أنَّه ولد من رحم الإسلام، ويستلهم، روحاً وتطبيقاً، التعاليم الإسلاميَّة. ويرفض الموحّدون الدروز رفضاً قاطعاً، التخلّي عن الأصل الذي منه ولد إيمانهم ومسلكهم. وتُراهم يؤكّدون على العروة الوثقى التي تربط عقائدهم بتيَّار الشيعة الإسماعيليَّة الفاطميَّة، والتي تعطي حتماً شرعيَّةً لانتمائهم إلى الإسلام بصلة قُربى بالرغم من الانشقاق الذي حصل بين الموحّدين الدروز والخلافة الفاطميَّة في القرن الحادي عشر للميلاد. كما أنَّهم يعتبرون أنفسهم الورثة الحقيقيِّين والشرعيِّين للإسلام، والمحافظين على روح ديانة إبراهيم، الجذر الحقيقيّ للإسلام وتعاليم النبيّ محمَّد (صلعم). من هنا، إصرارهم على أنَّهم يجسِّدون بشكلٍ كاملٍ ومطلقٍ حقيقةَ الإسلام وقلبه وروحه، متباهين بانتمائهم إلى «المسلمين الحقيقيِّين الأوائل»، من خلال إيمانهم وفهمهم للتوحيد واحترامهم الوحي القرآنيّ المصدر الرئيس لمنابع روحانيَّتهم.

خلاصةٌ وخاتمة

جسَّد حُكم الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني حلاًّ مثاليّاً للمسألة اللبنانيَّة، إذ عرف هذا الأخير بحكمته، كيف يقيم المساواة بين اللبنانيِّين ويعطيهم الحقوق والواجبات نفسها. فوحَّد كلمتهم دون أن يفرِّق بينهم على قاعدةٍ طائفيَّةٍ أو عشائريَّةٍ أو غيرها، لا بل إنَّه احتقر الممارسات السياسيَّة السائدة في زمنه والمستندة إلى الانقسامات بين مسلمين ومسيحيِّين. كما طبَّق فخر الدين نظاماً عادلاً في الشرق الأوسط قبل أن يُطبِّق الغرب نفسه هذه الفكرة. ثمَّ نشأت فكرةُ إقامة دولةٍ عربيَّةٍ موحَّدةٍ مشتملةٍ على كلّ بلاد الشام، فلقيت هذه الفكرة دعم الموحِّدين الدروز والتزامهم وحماسهم. وبالرغم من وعي الموحِّدين الدروز أنَّهم ليسوا سوى أقلِّيَّةٍ صغيرةٍ داخل دولةٍ كهذه، إلاَّ أنَّهم لم يبخلوا بالغالي والرخيص في سبيل هذا الحلم، مقدِّمين التزامهم الوطنيّ والقوميّ على شعورهم الأقلَّويّ أو المذهبيّ. ويُعتبر الموحِّدون الدروز اليوم، أقلّ الجماعات الشرق أوسطيَّة خوفاً من وضعهم الأقلَّويّ أو ضعفهم الديموغرافيّ. فهم لم يطالبوا طوال تاريخهم بأيّ قوميَّةٍ درزيَّةٍ تعمل على تحويل خصوصيَّتهم إلى كيانٍ سياسيّ، حتَّى في تلك الأوقات التي شكَّلت ظروفاً مناسبةً لتحقيق مطلب مماثل، وتحديداً في ظلّ حكم الأمراء التنُّوخيِّين والمعنيِّين.

وأظهر موحِّدو «جبل الدروز»، خلال الانتداب الفرنسيّ، ضروباً من تعلُّقٍ لا يضاهى بالقوميَّة العربيَّة حتَّى على حساب مصالحهم الخاصَّة. وتُعتبر ثورة عام 1925 الدرزيَّة ضدَّ السلطات الفرنسيَّة عربيَّةً بامتياز، وذلك بفعل مسيرتها وتفاصيلها كما دوافعها وأهدافها. فقد أظهر سلطان باشا الأطرش تضامناً مع

بقيَّة المناطق السوريَّة بشكلٍ منقطع النظير، رافضاً التقسيم الإداريّ الفرنسيّ، على الرغم من أنَّه في روحه، يؤسِّس لدولةٍ درزيَّةٍ مستقلَّة. فاتَّخذت ثورته ضدَّ الفرنسيِّين سِمَةً عربيَّةً قوميَّةً، لاطائفيَّةً ولامناطقيَّةً ولادينيَّة. وقد رفض الأطرش، في قمَّة انتصاراته، التخلِّي عن المبادىء القوميَّة العربيَّة لصالح امتيازاتٍ اقترحت سلطات الانتداب إعطاءَها للدروز. أمَّا في التاريخ المعاصر، فنرى كمال جنبلاط يناضل بدوره من أجل الحفاظ على هوِّيَّة لبنان العربيَّة، ناسجاً في الوقت نفسه، وفي مرحلةٍ أولى، أمتن العلاقات مع سوريا، ومؤمِّناً الدعم والحماية للمقاومة الفلسطينيَّة إبَّان الحرب الأهليَّة.

غير أنَّ الواقع الحاليّ يُبرز هوَّةً سحيقةً بين التراث التاريخيّ للدروز ودورهم الأساسيّ في بناء لبنان الحديث من جهة، وبين الموقع المحدود وشبه الهامشيّ الذي تُرك لهم اليوم في لبنان، من جهةٍ أخرى. مع الإشارة إلى عدم جواز التقليل من قيمة التحوُّل والتغيير الذي عرفه لبنان منذ القرن التاسع عشر، في سياق فقدان الموحِّدين الدروز للدور والموقع. فنتائج السياسات الأوروبيَّة والانتدابيَّة من ناحية، وسوء تطبيق الميثاق الوطنيّ للعام 1943، ثمَّ ميثاق 1990 من ناحيةٍ أُخرى، يشيران إلى أنَّ لبنان ما زال يخضع في وضعه الداخليّ لآثار التغيُّرات الجارية في الشرق الأوسط، والعالم العربيّ بشكلٍ عامّ. وقد أدرك الموحِّدون الدروز معنى هذا الأمر، وتعرَّضوا لنتائجه ومفاعيله، وفقدوا بالتالي دورهم المميَّز بسبب تنامي نفوذ الطوائف اللبنانيَّة الأُخرى على المستويات الثقافيَّة والماليَّة والاقتصاديَّة، وعلى المستوى الديموغرافيّ تحديداً. وقد لعبت الديموغرافيا دوراً حاسماً في لعبة التوازن الداخليّ في لبنان، مقلِّلةً من هامش المناورة الذي تتمتَّع به الأقلِّيَّات كالموحِّدين الدروز، وغيرهم.

لم يشعر الموحِّدون الدروز يوماً، على الرغم من كونهم أقلِّيَّةً مذهبيَّةً وطائفيَّةً، بالعقدة الأقلَّويَّة على المستوى الوطنيّ أو القوميّ. فقد اعتبروا أنفسهم دوماً جزءاً لا يتجزَّأ من الأكثريَّة العربيَّة والإسلاميَّة. فأهمِّيَّتهم في تاريخ الشرق الأوسط تنبع من التمييز بين شخصيَّتهم الدينيَّة وشخصيَّتهم الوطنيَّة والقوميَّة. وقد أبرزوا

هذا التميُّز في مسلكهم الأخلاقيّ، وإيمانهم العقيديّ، وممارستهم السياسيَّة. ولو أنَّ سلوكهم السياسيّ بدا محكوماً على الدوام بقِيَم وأخلاقيَّات يحدِّدها مسلكهم الدينيّ، بيد أنَّه لم يستطع أن يفرض نفسه لولا ترفُّع العقيدة الدينيَّة عن السياسة. فالنظام السياسيّ الطائفيّ في لبنان يختلف عن التراث السياسيّ والاجتماعيّ والثقافيّ للموحِّدين الدروز، لكنَّهم يتعاملون معه بواقعيَّةٍ بغية الحفاظ على حقوقهم الأساسيَّة. ويأتي هذا الخيار العقلانيّ، الذي صار سلوكاً سياسيّاً، حلاً مؤقَّتاً، إذ إنَّ التاريخ أثبت أنَّ الموحِّدين الدروز يكونون أكثر توازناً وانسجاماً في ظلّ نظام علمانيٍّ[1] وطنيٍّ لا طائفيّ. فنظامٌ وطنيٌّ علمانيٌّ يبقى وحده رادعاً لأيّ شعورٍ بالأقَلَّويَّة، وحافزاً لممارسة دورٍ أكثر فاعليَّةً على المستويَين القوميّ والعربيّ، ما يدفع باتِّجاه تحقيق الموحِّدين الدروز لرسالتهم التاريخيَّة منذ الأسلاف والأجداد.

من هذا المنطلق، يبرز جليّاً أنَّ الموحِّدين الدروز يجهدون في سبيل البقاء أوفياء لهدفهم السياسيّ التاريخيّ المتمثِّل بالدفاع عن عروبة لبنان واستقلاله. وها هم يحملون في الوقت نفسه، راية الدفاع عن الفكرة اللبنانيَّة التي كانوا روَّادها وأصحابها منذ القرن السابع عشر، رافضين تكوين كيانٍ جغرافيٍّ خاصٍّ بهم، أو القبول بتقسيم لبنان أو تجزئته. وها هم يعبِّرون اليوم خصوصاً، عن رغبتهم في المشاركة الكاملة في إدارة شؤون البلاد، وفي العيش في ظلّ توزيع أكثر عدالةً ومساواةً للسلطات بين مختلف الطوائف، يحقِّق شفَّافيَّةً أفضل في الحكم والمؤسَّسات. ثمَّ إنَّهم لا يرون لبنان على غير صورته الحاليَّة بكيانه وحدوده وسيادته واستقلاله، رافضين أيّ تدخُّلٍ أجنبيٍّ في شؤونه، ومصمِّمين على التصدِّي لكلّ اعتداءٍ إسرائيليّ.

إذاً، يشارك الموحِّدون الدروز الأغلبيَّة المسلمة قِيَمها ورؤاها واتِّجاهاتها. هكذا يتأكَّد انتماؤهم الصادق، دون مراوغةٍ أو مساومة، إلى التيَّار القوميّ العربيّ تاريخاً وحاضراً، وحتماً مستقبلاً.

1. علمانيّ بمعناه المدنيّ، حيث للدِّين موقعه في الحيِّز الخاصّ دون الحيِّز العامّ.

النسيج السياسيّ والديموغرافيّ

على الرغم من الظروف السياسيَّة القاسية والصعبة التي يعيشها العالم العربيّ، ينبغي عدم الاستهانة بوزن الجماعات الدرزيَّة في الشرق الأوسط، أو التقليل من شأنها، باعتبار أنَّها تشكِّل شبكةً قويَّةً ومتينةً ومترابطةً في المنطقة. ويُظهر الموحِّدون الدروز شعورهم الوطنيّ والقوميّ أينما وجدوا، من خلال التأكيد على تمسُّكهم بأرضهم وتراثهم التاريخيّ. وبالإضافة إلى لبنان حيث يقومون بدورٍ مؤثِّرٍ في الحياة السياسيَّة الوطنيَّة، يتواجدون في الجولان السوريّ الذي تحتلُّه إسرائيل، وفي فلسطين المحتلَّة حيث يشكِّلون جماعةً ناشطةً ومتماسكة، وفي جبل الدروز حيث تواجدهم الديموغرافيّ كبير. ويكوِّن هذا الانتشار الديموغرافيّ في مختلف المناطق الأساسيَّة من الشرق الأوسط، قوَّةً راجحةً ومهمَّةً في التوازن الإقليميّ في صفّ المصالح العربيَّة، بحيث إنَّه يستطيع مواجهة النفوذ الإسرائيليّ، ويُحجِّم امتداداته.

الموحِّدون الدروز وسوريا

يتمسَّك الموحِّدون الدروز بعلاقةٍ متميِّزةٍ مع سوريا، ولهم معها تاريخٌ طويلٌ من العلاقات الثابتة، تجعلها في نظرهم البلد الملجأ بامتياز، والحليف الذي لا يتزحزح. وهم أقاموا علاقاتٍ سياسيَّةً وثقافيَّةً وثيقةً ومميَّزةً مع سوريا طوال مرحلة الإمارة اللبنانيَّة التي تأسَّست في القرن السابع عشر، على يد الأمير فخر الدين. وشكَّلت سوريا أيَّام النزاع بين القيسيَّة واليمنيَّة، ملجأ اليمنيِّين الذين انهزموا في الصراع في لبنان، كما ملجأ الموحِّدين الدروز الذين طاردتهم السلطات العثمانيَّة أو سلطات الانتداب. واستحقّ جبلا الدروز في لبنان وسوريا، عام 1925، تسمية «قلب الثورة على الانتداب»، وقد عُرفت بالثورة السوريَّة الكبرى كما بثورة جبل الدروز. وقدَّم جبل الدروز في سوريا، المقاتلين الذين انضمُّوا إلى إخوانهم في لبنان إبَّان ثورة 1958. وأثناء الحرب الأهليَّة اللبنانيَّة (1975-1990)، حاول السوريُّون تجنيب لبنان مخاطر التقسيم، والحفاظ على عروبته، ودعموا الموحِّدين الدروز كما غيرهم من طوائف لبنان. وبقي الموحِّدون الدروز ممتنِّين لهذا الدعم

والدور السوريّ خلال حرب الجبل والثمن الغالي الذي دفعه السوريُّون لوقف الغزو الإسرائيليّ. وبسبب من هذه العلاقات الثابتة، ثَمَّن الموحِّدون الدروز الدورَ السوريّ في لبنان، مع تأكيدهم على استحالة المساومة على سيادة لبنان واستقلاله، وعلى حرِّيَّة اللبنانيِّين في إدارة شؤونهم الداخليَّة بأنفسهم دون أيّ تدخُّلٍ خارجيّ. إذ يعتبر الموحِّدون الدروز أنَّ الدور السوريّ في لبنان، في فترةٍ من فتراتِ الحرب، مثَّل عاملَ توازنٍ واستقرار، على الرغم من الخلافات التي نشبت بين بعض الزعماء الموحِّدين والقيادة السوريَّة في بداية الحرب الأهليَّة. وفي خلاصة الإضاءة على هذه العلاقة، يقدِّر الموحِّدون الدروز الدعم السوريّ للمقاومة الوطنيَّة اللبنانيَّة والدور السوريّ في ترسيخ دعائم السلم الأهليّ.

إلاَّ أنَّهم، وبسبب من تمسُّكهم بسيادة لبنان واستقلاله وقراره الحرّ، اعترضوا على التدخُّل السوريّ في الشؤون السياسيَّة اللبنانيَّة وفي كلّ أوجه الحياة الوطنيَّة. من هنا، يمكن تفسير المعارضة العنيفة التي تُبديها أبرز القوى السياسيَّة في الطائفة ضدَّ استمرار الوجود العسكريّ السوريّ بعد إنجاز التحرير سنة 2000، والمطالبة بإعادة التموضع وفق اتِّفاق الطائف. وبعد اغتيال الرئيس رفيق الحريري، اشتدَّت المعارضة الصلبة ضدَّ التدخُّل السوريّ في الشؤون اللبنانيَّة، وازدادت المطالبة بإخراج القوَّات السوريَّة ومخابراتها، والكفّ عن التدخُّل في سائر الشؤون الوطنيَّة.

وقد تجلَّت إحدى مظاهر هذا التدخُّل السوريّ في شؤون الطوائف، ومنها طائفة الموحِّدين الدروز، عندما منعوا القوى السياسيَّة من الاتِّفاق على قانون تنظيم شؤون الطائفة الذي يتيح، في حال إقراره، انتخابَ مجلس مذهبيٍّ واختيار شيخ عقلٍ جديد، بعد أن استغلَّت بعض القوى هذا التدخُّلَ لتضييع أو تأخير فرصة قيامِ هيئاتٍ درزيَّةٍ منتخَبَةٍ لتولِّي شؤونها الداخليَّة وترتيب «شؤون البيت الداخليّ».

إلاَّ أنَّ الجغرافيا والتاريخ لا يتغيَّران، وما يجري حاليّاً هو مرحلةٌ استثنائيَّةٌ لأنَّ الموحِّدين الدروز لا غنى لهم عن سوريا، شرط أن تتَّسم العلاقة بالندِّيَّة والاحترام

وعدم التدخُّل، وفق علاقاتٍ متوازنةٍ لمصلحة البلدين. من هنا، مال الموحِّدون الدروز إلى إنشاء علاقاتٍ دبلوماسيَّةٍ طبيعيَّةٍ بين البلدين بما يكفل حسن الجوار.

الموحِّدون الدروز وإسرائيل

حرم المحتلُّون الإسرائيليُّون أهل فلسطين حقوقهم الأساسيَّة، وعلى رأسها الحقّ في قيام دولتهم المستقلَّة، النقطة الأساس للحفاظ على هوِّيَّتهم والمفاخرة بها، والعيش في ظلِّها أسوةً بكلّ شعوب الأرض. غير أنَّ الموحِّدين الدروز الذين يعيشون في فلسطين المحتلَّة، وبخلاف إخوانهم السوريِّين أو اللبنانيِّين، اضطرُّوا إلى التشديد على خصوصيَّتهم بسبب من رفضهم بناء أيّ فسحةٍ مشتركةٍ مع الصهاينة. وإذا ما تمتَّعت هذه «الأقلِّيَّة» في فلسطين بـ «امتيازاتٍ» منحها إيَّاها الاحتلال، إلاَّ أنَّ ذلك ما ألزمها التخلِّي عن هوِّيَّتها العربيَّة أو عن التضامن مع أشقَّائها الفلسطينيِّين. هنا، يجدر بنا الاعتراف بصعوبة الوضع الذي تعيشه تلك الأقلِّيَّة، كما بالجهد والعمل اللذين تقوم بهما للاستمرار والحفاظ على الهوِّيَّة والأرض. ذلك أنَّ الموحِّدين الدروز في فلسطين، يواجهون تحدِّياً هائلاً، إذ إنَّ دولة إسرائيل تحاول سلخهم عن الإسلام والعروبة، وعزلهم عن القضيَّة الفلسطينيَّة. فتراها تعمد إلى تسويق فكرةٍ تقول بأنَّ الموحِّدين الدروز يشكِّلون شعباً قائماً بذاته مستقلاًّ عن بقيَّة الفلسطينيِّين أو العرب، كما يشكِّلون ديانةً مختلفةً قائمةً بذاتها أيضاً.

يتمرَّد الموحِّدون الدروز على هذه المحاولات من خلال إعادة التأكيد على هوِّيَّتهم العربيَّة وانتسابهم إلى الإسلام. وبالأسلوب عينه يقاوم، موحِّدو الجولان السوريّ المحتلّ محاولات إذابتهم أو دمجهم بإسرائيل، مجاهدين في سبيل حماية هوِّيَّتهم الوطنيَّة والقوميَّة. ويعيش موحِّدو الأراضي المحتلَّة على إيقاع نبض أشقَّائهم ومواطنيهم الفلسطينيِّين بالرغم من أنَّهم يخضعون لظروفٍ اقتصاديَّةٍ وسياسيَّةٍ صعبة. ثمَّ لا بُدَّ من الإشارة إلى أنَّ أقلِّيَّةً صغيرة الحجم لا تستطيع وحدها تحمُّل عبء مهمَّةٍ ضخمةٍ ومعقَّدةٍ كتلك التي تفترضها مقاومة الكيان الصهيونيّ. ويَلِجُّ اليوم إطلاق وعيٍ عربيٍّ لدعم الأقلِّيَّة الدرزيَّة في فلسطين والجولان المحتلَّين،

في وجه كلّ مساعي تذويبهم وتحييدهم والقضاء على عروبتهم.

وليس صحيحاً أنَّ الموحِّدين دروز في فلسطين المحتلَّة استكانوا للهجمة الصهيونيَّة، حيث كشف الشاعر الفلسطينيّ الدرزيّ سميح القاسم أنَّ أوَّل تنظيم للكفاح المسلَّح في فلسطين، هو تنظيم «الكفّ الأخضر» الذي أسَّسه المناضل أحمدً طافش من بيت جن، عام 1929. وشاركه في التأسيس سبعة وعشرون مجاهداً من أبناء العشيرة المعروفيَّة العربيَّة. كما أبرز سميح القاسم مشاركتَهم في ثورة العامين 1936 و1948. وإذا سبَّب انهزام جيش الإنقاذ أمام القوى الصهيونيَّة إخمادَ ثورتهم، إلاَّ أنَّ شعلة الانتفاضة المتصاعدة والمقاومة المستمرَّة تعطيان موحِّدي فلسطين المحتلَّة سبباً لإشعال غضبهم تجاه المحتلّ الإسرائيليّ[2].

الموحِّدون الدروز في مواجهة تحدِّيات الحداثة

يواجه الموحِّدون الدروز، على غرار بقيَّة العرب واللبنانيِّين والمسلمين، تحدِّي الحداثة المعاصرة. فالشرق الأوسط يعيش أصعب الأوقات بسبب الحروب المتتالية وانعدام الاستقرار السياسيّ وتصاعُد موجة الأُصوليَّات الدينيَّة. كما يعاني جموداً سببه منع قيام آليَّاتٍ ديمقراطيَّة، وقمع الحرِّيَّات، وغياب الإصلاحات الاجتماعيَّة والتربويَّة والاقتصاديَّة، وغيرها. فالعالم العربيّ الذي يعتبر نفسه متمدِّناً وغنيّاً، يمرُّ حاليّاً في مرحلة انحطاط، ويواجه العولمة في معركةٍ مفتوحةٍ لتقسيم العالم إلى معسكرَين متحاربَين، مؤمنين وكَفَرة، وفي هذه القسمة استعادةٌ لشعاراتٍ وعناوين ودعواتٍ تعود إلى القرون الوسطى. كما أنَّ الإسلام يعاني هو الآخَر من أزمة، حاملاً صورةً لا تنسجم مع حقيقة دعوته ورسالته. ثمَّ إنَّ تراجع قوى الاعتدال لصالح تقدُّم التطرُّف والأصوليَّة يُبعد الإسلام عن طبيعته الأصيلة التي هي السماحة والرحمة والاعتراف بالآخَر المختلف.

---

2. راجع كتابنا عن الحوار والمصالحة والسلم الأهليّ، 2002، دور دروز فلسطين المحتلَّة عام 1948: أزمة هويَّة أم عقدة خصوصيَّة، ص. 161-165.

من المؤكَّد أنَّ الموحِّدين الدروز الذين يعيشون في الشرق الأوسط، مدعوُّون إلى عدم الانغلاق على أنفسهم، بل إلى محاولة استعادة الدور التاريخيّ الذي لعبوه في الماضي، والتحرُّر من العُقَد الدينيَّة والسياسيَّة. فهم لا يستطيعون مواجهة الحداثة والاستمرار في حمل خطابٍ مزدوج عن هوِّيَّتهم ومعتقدهم. فآخِر إصلاح قاموا به يعود إلى أكثر من خمسة قرونٍ، ولم يحظوا منذها بإمام من طينة الأمير السيِّدُ عبدالله التنُّوخيّ، كما أنَّهم عجزوا عن تنظيم أمرهم لمواجهة الأسئلة والقضايا التي أوصلتهم إلى حالة ضياعٍ دينيَّةٍ عميقة. فترى كلّ حكيم وشيخ وعاقلٍ وجويِّدٍ درزيٍّ يقوم بتأويل عقائد المذهب التوحيديّ بما يخالف تأويلات غيره. كما أنَّ طائفة الموحِّدين الدروز في لبنان، لا تملك تاريخاً في التفسير الموحَّد للعقيدة. ويتغذَّى هذا الضياع والتخبُّط من غياب مرجعيَّةٍ دينيَّةٍ درزيَّةٍ عليا تماثل تلك التي لسائر المذاهب الإسلاميَّة كالأزهر في القاهرة بالنسبة للسُّنَّة، أو حوزات قُم والنجف عند الشيعة. وقد حاول مؤخَّراً بعض دروز المهجر، وخصوصاً في أميركا، أن يوضحوا لأنفسهم شيئاً من هذا الغموض والضياع بإعلانهم أنَّهم يعيشون إيمانهم بطريقةٍ حرَّةٍ وعصريَّةٍ، فأسَّسوا مواقع على الشبكة العالميَّة (الإنترنت) يشرحون عبرها نهجهم في فهم العقائد الدرزيَّة. فالموحِّدون الدروز الذين تمكَّنوا من اجتياز المراحل التاريخيَّة الصعبة، والاحتفاظ بهوِّيَّتهم وعقيدتهم، مدعوُّون أيضاً اليوم، مثلهم في ذلك مثل بقيَّة الطوائف، إلى التكيُّف مع روح العصر، لأنَّ العيش في دائرةٍ مغلقةٍ مُضرّ. وإنَّ أقلِّيَّة، كطائفة الموحِّدين الدروز، تمتلك هذا التراث الخصب، لها كلّ الحقّ في أن تفتخر بهوِّيَّتها وتتحرَّر من كلّ عُقَدها تجاه الإسلام والعرب.

أيَّة رسالةٍ اليوم؟

عام 1987، وخلال المؤتمر السنويّ للجمعيَّة الدرزيَّة الأميركيَّة الذي انعقد في دورانغو من ولاية كولورادو، طُرحت على الموحِّدين الدروز دعوةٌ إلى تشكيل مجمع «مسكونيّ» يعمل على توحيد خُطابهم، ووقف كلّ أشكال التأويل والتفسير الفرديَّة. في اعتقادي، يبدو هذا الطرحُ السبيلَ الأسلم إلى التفكُّر والتدبُّر، وإعادة

صياغة أفكار الموحِّدين وتجديدها لكي تلعب دوراً إيجابيّاً وفعَّالاً على المستوى الوطنيّ اللبنانيّ، كما على المستوى الإقليميّ الشرق أوسطيّ[3].

تتعيَّن رسالة الموحِّدين الدروز الجديدة في مشاركتهم في تجديد الفكر والخطاب الإسلاميَّين، بما يؤمِّن حمايةً لهوِّيَّتهما الأصيلة. فمن خلال هذا التجديد وحده يمكن للإسلام أن يُسهم في سعادة البشريَّة، وفي التخفيف من حدَّة الأفكار المسبقة حياله، والتي سبَّبتها تلك النـزاعات الدائرة بين مسلمين وغير مسلمين في أكثر من مكانٍ في العالم، وفي وضع حدٍّ للتطرُّف من أيِّ جهةٍ أتى ولأيِّ فئةٍ انتمى، إذ إنَّ التطرُّف يغتذي من التطرُّف ويُغذِّيه.

أمَّا على المستوى الوطنيّ، فعلى الموحِّدين الدروز متابعة النضال في سبيل توزيع أكثر عدالةً لإدارة الشأن العامّ في لبنان، ومن أجل عيش مشتركٍ حقيقيٍّ قائم على الاحترام والعدالة والمساواة بين الطوائف. كما على الموحِّدين الدروز مقاومةً كلّ اتِّجاهٍ متطرِّفٍ، في سبيل أن يبقى لبنان أميناً لرسالته الأصيلة، بلداً موحَّداً ومجتمعاً متعدِّد الطوائف، مبرهناً أنَّ التعدُّد الثقافيّ هو مصدر ثروةٍ وغنًى، لا مُنتِجُ نزاعاتٍ وصراعات. فتطوُّر لبنان كما باقي البلدان العربيَّة، لا يستقيم إلاَّ من خلال تسييد التوافق بين الطوائف المختلفة، على أن تَجِدَّ هذه معاً في بلورة رؤيةٍ متينة الأُسس لمواطنيَّةٍ حقيقيَّةٍ تحفظ لكلٍّ منها خصوصيَّتها، كما تُفسح في المجال لتعزيز العامّ والمشترك لصالح الجميع، عن طريق بناء الدَّولةِ المدنيَّةِ الواحدةِ والجامعة والتي تُشكِّل ضمانةً للوجود الحرّ وإطاراً صالحاً للعَيْش الواحِد بين جميع اللبنانيِّين.

---

3. أُنظر الملحق رقم 5، نصّ المداخلة في المؤتمر المذكور.

خاتمة

لم يكن الأمير شكيب أرسلان الوحيد الذي عمل من أجل اندماج الموحِّدين الدروز في قلب الجماعة المسلمة، لا بل هو شكّل تيّاراً داخل طائفة الموحِّدين الدروز. غير أنَّ بقيَّة أعضاء هذا التيَّار انتهوا إلى إعلان أنَّهم مسلمون سُنَّة، ناكرين درزيَّتهم، رافضين حتَّى أن يُسجَّل مذهبهم الدرزيّ على بطاقة هوِّيَّتهم. ولم تُستكمل جهود شكيب أرسلان بعد وفاته، إذ لم يقتنع الموحِّدون الدروز تماماً بها. أمَّا كمال جنبلاط فانخرط بشكلٍ أوسع في إظهار الطابع الإسلاميّ للموحِّدين الدروز، مع التشديد على إبراز الخصوصيَّة التي تميِّزهم. يبقى أنَّ العمل الحقيقيّ المطلوب إنجازه يتمثَّل في العمل على تكريس وضع نعترف فيه بعضنا ببعض، ونحترم فيه كلّ خصوصيَّات الآخَر دون خوفٍ أو عقَد، ودعوة كلّ المسلمين إلى الاعتراف بالموحِّدين الدروز واحترامهم كما هم، كما تحفيز المسلمين السُّنَّة على قبول الأقلِّيَّات الإسلاميَّة الأُخرى كما هي واحترام خيارها.

أمَّا الموحِّدون الدروز فيقع على عاتقهم أن يلعبوا دوراً رائداً، ليس على مستوى الحوار بين الطوائف الإسلاميَّة والمسيحيَّة فحسب، بل على مستوى الحوار الإسلاميّ الداخليّ الذي ينبغي أن يشمل كلّ المسلمين. ثمَّ يقع على عاتقهم التخلِّي عن مخاوفهم وعقدهم، لكي يقفوا كمسلمين، بثباتٍ وثقةٍ، وجهاً لوجهٍ مع بقيَّة المسلمين، في حوار مصارحةٍ ومكاشفة. فإنَّ تراثاً كالذي يمتلكونه ينبغي أن يدفعهم إلى العمل في سبيلِ فتح قنوات الحوار والتواصل مع بقيَّة المسلمين، وخصوصاً مع السُّنَّة الذين يشكّلون الأغلبيَّة في الشرق الأوسط. غير أنَّ جهداً مماثلاً لا يتعلَّق فقط بالموحِّدين الدروز، طالما أنَّ الشيعة يواجهون وضعاً مشابهاً في علاقتهم بالتطرُّف السُّنِّيّ. وفي هذا الإطار، أنشأ الإمام الراحل الشيخ محمَّد مهدي شمس الدين عام 1990، أمانةً عامَّةً للقمَّة الروحيَّة الإسلاميَّة في لبنان، بغية تفعيل هذا الحوار.

غالباً ما كنتُ أَدعو، خلال الرحلات التي كنَّا نقوم بها في إطار الفريق العربيّ

للحوار الإسلاميّ المسيحيّ، مشايخ الموحِّدين الدروز للحضور والمشاركة في المؤتمرات التي نعقدها. وقدَّمت ردود الفعل الإيجابيَّة والمُرحِّبة التي لمسناها خيرَ دليلٍ على ضرورة حواراتٍ مماثلة. وقد شارك مشايخ الموحِّدين الدروز، ولأوَّل مرَّةٍ، في مؤتمرات حوارٍ إسلاميٍّ مسيحيٍّ انعقدت خارج لبنان. وفي المؤتمر المنعقد في تمُّوز 2004، في القاهرة، حيث رافقني الشيخان فندي شجاع وسامي أبو المُني، طلب منِّي الدكتور محمَّد سليم العوا، وهو الشخصيَّة الإسلاميَّة البارزة، والمفكر اللاَّمع، وصاحب الكلمة والنفوذ في الأوساط الإسلاميَّة، ونائب رئيس تجمُّع علماء المسلمين في العالم، وأمينه العامّ، وعضو الفريق، طلب منِّي العمل على تنظيم مؤتمرٍ درزيٍّ إسلاميٍّ لمناقشة ما يشغل الطرفين. قد يسمح مشروعٌ مماثل باستعادة فكر شكيب أرسلان وعمله، واستكماله بحثاً عن الوحدة العربيَّة الإسلاميَّة. كما قد يؤدِّي إلى فتح الطريق أمامٍ حوارٍ جديدٍ يُسهم في تبديد الهواجس والشكوك وعوامل الحذر والخوف، ويشكل بدايةً لوحدةٍ إسلاميَّةٍ راسخةٍ صلبةٍ تعترف ليس فقط بخصوصيَّة كلّ طرفٍ إسلاميّ، بل أيضاً بالتعدُّد والاختلاف الذي تحدَّث عنه القرآن الكريم كسُنَّةٍ إلهيَّة، كما في الآية 93، من سورة النحل: ﴿ولو شَاءَ اللهُ لَجَعلَكم أُمَّةً واحدة﴾، أو كما جاء في الحديث النبويّ الشريف: «إختلاف أُمَّتي رحمة».

يتأكَّد لنا، يوماً بعد يوم، أنَّ فكرة تبديد الهواجس والشكوك وعوامل الحذر والخوف، والجلوس معاً للحوار والنقاش، باتت أكثر من ضرورةٍ لتطبيع العلاقات بين المسلمين، وتسهيل الحوار الإسلاميّ المسيحيّ. لا سيَّما وأنَّ هذا الحوار يُثبت ضمانةً وحيدةً لحياةٍ سلميَّة في الشرق الأوسط العربيّ، وردّاً على الخطاب الإسرائيليّ الهادف إلى فرض مجتمعٍ أُحاديٍّ لا تعدُّد فيه ولا اختلاف. التحدِّي الرئيس الذي ينبغي التفكير فيه هنا، والعمل على إرساء دعائم قِيَمه، مع المسلمين والمسيحيِّين على السواء، هو القبول المتبادَل والتعاون في الأُمور المتَّفق عليها، وقبول الاختلافات، والحوار الجادّ المخلص حولها. وهذا الطريق وحده سيساعد الموحِّدين الدروز على عيش هوِّيَّتهم وخصوصيَّتهم بصورةٍ أفضل.

ختاماً، لا بُدَّ لي من الإشارة إلى أنَّ ما تضمَّنه هذا المؤلَّف، استند إلى مفهومي للطائفة التي أَنتمي إليها. وقد تكون بعض الآراء أو الأفكار أو التحليلات، مِمَّا لا يوافق عليه الجميع. غير أنَّ غاية ما أردتُه هنا، هو نقل هذه الأفكار والآراء، تاركاً للقارىء العناية والحرِّيَّة التامَّة في التعبير عن آرائه وأفكاره، إذ في هذا يكمن جوهر الحوار. فالحوار الحقّ يتأسَّس على احترام الآخَر واحترام الذات، ويتطلَّب الصدق والصراحة والثقة.ونشدان الحقيقة والعدل. وتُهدِّد الحوارَ اللُّغةُ المزدوجة والتناقض والنفاق بين المتحاورين. لقد بذلتُ كلّ طاقتي لئلاَّ أقع في هذه المحاذير، وأبقى صادق القول والعمل، مستنيراً بما كان يُردِّده الإمام الشافعيّ الكبير، رحمه الله: «رأيي صوابٌ يحتمل الخطأ، ورأيك خطأٌ يحتمل الصواب».

وما التوفيق إلاَّ من الله.

الملاحق

ملحق 1

أَثر التدخُّلات الأجنبيَّة في طائفة الموحِّدين الدروز: نظرة مغايرة*

مقدِّمة

أُعبِّر عن سعادتي البالغة للمشاركة في هذا المؤتمر، آملاً تقديم مساهمةٍ جدِّيَّةٍ وجيِّدةٍ في التفكير معاً في موضوع فرنسا والمشرق. وتأتي مشاركتي في هذا اللقاء استجابةً لقناعة منظِّميه بأهمِّيَّة التمثيل الدرزيّ فيه من ناحية، وإلى ما قد يقدِّمه شخصٌ درزيٌّ من شهادةٍ مغايرةٍ حول تردُّدات المؤثِّرات الأُوروبيَّة على شعوب المشرق بشكلٍ عامّ، وعلى الطائفة الدرزيَّة بشكلٍ خاصّ، من ناحيةٍ أُخرى. وعلى وجه التأكيد، أيّ مقاربةٍ لهذا الموضوع لا تستقيم اليوم، دون التوقُّف عند الأحداث التي شهدها العالم في الأشهر الماضية، وتحديداً منذ الاعتداء الإرهابيّ على مركز التجارة الدوليّ في 11/ 9/ 2001، حتَّى تفاصيل الصراع السياسيّ والإنسانيّ خصوصاً على أرض المشرق بين الفلسطينيِّين والإسرائيليِّين. وفيما تأتي مداخلتي في هذا السياق، خصوصاً وأنَّ الأحداث الجارية تبدو وكأنَّها تؤكِّد مقولة صموئيل هنتنغتون حول صراع الحضارات، سنحاول من خلال عرض التجربة الدرزيَّة في

* المداخلة في مؤتمر «فرنسا والمشرق»، المنعقد في ليون، فرنسا (أيَّار 2002).

المشرق، أن نفهم الماضي بصورةٍ أفضل، ونشرح الحاضر بشكلٍ أوضح، على أن نُلقي نظرةً جديدةً على المستقبل.

أريد بدايةً، أن أعرض لكم بشكلٍ موجزٍ مَن هي الطائفة الدرزيَّة، واضعاً إيَّاها في السياق التاريخيّ للإسلام في المنطقة، وفي إطار الحضارة العربيَّة الإسلاميَّة كما المتوسِّطيَّة من جهةٍ أخرى. ثمّ سأُقارب حدثَين تاريخيَّين احتلاَّ أهمِّيَّةً خاصَّةً في تاريخ لبنان والموحِّدين الدروز. عنيتُ أوَّلاً، حُكم الأمير فخر الدين الثاني، والنـزاع الدرزيّ المارونيّ في عامَي 1840 و1860، ثانياً. وهما حدثان يُبرزان على وجه الخصوص دور المؤثِّرات الخارجيَّة، والفرنسيَّة منها تحديداً في تاريخ المشرق. وأَخلص في الختام، إلى تحليل العلاقات بين فرنسا والموحِّدين الدروز، خلال مرحلة ما بعد الحرب العالميَّة الأُولى، من خلال دراسة أسباب الثورة الدرزيَّة الكبرى ضدَّ الانتداب الفرنسيّ.

1. الموحِّدون الدروز

1.1. أصل التسمية: «الموحِّدون» هو الاسم الحقيقيّ للدروز. لا تحفظ كتب الموحِّدين الدروز الدينيَّة، كتب الحكمة، سوى هذه التسمية. عُرف أتباع هذا المذهب باسم الموحِّدين الدروز في مرحلةٍ لاحقةٍ من انتسابهم إلى الدعوة، وذلك نسبةً إلى نشتكين الدَّرَزيّ، أحد دُعاة الحاكم بأمر الله. وقد أَرسله الداعية الأكبر حمزة بن عليّ إلى بلاد الشام لنشر دعوة التوحيد التي افتُتحت عام 408 للهجرة، الموافق 1017 ميلاديَّة. غير أنَّ باب الدعوة التوحيديَّة أُغلق في العام 434 هـ. / 1044 م.

1.2. التوزُّع الجغرافيّ والديموغرافيّ: أَظهرت الأبحاث التاريخيَّة بوضوح أنَّ الموحِّدين الدروز شكَّلوا جزءاً لا يتجزَّأُ من سكَّان بلاد الشام، وهي المنطقةَ التي تضمّ سوريا ولبنان والأُردنّ وفلسطين الحاليَّة. ما يجعل تاريخهم متماهياً وهذه المنطقة. وتُطلق تسمية بلاد الدروز على العديد من النواحي التي استوطن فيها الموحِّدون الدروز، من مثل:

- التجمُّع الجغرافيّ الذي يضمّ منطقة جبل السمّاق والنواحي الجبليّة ما بين حماه وحلب وأنطاكية في شماليّ سوريا.
- المنطقة الوسطى من سلسلة جبال لبنان، والقرى المنبسطة على سفوح جبل الشيخ، والتي تلتقي جنوباً مع ولاية صَفَد عند سفح جبل الكرمل في فلسطين.
- بعض المناطق الداخليَّة في ضواحي مدينة دمشق.
- المنطقة الساحليَّة من لبنان والشوف والمتن وعاليه.
- أمَّا في منطقة حوران فيعود التواجد الدرزيّ فيها إلى مرحلةٍ متأخِّرةٍ لاحقة، تحديداً إلى الأيَّام التي تلت معركة عين دارة عام 1711، وتصارع فيها الحزبان القيسيّ واليمنيّ.

تميَّز الموحِّدون الدروز، طوال تاريخهم، بثابتةٍ أساسيَّةٍ حكمت أعمالهم وتمثَّلت بالدفاع عن الإسلام والعروبة على المستوى الإقليميّ، وبالنضال من أجل الحرِّيَّة في وجه الاضطهاد، ومن أجل الاستقلال في وجه الاستتباع، على المستوى اللبنانيّ.

1.3. عقيدة الموحِّدين الدروز وأُصولهم التاريخيَّة: ولدت عقيدة التوحيد أو الدرزيَّة في القاهرة، في القرن الحادي عشر للميلاد، تحت حُكم الخليفة الفاطميّ السادس. وتعتبر العقيدة الدرزيَّة أنَّ «الشرّ هو أكثر الأشياء مجانبةً لحقيقة الأمور، وبُعداً عن التوحيد وانسياقاً نحو الشُّرك والتعدُّد. أمَّا الخير أو السعادة الفضلى فهي في التوحيد مع الواحد الأحد الصَّمَد، والسعي نحو الاتِّحاد الحقيقيّ»[1].

ولبلوغ هذه السعادة القُصوى أو الفُضلى، على الإنسان البحث عن معرفة حقيقة الوجود، والعمل بموجب ذلك. ما يعني سلوكه سلوك التقوى والفضيلة بشكلٍ تستحيل فيه هذه حالةً طبيعيَّةً في ذاته أو طبعاً ذاتيّاً أصيلاً فيه. فيتمكَّن الإنسان من أن يتجاوز أنانيَّته ويسعى إلى بلوغ الاتِّحاد بالواحد المطلق المنـزَّه.

وتعترف عقيدة التوحيد بالمساواة بين الجنسَين، رافضةً كلَّ أشكال التمييز.

---

1. راجع كتاب ج. كرم (بالفرنسيَّة)، الله والإنسان، لبنان، منشورات جوكار، 1980، ص 411.

فالبشر خُلقوا على صورة الله، وهم متساوون فيما بينهم وأمام الله.

كما تدعو عقيدة التوحيد أتباعها إلى التحرُّر من قيود الأنانيَّة، وتدفعهم إلى البحث الدائم عن الحقّ والحقيقة، وإلى معرفة أفضل للذات والله، على أن تتأسَّس المعرفة على العقل والمنطق، وتنسجم مع الحكمة المتعالية للعلم بمعناها الأوسع أي العرفان. وكلّما تعمَّقت المعرفة ازداد غناها بمعطيات جديدة.

ثمَّ إنَّ الدرزيَّة، التي هي في الأساس مذهبٌ إسلاميٌّ، تُشكِّل في الوقت عينه، مسلكاً صوفيّاً يستخدم الحبّ لبلوغ الحقّ أو الحقيقة المطلقة. ويمتلك هذا المسلك الطاقة والقدرة ليقارب، بتفاعلٍ مع المسيحيَّة، تفاعله مع الإسلام بالقدر نفسه.

2. المشرق وأوروبَّا قبل الحرب العالميَّة الأُولى

2.1. حُكم الأمير الدرزيّ فخر الدين الثاني في لبنان: حين اجتاح الأتراك العثمانيُّون بلاد الشام عام 1516، انهارت الإمارة التنُوخيَّة الموالية للمماليك. وانتقل حكم الموحِّدين الدروز إلى الأُمراء المعنيِّين المنحدرين من الشوف. حَفِل تاريخ الإمارة المعنيَّة الدرزيَّة في لبنان بالصراعات ضدَّ العثمانيِّين. الأمير فخر الدين الثاني (1572-1635) هو أشهر أُمراء المعنيِّين ولا مَن يُنازعه، ما سمح له بتوسيع نطاق إمارته ليشمل بقعةً واسعةً من بلاد الشام. وتمتدّ على أجزاء من سوريا وفلسطين، بالإضافة إلى الأراضي اللبنانيَّة. وقد أَنعم هذا التوسُّع على فخر الدين بلقب «سلطان البرّ». وبغية تدعيم نضاله ضدَّ العثمانيِّين تحالف الأمير الدرزيّ مع عليّ باشا جنبلاط والي حلب، والجدّ الأوَّل للأُسرة الجنبلاطيَّة الحاليَّة في لبنان.

حاول فخر الدين الثاني أن يؤسِّس دولةً حديثةً ومستقلَّةً ومحرَّرةً من القيد الطائفيّ والفئويّ والمناطقيّ. وأَقام لذلك علاقات سياسيَّةً واقتصاديَّةً وعسكريَّةً مع بعض الدول الأُوروبيَّة. وبفضل هذه الرؤية الطموحة طارت شهرته في الآفاق وبلغت حدّاً لم يسبقه إليه أحد، ولم يبلغه بعده أحد من خلفائه أبداً. غير أنَّ مشروع الأمير فخر الدين الاستقلاليّ عن الدولة العثمانيَّة انتهى إلى الفشل حين وجَّه السلطان ضدّه الجيوش والعساكر الجرَّارة يقودها بعض حُكَّام الولايات العثمانيَّة،

فهاجمت الأمير من البرّ والبحر، وهزمته قبل أن تأخذه أسيراً إلى الأستانة حيث حُكم عليه بالموت عام 1635. بعد وفاته تلاشى كلّ حلمٍ بمحاولةٍ جدِّيَّةٍ لتحقيق استقلالٍ وطنيّ.

كانَ فخر الدين رجل دولةٍ من الطراز الأوَّل بمواصفات زماننا هذا. حمل همّ ازدهار البلاد والعباد واستقرارها وتطوُّرها، مستفيداً من رحلته إلى إيطاليا بين عامَي 1613 و1618، حيث عاد منها بالكثير من الإنجازات التي حقَّقتها النهضة الأُوروبيَّة لشعوبها، محاولاً تطبيق الكثير منها في لبنان، وخصوصاً تلك المتعلِّقة بالعمران والهندسة المعماريَّة. كما أَحضر معه من أُوروبَّا بعض الخبراء والتقنيِّين ليعاونوه في تطوير المرافق الاقتصاديَّة الرئيسة في البلاد. وتتبدَّى عظمة فخر الدين، بحسب بعض المؤرِّخين، في سياسته الاجتماعيَّة الطليعيَّة التي أَمَّنت العدالة والمساواة لجميع رعاياه. ويقدِّم مثال فخر الدين من وجهة نظري، دحضاً واضحاً لنظريَّة صراع الحضارات. فهذا رجلٌ شرقيٌّ مُسلِمٌ درزيّ، يتحالف مع أوروبَّا من دون عُقدٍ أو حساسيَّات، ويقيم معها حواراً ناجحاً ومميَّزاً على الصعد الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة كما الثقافيَّة والحضاريَّة. وهو لم يصطدم بأوروبَّا بل بالإمبراطوريَّة العثمانيَّة الإسلاميَّة. وكرجل دولةٍ علمانيّ، وجد فخر الدين روابط تشدُّه إلى أوروبَّا المسيحيَّة أكثر من تلك التي تجمعه بالباب العالي. أَليس واقعيّاً أن نقول إذاً، إنَّ الصدام المزعوم بين الحضارات ليس في الحقيقة أكثر من صراع مصالح؟ ثمَّ إنَّ فخر الدين الدرزيّ، أقام شراكةً حقيقيَّةً مع المسيحيِّين كما مع بقيَّة الطوائف اللبنانيَّة، ما يؤكِّد فرضيَّة التعايش النموذجيّ أكثر منه صراع الثقافات.

2.2. أحداث عامَي 1840 و1860

ضعف الموحِّدون الدروز بعد إعدام فخر الدين الثاني، حتَّى إنَّهم اضطرُّوا إلى التنازل عن سلطتهم السياسيَّة لصالح الأُسرة الشهابيَّة، وهي أُسرةٌ سُنيَّةٌ تنصَّر بعض كبارها في حقبةٍ لاحقة.

وشهد القرن التاسع عشر مرحلةً جديدةً من الانهيار السياسيّ للزعماء الموحِّدين الدروز، وخصوصاً في ظلّ حُكم الأمير بشير شهاب الثاني الذي بذل

الغالي والرخيص لإضعافهم. ونجح بشير الشهابيّ طوال فترة حُكمه، في إبادة معظم زعماء الأُسَر اليزبكيّة والجنبلاطيّة. وبلغ الصراع بين الأمير بشير والموحِّدين الدروز ذروته مع وصول طلائع حملة إبراهيم باشا ابن والي مصر محمَّد علي باشا، إلى بلاد الشام. ولم يَطُل الزمن حتَّى تحوَّل الصراع إلى حرب أهليَّةٍ طائفيّةٍ بين الموحِّدين الدروز والموارنة، بعد أن قام الأمير بشير بتجنيد قسمٍ من الموارنة في جيش إبراهيم باشا المصريّ، لقمع ثورة الدروز في وادي التيم. وقد أدَّت هذه النـزاعات إلى المجازر الشهيرة في عامَي 1840 و1860، ما أعطى المبرِّر والحجَّة للتدخُّلات الفرنسيَّة الأبرز والأشهر في تاريخ المشرق.

2.2.1. التدخُّل الفرنسيّ: يكتسب تاريخا 1840 و1860 أهمِّيَّةً خاصَّةً في الذاكرة اللبنانيَّة وفي تاريخ لبنان المعاصر، نظراً إلى امتداد مفاعيل أحداث هذين العامَين إلى المرحلة اللاّحقة بأكملها. وسأُحاول بدايةً، الإضاءَة على الأسباب المباشرة وغير المباشرة لتلك الأحداث التي كان لها وقع الكارثة والمأساة على كلّ اللبنانيِّين، على اختلاف طوائفهم، لأنتقل من ثَمَّ لتشريح الدور الذي لعبته فرنسا، وتأثيره في الأحداث في لبنان بشكلٍ عامّ، وفي الطائفة الدرزيَّة بشكلٍ خاصّ.

بالعودة إلى أسباب تلك الأحداث المؤلمة فمن المُحَتَّم ترجيعها إلى محاولات بشير الشهابيّ إضعاف القوَّة السياسيَّة للموحِّدين الدروز من خلال زرع الشقاق والانقسامات في صفوفهم. وقد لجأ لاحقاً، إلى منتهى القسوة مستغلاً تلك الانقسامات لمزيدٍ من الإضعاف، ثمَّ لتصفية زعماء الأسر الجنبلاطيَّة والنكديَّة. وأتى تدخُّل القوى الأجنبيَّة في الشؤون الداخليَّة اللبنانيَّة ليضاعف من الاحتقان والتوتُّر، خصوصاً مع تلقِّي الدولة العثمانيَّة الدعم من الإنكليز مقابل دعم الفرنسيِّين لمحمَّد علي باشا وأُسرته الحاكمة في مصر. واستهدف الدعم الفرنسيّ أمرَين: إضعاف السلطة العثمانيَّة وجعلها تحت رحمة الإنكليز من جهةٍ أولى، والاستفادة من طموحات محمَّد علي باشا الميَّال إلى بسط سيطرته على بلاد الشام، من جهةٍ ثانية. ولو أُتيح له ذلك لوقع في شَرْك الفرنسيِّين إذ يبقى مديناً لهم بالنجاح، فتكسب فرنسا بذلك عنصراً إضافيّاً في صراعها مع الإنكليز لتقاسم السيطرة على

المنطقة بشكلٍ يلائم مصالحها بصورةٍ أفضل.

تُضاف إلى هذه الأسباب الخارجيَّة للحرب الأهليَّة أسبابٌ داخليَّةٌ قويَّةٌ اكتسبت طابعاً اجتماعيّاً تمثَّل بتوق المزارعين الموارنة إلى التحرُّر من نيْر الإقطاع الدرزيّ، ما أضفى على النـزاع حدَّةً وامتداداً، وطبع الأحداث طائفيّاً، مؤدِّياً بالتالي إلى تقسيم البلاد. ولمَّا انهزم الموارنة تدخَّلت فرنسا عسكريّاً لصالحهم، موجِّهةً ضربةً حاسمةً للملكيَّات العقاريَّة الدرزيَّة الكبيرة ومفتِّتة إيَّاها. وحصلت تداعياتٌ خطيرةٌ جدّاً، لا بل كارثيَّةٌ على مستقبل البلاد، إذ حطَّمت سياسة الشقاق الطائفيّ التي انتهجها الأمير بشير الثاني فكرةَ لبنان المُستقلّ التي بناها الأمير فخر الدين الثاني. وأرَّخ عام 1860 لنهاية الدولة اللبنانيَّة الأُولى.

لكن، لا بُدَّ من التأكيد في هذا الإطار، على أنَّ الأسباب الداخليَّة ما كانت لتُبرِّر وحدها عنف ردود الفعل وشدَّتها واتِّساعها وعدوانيَّتها لدى الطرفين المتحاربين. وينبغي أن نبحث عن أسباب ذلك في واقع أنَّ الصراع الدرزيّ المارونيّ شكَّل محور تبلور الصراعات بين القوى الأُوروبيَّة والإقليميَّة التي وجدت في الانقسامات الدرزيَّة المارونيَّة حقلاً خصباً لتجييش الأحقاد وتبادل الاتِّهامات. قد يوحي النـزاع الدرزيّ المارونيّ والدعم الفرنسيّ للموارنة للوهلة الأُولى، بصدام حضاراتٍ أو ثقافات. إلاَّ أنَّ الحقيقة تؤكِّد على أنَّ الأمر مجرَّد صراع مصالح سياسيَّةٍ واقتصاديَّة. فلو لم يقُم الخلاف الدرزيّ المارونيّ لَلَجأت هذه القوى إلى إيجاد حقول نزاع أُخرى، وإلى اختراع أشباح أخرى وتصويرها عدوّاً. لقد بدت الظروف الخارجيَّةً موائمةً ومهيَّأةً لاستغلال الوضع الداخليّ وتفجير الأحقاد والحساسيَّات. وتحوَّل يومها لبنان إلى ساحة صراعٍ مكشوفٍ تتنافس فيه القوى الدوليَّة. وجاء انسحاب قوَّات محمَّد علي باشا من بلاد الشام ليخلق فراغاً سياسيّاً سعت القوى الأُوروبيَّة إلى ملئه، جاعلةً من لبنان محوراً لسياساتها في المشرق. تصارعت فرنسا وبريطانيا والنمسا وروسيا لإيجاد منطقة نفوذٍ لها في الشرق، انطلاقاً من لبنان. فهل أفضل من الطائفيَّة وحروبها لتحقيق سياسة نفوذ؟

أَقامت فرنسا علاقاتٍ ودِّيَّةً تقليديَّةً مع الموارنة، ووجدت بعد رحيل محمَّد

عليّ والأمير بشير، أنَّ مصالحها مهدَّدة. أمَّا بريطانيا العظمى التي حاولت هي أيضاً، شطب النفوذ الفرنسيّ لتأمين طريقها إلى الهند، وجدت في لبنان الموقع المناسب للانطلاق لبسط سيطرتها على كلّ الشرق. وقد شجَّعها على هذه السياسة انتشار أساطيلها على طول الساحل بين طرابلس وحيفا، بعد أن شاركت قوَّاتها في العمليَّات العسكريَّة لإخراج قوَّات إبراهيم باشا من بلاد الشام. وقضت مصالح روسيا والنمسا بمنع فرنسا وبريطانيا من الاستفراد بالسيطرة على المنطقة، فحاولت كلٌّ منهما فرض نفوذها. فأقامت روسيا علاقاتٍ مع كنيسة الروم الأرثوذكس وأعلنت أنَّ هدفها هو حماية مصالح هذه الكنيسة في الشرق. في حين أعلنت النمسا أنَّها تحاول حماية مصالح الروم الكاثوليك والموارنة، منافسةً بذلك فرنسا التي كانت تعتبر نفسها الأُمَّ الحنون للكثلكة في الشرق، وللموارنة في لبنان. وقد نجحت بريطانيا بفضل قنصلها الكاثوليكيّ ريتشارد مورفي، أن تجتذب بعض الزعماء الموارنة الإقطاعيِّين، دون أن تنجح في كسب ولاء الكنيسة والإكليروس اللذين اعتبرا البريطانيِّين أعداء الكنيسة الكاثوليكيَّة. وجاء نشاط الكنائس البروتستانتيَّة لاحقاً، ليُعزِّز موقف الإكليروس المارونيّ المعادي للبريطانيِّين، الأمر الذي جعل هؤلاء يبذلون أقصى الجهود الممكنة في اتِّجاه جذب الموحِّدين الدروز إليهم.

2.2.2. دور بريطانيا العظمى: لم يبحث الزعماء الموحِّدون الدروز عن أيّ تحالفٍ مع بلدٍ أوروبيّ، حتَّى عام 1841. لا بل على العكس، فإنَّهم بقوا حذرين حيال أيّ علاقةٍ خارجيَّة. وباستثناء الأمير فخر الدين الثاني لم يُقِم أيّ زعيم درزيٍّ علاقاتٍ مع الدول الأوروبيَّة. من المؤكَّد أنَّ الموحِّدين الدروز عقدوا، في ظلّ الحُكم العثمانيّ، العديد من التحالفات السياسيَّة مع حُكَّام، إلاَّ أنَّ هذه التحالفات ظلَّت دوماً تحت سقف الإمبراطوريَّة العثمانيَّة. وإذا تخطَّى بعضها الحدود المحلِّيَّة فإنَّ ذلك لم يكن ليتمَّ دون موافقة الباب العالي ودعمه. من هنا، لم يكن مستغرباً أن يمتنع الموحِّدين الدروز عن إقامة أيّ علاقةٍ مع روسيا على سبيل المثال، حين وصل الصراع الروسيّ العثمانيّ إلى شواطىء بيروت وصيدا، في النصف الثاني من القرن

الثامن عشر. وينسحب الأمر نفسه على موقف الموحّدين الدروز إبّان حملة نابليون بونابرت ضدّ عكّا. كما أنّ ثورة دروز حوران ووادي التّيم ضدّ إبراهيم باشا المصريّ دون أيّ دعم عسكريٍّ خارجيٍّ، هي خير دليلٍ على هذه السياسة الدرزيّة.

إلاّ أنّ الموحّدين الدروز وجدوا أنفسهم، عام 1841، أمام واقعٍ جديدٍ في لبنان، يتمثّل في صراع القوى الأجنبيّة على أرضه ومحاولة كلّ قوّةٍ أن تجتذب فريقاً لبنانيّاً على أساس الانتماء الطائفيّ. وهذا بالضبط ما نقله أحد تقارير القنصل الفرنسيّ إلى حكومته، عام 1841: «إنّ القنصليّات في بيروت قد تبنّت عقليّة الطوائف في لبنان وسوريا. فالكاثوليك وغيرهم من أتباع الطوائف الأُخرى يذهبون إلى السفارة الفرنسيّة وليس إلى القنصليّة»[2]. تجدر الإشارة هنا، إلى أنّ معظم المؤرّخين أعطوا أهمّيّةً مبالغ بها لعلاقات الموحّدين الدروز ببريطانيا العظمى في تلك المرحلة. وبالنظر إلى أنّه لم يكن هناك أيّ علاقة بين بريطانيا ولبنان قبل عام 1841، فمن الخطإ المقارنة بين العلاقات التي أُقيمت بعد 1841، وبين تلك التي أقامتها فرنسا مع الموارنة قبل أمدٍ طويل. والوثائق البريطانيّة تؤكّد أنّ العلاقات بين الموحّدين الدروز وبريطانيا العظمى اتّخذت في معظمها طابع العلاقات الشخصيّة، في حين أنّ العلاقات بين فرنسا والموارنة تميّزت بطابعٍ جماعيٍّ وعموميّ. ولم تهدف العلاقات الدرزيّة البريطانيّة إلى خلق دولةٍ مستقلّةٍ في الجبل يسيطر عليها الموحّدون الدروز، كما هو الحال مع ما طمحت إليه فرنسا من علاقتها بالموارنة. رَمَت سياسة بريطانيا في تلك المرحلة، إلى الحفاظ على الدولة العثمانيّة لأنّها اختلفت مع بقيّة الدول الأُوروبيّة حول كيفيّة اقتسام تَرِكة «الرجل المريض». واعتقدت أنّ التوازن بين الموحّدين الدروز والموارنة في الجبل، هو الطريق السليم لحفظ سلطة الدولة العثمانيّة على بلاد المشرق. لم يكن دعم البريطانيّين للدروز إذاً، سوى محاولةٍ للحفاظ على التوازن السياسيّ في الجبل، بعد أن مالت موازين القوى لصالح

---

2. راجع هـ. تمبرلي، **إنكلترا والشرق الأدنى** (بالإنكليزيّة)، الولايات المتّحدة الأميركيّة، منشورات فرانك كاس وشركاه، الطبعة الثانية، 1964، ص 439.

الموارنة الذين استفادوا كثيراً من دعم فرنسا والنمسا.

2.2.3. دور فرنسا: إقتصر دعم فرنسا للطوائف الكاثوليكيَّة في لبنان على الجانب السياسيّ. إلاَّ أنَّه ترافق مع دعم ماديٍّ للإكليروس، الأمر الذي زاد من سلطة هذا الأخير ونشاطه السياسيّ بشكلٍ غير مسبوقٍ على الإطلاق. فتجاوزت سلطة الإكليروس المارونيّ سلطة الإقطاعيِّين والتجَّار والوجهاء المسيحيِّين، حتَّى إنَّ الرهبان الذين عاشوا في أديرةٍ غنيَّةٍ بالمحاصيل الزراعيَّة شكَّلوا مع الخوارنة المنتشرين في مختلف القرى نوعاً من تنظيم سياسيٍّ يدير شؤون الطائفة ويسيطر على اقتصادها. وبلغ تدخُّل الإكليروس المارونيّ في السياسة، في تلك المرحلة، مستوًى جديداً بالنظر إلى الضعف الذي وصلت إليه سلطة الإقطاعيِّين المسيحيِّين، حتَّمته التغيُّرات الاقتصاديَّة والثقافيَّة التي عرفتها المناطق المسيحيَّة.

فيما غذَّى عمل الإرساليَّات التبشيريَّة الكاثوليكيَّة تعصُّباً دينيّاً طائفيّاً لم تعرفه البلاد من قبل، استشعر الخوارنة الموارنة غضباً وكراهيةً ضدَّ الزعماء الموحِّدين الدروز الذين ساعدوا الإرساليَّات البروتستانتيَّة في المناطق الدرزيَّة. وفي الوقت الذي شجَّع فيه الموحِّدون الدروز الإرساليَّات البروتستانتيَّة على فتح المدارس في الجبل، بذل الخوارنة الموارنة كلّ الجهود لإقفالها. وقد أمر البطريرك المارونيّ بإقفال المدارس البروتستانتيَّة، موجِّهاً أمره حتَّى إلى الأمير بشير نفسه، فأرسل رسالةً في هذا الخصوص إلى الشيخ ناصيف آل نكدي، يطلب فيها طرد البروتستانت من دير القمر وعدم تأمين الحماية لهم أبداً. أزعجت هذه التدخُّلات الموحِّدين الدروز الذين رأوا فيها تحدِّياً لهم، وولَّدت عندهم شعوراً بالخوف على مستقبلهم السياسيّ في لبنان. وجاء تطوُّر مدى العلاقات الاقتصاديَّة والثقافيَّة والسياسيَّة بين فرنسا والموارنة واتِّساعها، ليزيد من حدَّة المخاوف الدرزيَّة. وخشي الزعماء الموحِّدين الدروز من أن تؤدِّي سياسة الإكليروس المارونيّ هذه إلى تأسيس دولةٍ مسيحيَّةٍ في جبل لبنان، تدعمها فرنسا ويحكمها الموارنة وحدهم، ما يُهدِّد كيانهم الوجوديّ في الجبل. وعزَّز من هذه المخاوف وأكَّد صدقيَّتها نشر اليسوعيِّين لمعلومات تتحدَّث عن أُمَّةٍ مارونيَّةٍ كجزءٍ مكوِّنٍ من فرنسا. وتأكَّد الموحِّدون الدروز تماماً من أنَّ الأب

اليسوعيّ مكسيميليان ريلو دأب على تحريض القرى المارونيَّة على الثورة ضدَّ الموحِّدين الدروز. وأفادت مجلَّة بعض البعثات التبشيريَّة الأميركيَّة أنَّ اليسوعيِّين والإكليروس المارونيّ عملوا على خلق نزاعاتٍ تُسيء إلى البعثات البروتستانتيَّة وطرد الموحِّدين الدروز من الجبل، ممَّا أَشعر الزعماء الموحِّدين الدروز، عام 1841، ولأوَّل مرَّةٍ ربَّما، بأنَّهم في وضعٍ لا يمكن القبول به. فبعد الضربات القاسية التي وجَّهها الشهابيُّون ضدَّ زعامتِهم السياسيَّة ونفوذهم الاقتصاديّ أحسُّوا بأنَّهم يواجهون أخطاراً، بل إنَّهم مهدَّدون بفقدان كلّ ما تبقَّى لهم من سلطةٍ ونفوذ. وتضاعفت هواجسهم وخشيتهم حين تنامى إليهم أنَّ الإكليروس المارونيّ يطالب بعودة حُكم الأمير بشير الثاني.

على الرغم من ذلك، لم يعمل الموارنة على تبديد تلك المخاوف، أو عقد اتِّفاقٍ مع الإقطاعيِّين حول الأراضي والامتيازات التي فقدها هؤلاء، بل اختاروا على العكس من ذلك، سياسة التحدِّي والتحريض التي وسمت العلاقات الدرزيَّة المارونيَّة في تلك المرحلة. وحين طالب الزعماء الموحِّدون الدروز، يدعمهم أبناء الطائفة، بالأراضي والامتيازات التي فقدوها، مثل جباية الضرائب ومسؤوليَّة السهر على الأمن وممارسة السلطة القضائيَّة الابتدائيَّة، عارضهم المسيحيُّون المقيمون في المناطق الدرزيَّة بتشجيعٍ من الإكليروس. حتَّى إنَّ البطريرك المارونيّ نفسه وزَّع مناشير على الموارنة في تلك المناطق، يدعوهم فيها إلى الاعتراض على السلطة القضائيَّة التي للإقطاعيِّين الموحِّدين الدروز، محرِّضاً إيَّاهم على ممارسة هذه السلطة بأنفسهم. وإزاء هذا الوضع الجديد، وجد الموحِّدون الدروز أنَّه من الضروريّ مواجهة التحدِّي بالقوَّة، إذا اضطرّ الأمر، لاستعادة حقوقهم المسلوبة[3]. ساندت قنصليَّتَا فرنسا والنمسا الخوارنة الموارنة والفلاَّحين المطالِبين بالسلطة. وأَثبت انطلاق تلك الحركة الثوريَّة في القائمقاميَّة المسيحيَّة في الشمال،

3. راجع س. تشرشل، **الدروز والموارنة تحت الحكم التركيّ من 1840 إلى 1860** (بالإنكليزيَّة)، لندن، 1862، ص 38-39.

الطابع الاجتماعيّ غير الدينيّ للنـزاعات. غير أنَّ بعض الباحثين يعتبرون أنَّ الطائفة الدرزيَّة امتلكت على خلاف الفلاَّحين المسيحيِّين، وعياً سياسيّاً واجتماعيّاً. ويعود هذا الوعي إلى صلابة التنظيم الاجتماعيّ الدرزيّ وتماسكه من جهة، وإلى أنَّ غالبيَّة الفلاَّحين في المنطقتين كانوا من المسيحيِّين، من جهةٍ أُخرى، ما سهَّل على الإقطاع والإكليروس استغلال الفلاَّحين على قاعدة المبدإ الطائفيّ. فكان بالتالي اندلاع الحرب الدرزيَّة المارونيَّة للعام 1860.

غير أنَّ اختزال تلك الأحداث الطائفيَّة بثورةٍ طبقيَّةٍ فلاَّحيَّةٍ ضدَّ الإقطاع فحسب، يبقى تبسيطاً سهلاً وغير دقيقٍ لأحداثٍ معقَّدة. وحرفت التدخُّلاتُ المحلِّيَّة والدوليَّة الأحداثَ عن مسارها الصحيح، بتوصيفها بحصريَّة الثورة الاجتماعيَّة. وتشير مصادر عديدة، محلِّيَّةٌ وأجنبيَّةٌ على السواء، إلى أنَّ تلك الأحداث لم يكن لها أن تنحو منحًى طائفيّاً لولا استغلالها من قبل أطرافٍ محلِّيَّةٍ ودوليَّةٍ أَضفت عليها سِمَة الطائفيّ. وتذكر بعض المصادر على سبيل المثال، التحالف غير المباشر الذي تَشكَّل بين الإقطاعيِّين من كِلا الطرفَين. ما يؤكِّد على أنَّ جوهر الصراع في أحداث 1860، هو نزاعٌ بين طبقتَين اجتماعيَّتَين، أي بين الإقطاعيِّين، وغالبيَّتهم من الموحِّدين الدروز، وبين الفلاَّحين، وغالبيَّتهم من المسيحيِّين.

2.2.4. الدور العثمانيّ: على المستوى الخارجيّ، توافقت التوتُّرات الطائفيَّة ومخطَّط الدولة العثمانيَّة. فاستغلَّتها بغية تطبيق سياستها في إقامة إدارةٍ مركزيَّةٍ على لبنان. وأَكَّد تجدُّد الأزمة وجهة النظر العثمانيَّة القائلة بأنَّ استقلال لبنان ليس قابلاً للحياة، ما يضع موقف الوالي العثمانيّ حيال أحداث 1860، ضمن هذا الإطار. ففي الوقت الذي استعدَّ فيه الطرفان للحرب، لم تحاول السلطات العثمانيَّة حتَّى أن تمنع تدفُّق الأسلحة إلى الجانبين. وفي دمشق، هاجم المسلمون فجأةً الحيَّ المسيحيّ، بعد بضعة أيَّام فقط من التوصُّل إلى تسويةٍ درزيَّةٍ مارونيَّةٍ في لبنان. وقد أَثار هذا الهجوم حفيظةَ الحكومة الفرنسيَّة التي أَرسلت حوالى سبعة آلاف جنديٍّ من قوَّاتها البحريَّة إلى لبنان. كما أنَّ البلدان الأوروبيَّة اتَّهمت السلطات العثمانيَّة في دمشق، بإثارة هذا النـزاع، وحمَّلتها مسؤوليَّة الهجوم على المسيحيِّين. ويروي

قنصل فرنسا ما مفاده «أنَّ الأتراك هم المسؤولون عن هذه الأحداث لأنَّهم عملوا منذ 1840، على إلغاء الاستقلال اللبنانيّ»[4]. ووُجِّهت الاتِّهامات خصوصاً، إلى أحمد باشا والي دمشق الذي أعلن أنَّ «هناك كارثتَين في سوريا، هما المسيحيُّون والدروز؛ وأنَّ القضاء على واحدةٍ منهما سوف يكون مكسباً للدولة العثمانيَّة»[5]. ودرج الكولونيل تشرشل على السخرية من أولئك الذين اعتقدوا بعجز الأتراك عن قمع الثورة. واتَّهم تشرشل الأتراك بأنَّهم خطَّطوا للنزاع وأثاروه وشاركوا فيه[6]. إلاَّ أنَّ فؤاد باشا قرَّر تقديم بعض الزعماء الموحِّدين الدروز إلى القضاء إرضاءً للقناصل الأُوروبيِّين المتعاطفين مع المسيحيِّين، فدعا سبعةً وأربعين زعيماً من زعماء الموحِّدين الدروز للاجتماع به في بيروت، وفيما كان هؤلاء قد خَبِروا مؤامرات الولاة العثمانيِّين وألاعيبهم، لم يستجيبوا لدعوته، ولم يحضر منهم للقائه سوى اثني عشر، كان من بينهم سعيد جنبلاط والقائمقام محمَّد أرسلان فجرى توقيفهما فيما فرَّ الباقون إلى حوران. وأمام هذا الظلم المزدوج، الفرنسيّ والعثمانيّ، وجد الموحِّدون الدروز أنفسهم في خطرٍ داهمٍ ما دفع بأعدادٍ كبيرةٍ منهم إلى الهرب باتِّجاه جبل الدروز في سوريا.

3. الموحِّدون الدروز وفرنسا

3.1. دور الإرساليَّات الأجنبيَّة: عانى دروز لبنان من نتائج حرب 1860، فلجأ الكثيرون منهم إلى جبل الدروز في سوريا. أمَّا الذين مكثوا فاستفادوا من الاستقرار الاقتصاديّ أيَّام المتصرِّفيَّة. ساعد الازدهار الاقتصاديّ على إطلاق حياةٍ ثقافيَّةٍ وعلميَّةٍ شكَّل المسيحيُّون عمادها. واستفاد الموحِّدون الدروز بدورهم من

4. راجع عبَّاس أبو صالح وسامي مكارم، **تاريخ الموحِّدين الدروز السياسيّ في المشرق العربيّ**، لبنان، 1980، المجلس الدرزيّ للبحوث والإنماء، طبعة 1980، ص 261.
5. وزارة الخارجيَّة البريطانيَّة، **مراسلات حول الأوضاع في سوريا (1860-1861)**، المجلَّد الأوَّل، القسم الأوَّل، دون تاريخ نشر، ص 178.
6. س. تشرشل، **المرجع السابق**، ص 215.

هذه النهضة، خصوصاً بفضل وجود مدارس الإرساليَّة الإنجيليَّة في مناطقهم. والمعلوم أنَّ شخصيَّاتٍ درزيةً بارزةً شجَّعت البعثات الإنجيليَّة على فتح مدارس لها في المناطق الدرزيَّة، وقدَّمت للمسؤولين عنها الحماية من ضغوطات المؤسَّسات الكاثوليكيَّة. ومن أقدم المدارس وأهمّها تلك التي أَسَّستها البعثة الأميركيَّة في عبيه، عام 1843. وتلتها مدارس الإنجيليِّين في عرمون (1853)، وبتاتر (1853)، وبتخنيه (1854). وشجَّع مشايخ آل عبد الملك مدرسة بتاتر وسجَّلوا فيها حوالى عشرين من أولادهم منذ تأسيسها. ولحق بهم مشايخ الغرب من آل تلحوق، وحثُّوا سليمان الصليبي على إنشاء مدرسةٍ في عاليه، افتُتحت عام 1855. وتوالى تأسيس المدارس في عيناب وبشامون ورأس المتن ودير قوبل.

أمَّن اتِّساع نطاق التعليم في مدارس الإرساليَّات الأجنبيَّة، فالمدارس العموميَّة العثمانيَّة والمدارس الأهليَّة الخاصَّة، بروزَ حركاتٍ إصلاحيَّةٍ وقوميَّةٍ في المشرق العربيّ، خلال القرن التاسع عشر، ما يجعله ممزوجاً بالتوجيه السياسيّ. ولمَّا شكَّل التعليم في المدارس التابعة للبعثات الفرنسيَّة مدخلاً إلى بعض الوظائف في الجهاز الإداريّ للمتصرِّفيَّة، درس معظم أولاد الموحِّدين الدروز إمَّا في المدارس البروتستانتيَّة، وإمَّا في المدارس الإسلاميَّة العثمانيَّة، الرسميَّة والخاصَّة. وقد ساهم الموحِّدون الدروز المتعلِّمون في النهضة الفكريَّة والثقافيَّة، وخصوصاً في اليقظة السياسيَّة حيال أوضاع الدولة العثمانيَّة وولاياتها العربيَّة. واتَّجهت هذه اليقظة نحو المطالبة بإصلاحٍ سياسيٍّ في ظلّ النظام العثمانيّ، كما إلى تشكيل وعيٍ قوميٍّ عربيٍّ يحثّ على بعثِ التراث العربيّ وإحيائه، ما يغذّي ميل الاستقلال عن العثمانيِّين، ويُظهر خدمة الموحِّدين الدروز للقضيَّة العربيَّة في تلك المرحلة.

مع ظهور القوميَّة التركيَّة المتعصِّبة، الطورانيَّة، تنامى عدد الملتزمين بالتيَّار العروبيّ المنادي بالانفصال عن الدولة العثمانيَّة. ودفعت سياسة التتريك القائمة على تفوُّق العنصر التركيّ بالعرب إلى تأسيس الجمعيَّات السرِّيَّة والعامَّة للدفاع عن قضيَّتهم، ومن بينها «جمعيَّة المنتدى العربيّ»، و«الجمعيَّة القحطانيَّة»، و«جمعيَّة العَلَم الأخضر»، و«جمعيَّة العربيَّة الفتاة».

وفي نهاية الحرب العالميَّة الأُولى، وقف الموحِّدون الدروز إلى جانب أولئك الذين طالبوا بحُكم عربيّ مستقلٍّ موحَّد، وقاوموا قرار وضع بيروت ودمشق تحت حُكم الانتداب. لكنَّ بعض دروز لبنان أعربوا عن رغبتهم في إنشاء دولةٍ لبنانيَّةٍ مستقلَّة، وخصوصاً بعد سقوط حكومة الملك فيصل التي عارضتها قوى الحلفاء، مؤكِّدةً التزامها بقراراتها تقسيم المنطقة فيما بينها. ورأى هؤلاء في قيام دولةٍ لبنانيَّةٍ مستقلَّةٍ ضمانةً للحرِّيَّة التي خبروها أيَّام العثمانيِّين.

3.2. الانتفاضة في حوران: بعد أن وضع الفرنسيُّون يدهم على مجمل الأراضي السوريَّة، بذل الموحِّدون الدروز كلّ جهودهم لحماية وضعهم التقليديّ. فتوتَّرت الأجواء بينهم وبين السلطات الفرنسيَّة بسبب مظالم المنتدِبين. يومها انطلقت ثورة 1925-1927 الدرزيَّة الكبرى ضدَّ سلطات الانتداب، بقيادة سلطان باشا الأطرش، فقُمعت بالحديد والنار.

لماذا ثار الموحِّدون الدروز ضدَّ الفرنسيِّين؟ الإجابة على هذا السؤال تقتضي الإشارة إلى أنَّه سبق لدروز جبل حوران أن شاركوا في الثورة العربيَّة ضدَّ العثمانيِّين خلال الحرب العالميَّة الأُولى، بسبب من عروبتهم كما المظالم الكثيرة التي عاناها دروز الجبل على يد الحُكَّام العثمانيِّين. لم ينسَ الموحِّدون الدروز تلك المؤامرات التي حاكها الحُكَّام العثمانيُّون لتصفية زعاماتهم، ولا الحملات العسكريَّة التي جُرِّدت عليهم في جبل حوران. وقائد الثورة الدرزيَّة سلطان باشا الأطرش واحدٌ من الذين شاركوا في ثورة الشريف حسين، وحارب القوَّات العثمانيَّة على أكثر من جبهة. غير أنَّ آمال الموحِّدين الدروز بالتحرُّر لم تتحقَّق، إذ ما كادت الدولة العثمانيَّة تسقط حتَّى حصلت فرنسا على حقّ وضع سوريا ولبنان تحت انتدابها، بعد معركة ميسلون وهزيمة الملك فيصل واحتلال القوَّات الفرنسيَّة لبلاد الشام. وبالإضافة إلى ذلك، تجاهل الفرنسيُّون، خلال انتدابهم، البند 22 من ميثاق عصبة الأُمم، الأمر الذي جعل الناس يكتشفون بسرعةٍ أنَّ الانتداب ليس سوى احتلالٍ جديد. إذ لم تمنع فرنسا إنشاء دولةٍ عربيَّةٍ مستقلَّةٍ فحسب، بل حاولت بالأساس، تقسيم سوريا وإنشاء دويلاتٍ مناطقيَّةٍ وطائفيَّة. فبعد إنشاء دولة لبنان الكبير،

جرى تقسيم سوريا إلى أربع دويلاتٍ مستقلَّةٍ، أَلا وهي دولة حلب، ودولة جبل العلويِّين، ودولة دمشق، ودولة جبل الدروز. وجرى تعديل هذا التقسيم عام 1922، وإنشاء فيدراليَّةٍ من ثلاث دويلاتٍ، هي دمشق وحلب وجبل العلويِّين. ثمَّ قام الجنرال ويغان بتعديل هذا التقسيم من خلال انتزاع دولة العلويِّين من التجزئة الفيدراليَّة، ودمج حلب ودمشق في دولةٍ واحدةٍ سماها دولة سوريا، تاركاً جبل الدروز دولةً منفصلةً بغية التمكُّن من تطبيق سياسة التقسيم الطائفيّ ونزع الأقليَّات من إطارها الوطنيّ والقوميّ. أثارت هذه التقسيمات غضب الوطنيِّين السوريِّين والقوميِّين العرب، وثورتهم، ومُني الاقتصاد السوريّ جرَّاءَها بخسائر كبيرة. ولم تكتفِ السلطات المنتدبة بذلك، بل أَقامت حدوداً جمركيَّةً بين تلك الدويلات، وزادت الضرائب، وسهَّلت تجارة بضائعها على حساب البضائع الوطنيَّة، ما أَدَّى، بعد مرور سنتَين، إلى تحوُّل هذه الدول الصغيرة مستوردةً لحوالى ضعف ما كانت تُصدِّره. أمَّا على المستوى الإداريّ فقد استفحل تدخُّل المفوَّض السامي في «الشاردة والواردة»، وعمل للسيطرة المباشرة على المجالس والإدارات المحلِّيَّة والبلديَّة. وعلى عكس ما يدعو إليه مشروع الانتداب، وبدل من أن ترسل السلطة الفرنسيَّة إلى البلاد موظَّفين أكفَّاء وأخصَّائيِّين يدرِّبون موظَّفين محليِّين ويحضِّرونهم ليحلُّوا محلَّهم بعد حين، عملت على إرسال الفاشلين والفاسدين وذوي العقليَّات الاستعماريَّة، الذين أساءوا كثيراً إلى سكَّان البلدان المنتدَبة. وعبَّر الأهالي عن كرههم لهؤلاء الموظَّفين، مطالبين برحيلهم واستبدالهم، بالرغم من أنَّه لم يكن من مُجيب. كما شكا الأهالي من قسم المخابرات الذي زرع الرُّعب، ولفَّق اتِّهاماتٍ عشوائيَّة، وكَمَّ الأفواه الحرَّة، وخنق كلّ صوتٍ يعارض الانتداب، معتمداً منطقَي الترهيب والترغيب. وقد دفعت هذه السياسات الظالمة الشعب في كلّ الدول السوريَّة، إلى الانتفاض ضدَّ الانتداب الفرنسيّ، حتَّى أعلن الوطنيُّون السوريُّون أنَّ الطريق الوحيد للخلاص تكمن في الثورة. وتمكَّنت السلطات الفرنسيَّة من قمع الثورة الدرزيَّة، كما نجحت في السابق، في قمع الحركات المتمرِّدة والثائرة التي انطلقت ضدَّها مؤسِّسةً للثورة السوريَّة الكبرى لاحقاً. لم تستطع

الثورة الدرزيَّة تحقيق أهدافها الأساسيَّة من تحرير واستقلال. ولم تُخمد السلطات الفرنسيَّة الثورة السوريَّة إلاَّ بعد استخدامها للأسلحة الثقيلة والمدمِّرة مخلِّفةً الكثير من الضحايا والخسائر. ودفعت القرى الدرزيَّة ثمناً باهظاً من ستَّة آلاف شهيدٍ على عدد سكَّانٍ لا يتجاوز الثلاث مئة ألف نسمة. وفقد جبل الدروز ربع مقاتليه.

وعلى الرغم من تلك التداعيات السلبيَّة أثمرت الثورة إصلاحاتٍ في الجهاز الإداريّ الفرنسيّ للبلدان الواقعة تحت الانتداب. فأوجدت السلطات المنتدِبة مؤسَّساتٍ دستوريَّة، وصيغ دستور لبنان. وأبصرت أوَّل جمهوريَّة لبنانيَّة النور في خريف 1926، جمهوريَّةً برلمانيَّةً تخضع لدستور 1926. فكانت هذه الإنجازات الدستوريَّة في لبنان مقدِّمةً لإصلاحاتٍ في سوريا. وأسهمت في إطلاق تيَّارٍ معارضٍ لسياسة الانتداب، حتَّى داخل فرنسا. الأمر الذي دفع الحكومة الفرنسيَّة إلى الموافقة على مبدإ عقد معاهدةٍ مع لبنان وسوريا، على غرار تلك التي عُقدت بين بريطانيا والعراق. كما خلقت الثورة السوريَّة وعياً وطنيّاً ووحدويّاً في مختلف المناطق، كنتيجةٍ طبيعيَّةٍ لمشاركة أبنائها في الثورة. ثمَّ إنَّ الثورة وضعت حدّاً نهائيّاً لسياسة التقسيم المناطقيّ والطائفيّ التي اعتمدتها السلطات المنتدِبة وحاولت فرضها بكلّ الوسائل المتاحة. كما أنمت الوعي الشعبيّ في مواجهة سياسات الإقطاع والزعماء التقليديِّين المؤيِّدين للانتداب.

خاتمة

وقف دروز لبنان وسوريا، على امتداد تاريخهم، إلى جانب القضيَّة العربيَّة وحقوق الشعب الفلسطينيّ، ومارسوا دعماً فعَّالاً للحركات العربيَّة التحرُّريَّة. وقد جعل الزعيم اللبنانيّ والعربيّ كمال جنبلاط من طائفته قوَّةً سياسيَّةً ومعنويَّةً كبيرةً في العصر الحديث. ونجح في أن يُعيد للدروز دورهم التاريخيّ على الصعيدَين اللبنانيّ والعربيّ. غير أنَّ الاعتبارات الطائفيَّة حدَّت من فاعليَّة هذا الدور السياسيّ. كما أنَّ الاعتبارات الطائفيَّة عينها أضعفت من اندفاع طموحات زعماء الطوائف الأقلِّيَّة الباقية. والحال أنَّ أيّ أقلِّيَّةٍ لن تتمكَّن من أن تلعب دوراً

مهمّاً في المستقبل، دون إقامة مجتمع علمانيٍّ وديموقراطيٍّ في المشرق. لا بل يُخشى من أن تعجز أيّ أقلّيَّةٍ عن المحافظة على حقوقها في ظلّ المجتمعات الطائفيَّة الحاليَّة، إن لم تعمل على تطوير مؤسَّساتها الخاصَّة في مختلف الميادين والمجالات. فالحلّ العلمانيّ الديموقراطيّ ليس واقعيّاً اليوم، إلاّ أنَّه يستمرّ الحلّ الأنسب والأفضل على المدى البعيد، خصوصاً وأنَّ تجربة الموحِّدين الدروز والحكمة السياسيَّة التي اكتسبوها منها طوال تاريخهم، تؤكِّد على أنَّ نظاماً وطنيّاً لاطائفيّاً هو الضامن لحقوق الأقلِّيَّات. وسيدفع نظامٌ مماثلٌ كلَّ الأقلِّيَّات إلى المساهمة بفاعليَّةٍ في النشاط القوميّ العربيّ، إذ إنَّه من دون الشعور بالاندماج الكامل والأمان والاطمئنان في دولة قانونٍ ومؤسَّسات، لن يتمكَّن الموحِّدون الدروز من مواصلة تطوير هوِّيَّتهم العربيَّة وتأدية دورهم القوميّ في قلب وطنهم، أمانةً لأسلافهم.

لا بُدَّ لكلّ نظام سياسيٍّ من تأمين حقّ الأقلِّيَّات في الاختلاف، وبالتالي حفظ خصوصيَّتها ومميِّزاتها. والحقّ بالاختلاف يماثل الحقّ بالمشابهة والتطابق، على ما قال أندره فروسَّارد: «هو حقٌّ ينبغي أن يُدافَع عنه باعتباره حقّاً أساسيّاً وفتحاً حضاريّاً وضمانةً للسلام بين البشر»[7]. وليس الاختلاف محلاًّ للتحدِّي أو رفض الانتماء إلى الأكثريَّة العربيَّة الإسلاميَّة، بل هو إغناءٌ لها. كما أنَّ على الحياة السياسيَّة والاقتصاديَّة أن تشجِّع على تطوير مساحات التبادل والحوار والتفاعل. واليوم، يبدو أنَّ خوف الموحِّدين الدروز من كونهم أقلِّيَّةً يماثل خوف المسيحيِّين. وانطلاقاً من هاجس الموحِّدين الدروز والمسيحيِّين معاً، في حماية هوِّيَّتهم المتمايزة عن مجمل محيطهم الإسلاميّ، نجدهم اليوم في خندقٍ واحدٍ مع إخوانهم المسلمين ضدَّ كلّ أشكال الأصوليَّة، وللبنان دورٌ طليعيٌّ في هذا السياق.

وتعالوا لا ننسى أنَّ قداسة الحبر الأعظم البابا يوحنَّا بولس الثاني، قد خَصَّ لبنان بوصفه وطن الرسالة[8]. وبالفعل، لا ريب في أنَّ لبنان هو أكثر من بلد: «إنَّه

---

7. أندره فروسَّارد، **السؤال حول الله**، (بالفرنسيَّة)، 1990.

8. يوحنَّا بولس الثاني، رسالة إلى كلّ أساقفة الكنيسة الكاثوليكيَّة حول الوضع في لبنان، 1989.

رسالةٌ ذات بُعدٍ إنسانيٍّ عالميّ».

كلُّ ما سبق لا ينفي حقيقة أنَّ نقاط التلاقي والمشتركات الوفاقيَّة بين اللبنانيِّين هي أكثر إلى حدٍّ بعيد، من انعكاسات الاختلافات والصراعات والأزمات. ثمَّ إنَّ تواجه الموارنة و الموحِّدين الدروز مرَّاتٍ متعدِّدة في التاريخ، لم يؤثِّر أبداً على إنجازات كلٍّ منهما.

وفي استنتاج ختاميّ، تبدو أُوروبَّا القريبة، وبالذات فرنسا التي «عاشت» في منطقتنا، ولو أنَّ تاريخ علاقاتنا معها لم يكن دوماً سلميّاً، مدعوَّةً إلى أن تتجنَّب كلَّ تبسيطٍ للأمور أو اختزالها في توصيف الانقسامات الطائفيَّة أو صراع الحضارات، فتشجِّع تراثَنا المتوسطيّ المشترك والقِيَم الحضاريَّة من مثل التسامح والعدالة واحترام شُرعة حقوق الإنسان، وتحديداً حقوق الأقلِّيَّات. ومن غير المسموح به الإساءَة إلى هذه القِيَم أيّاً كانت المبرِّرات والظروف.

ملحق 2

الشيخ حليم تقيّ الدين*
رجل العِلْم بالتقوى والعمل بالحِلْم

الشيخ حليم تقيّ الدين، واحدٌ من كبارنا، امتدَّت إليه يد الغدر فأَردته وهو في عزّ عطائه ونضوجه. حياته مليئةٌ بالمآثر والإنجازات. شهيداً سقط: هو شهيد الوحدة الإسلاميَّة.

إنتقل من قوس المحكمة إلى العمل السياسيّ، بمعناه النبيل. ولكن، قبل القضاء انخرط في سلك المحاماة والتعليم. فأَثَّرت كلّ هذه المواقع في شخصيَّة الشيخ حليم تقيّ الدين الإنسان، هو الذي تربَّى في بيتٍ عريقٍ من بيوتات الموحِّدين الدروز، وفي ظلّ الوالد المرحوم القاضي الشيخ أحمد تقيّ الدين الشاعر الفذّ. ولعلّ هذه الشخصيَّة المركَّبة طبعت أيضاً الميادين التي عمل فيها الشيخ تقيّ الدين، فحيثما نشط كان له الموقع المميَّز.

تعرَّفتُ إلى الشيخ حليم تقيّ الدين قبل أن أعرفه بصيته العَطِر وحركته الدائمة. وعندما عملنا مجموعةٌ من الشخصيَّات الدرزيَّة على تأسيس المجلس الدرزيّ للبحوث والإنماء، إثر استشهاد الزعيم الكبير كمال جنبلاط، متحلِّقين حول خَلَفه الأستاذ وليد جنبلاط، انضمَّ إلينا الشيخ حليم تقيّ الدين دون تردُّدٍ إدراكاً منه لأهمِّيَّة تأليف «فريق تفكير» في تلك الظروف المأساويَّة التي كان لبنان

---

* كلمة أعدّت بمناسبة إصدار كتاب عن الشّيخ حليم تقيّ الدين.

فريسةً لها من جهة، ولمساعدة وليد جنبلاط على القيام بالأعباء المترتِّبة عن الفراغ الكبير الذي أحدثه الغياب المفجع للزعيم الكبير ولتداعيات الاستشهاد على العلاقات الدرزيَّة-المسيحيَّة نتيجة الأحداث التي تلت عمليَّة الاغتيال في الجبل، من جهةٍ أُخرى.

يصعب جدّاً على المرء أن يميِّز في أحاديث الشيخ حليم ونشاطه بين القاضي والسياسيّ، هو الذي قال فيه، وبحقّ، الرئيس نبيه برّي ولم يكن بعد رئيساً لمجلس النوَّاب، في حفلة تأبينه التي أقمناها في الجامعة الأميركيَّة، في بيروت: «إنَّه حليمٌ وتقيٌّ ورجلُ دين».

في اجتماعات المجلس الدرزيّ للبحوث والإنماء كان حليم تقيّ الدين المحرِّك الديناميّ للعديد من النشاطات والاقتراحات، والساعي إلى تنفيذها. مُحَدِّثٌ لَبِق، واضح الهدف، عميق التفكير لا يخطر في بَاله إلاَّ ما يُفيد مجتمعه ووطنه.

مؤلِّفٌ غزير الإنتاج، أصدر العديد من الكتب، وله الفضل الأوَّل في تنظيم القضاء المذهبيّ الدرزيّ الذي رئسه. وقد حرص على هذا التنظيم حرصه على تقديم العدالة إلى أبناء طائفته بأسهل الطرق وأوضح الأساليب. فأعطى القضاء المذهبيّ الدرزيّ صورةً نقيَّةً في كيف تُجسِّد المحاكمُ مثالاً في النـزاهة والتنظيم، تمكيناً للمتقاضين والمحامين ولكلّ العائلة القضائيَّة من الحصول على الحقّ بلا وساطةٍ ولا شفاعة. كان مثال القاضي النـزيه والعادل، وأحكامه أُطروحاتٌ في القانون شكَّلت على مدى التراكم اجتهاداتٍ فسَّرت أحكام قانون الأحوال الشخصيَّة للموحِّدين الدروز. وكان له الفضل في شرح هذه الأحكام في كتبٍ متعدِّدةٍ في هذا المجال: «قضاء الموحِّدين الدروز»، «الأحوال الشخصيَّة عند الدروز وأوجه التباين مع السُّنَّة والشيعة، مصدراً واجتهاداً»، «الوصيَّة والميراث عند الموحِّدين الدروز، ومئة مثالٍ في تقسيم الإرث، ومقارنة مع المذاهب الإسلاميَّة الأُخرى». هذا الكتاب الأخير نشره بالاشتراك مع سماحة الشيخ مرسل نصر الذي خلفه في رئاسة القضاء المذهبيّ الدرزيّ. وقد أُتيح لي شرف كتابة التوطئة لهذا الكتاب.

عايشتُ معاناته في ضمان استقلاليَّة القضاء المذهبيّ الدرزيّ وإبعاده عن أيّ

محاور سياسيَّةٍ وتدخُّلاتٍ من أيّ جهةٍ أَتت، وذلك لإشاعة الاطمئنان بين عموم الموحِّدين الدروز كسباً لثقةٍ يولونها لقضائهم. وكم من مرَّة، وأنا ابن العدالة، تباهيتُ بقضائنا المذهبيّ لمَّا ذاع صيت نظافته ومهنيَّته مقارنةً مع بعض المحاكم الروحيَّة والشرعيَّة الأخرى. كلّ هذا بسبب من شخصيَّة الشيخ تقيّ الدين الحرّ الضمير والمستقلّ، والذي أراد أن يكون القضاء على صورة القائم عليه: عدالةٌ وحرِّيَّةُ ضمير واستقلالٌ تامّ.

والشيخ حليم تقيّ الدين لم يكن قاضياً ورجل قانونٍ واجتهادٍ فحسب، بل كان أيضاً رجل دينٍ يلبس الزيّ احتراماً لكونه القاضي الدرزيّ الأوَّل، ولأنَّه يعتبر نفسه في صلب الهيئة الروحيَّة للموحِّدين. ورجل الدين في حليم تقيّ الدين لم يكن منعزلاً ولا منـزوياً للفوز بنفسه، بل كان نمطاً جديداً من رجال الدين. إذ يعتبر أنَّ مهمَّته الأساسيَّة هي العمل داخل طائفته بما ينفع أفرادها. منفتح الإيمان عميقه، متحرِّرٌ من قيود الماضي، رجل علم وعمل، وكلاهما يتكاملان في سعيه لتحقيق سعادة مجتمعه. كما سعى إلى استلهام أحكام الشرع الدرزيّ وفق العقيدة، في إصدار أحكامه حيث يقصر أحياناً النصّ القانونيّ عن إنصاف المتقاضين.

أمَّا ما توَّج الشيخ حليم تقيّ الدين به حياته عندما اشتدَّ النـزاع المسلَّح في لبنان، أنَّه ظهر داعية وفاقٍ بين اللبنانيِّين عاملاً على نبذ العنف بينهم. فعبَّرت كلماته ومواقفه عن عميق إيمانه بوحدة لبنان الدولة والشعب والمؤسَّسات، وهذا الإيمان بالوحدة ينسحب أيضاً على مواقفه داخل طائفته وفي المدى الإسلاميّ العامّ.

لعب الشيخ حليم تقيّ الدين دوراً بارزاً في تحقيق الوحدة بين المذاهب الإسلاميَّة في لبنان، وما اعتبر هذه الوحدة إلاَّ مدخلاً لتحقيق وحدة اللبنانيِّين جميعهم، مسلمين ومسيحيِّين. وتحمَّس جدّاً لفكرة التلاقي بين المسلمين، معتبراً أنَّ بعض الاختلافات في التفسير والاجتهاد لا تُفسد لوحدة المصدر قضيَّة.

لقد رافقتُ الشيخ حليم في هذا السعي مع مجموعةٍ من الأصدقاء الذين شاركوا الشيخ تفكيره وعمله الدؤوب مع سائر المسلمين. فشكَّل رُكناً بارزاً في القمَّة الروحيَّة الإسلاميَّة، ولم تنقطع اجتماعاته مع المغفور لهما سماحة المفتي الشيخ

حسن خالد والإمام محمَّد مهدي شمس الدين، ولم يتخلَّف عن مشاركتهما موقفاً يدعو إلى نبذ الفتنة، والسعي إلى المصالحة، والحوار بين شرائح المجتمع اللبنانيّ في ظلّ الحرب الدامية التي عصفت بلبنان، واشتدَّت بعد الاجتياح الإسرائيليّ للبنان، وما أعقبه ممَّا سُمِّي حرب الجبل. وقد بدا رُكناً بارزاً وأحد واضعي الثوابت الإسلاميَّة التي أَنتجت جزءاً مهمّاً من وفاق اللبنانيِّين الذي توصَّلوا إليه لاحقاً، في ما عُرف بوثيقة الوفاق الوطنيّ.

أراد الشيخ حليم تغيير نظرة بعض المسلمين إلى الموحِّدين الدروز، وبعض المشكِّكين في إسلامهم، عن طريق مشاركة المسلمين أعيادهم ومناسباتهم وصلاتهم أيضاً. وعندما أَبلغَنا أنَّه يرغب في أن يشارك في صلاة عيد الفطر في الملعب البلديّ ببيروت، سنة 1983، طلب منَّا أن نرافق هذا اليوم المشهود. ولا أنسى أنَّنا اجتمعنا في مكتب الصديق العزيز في جريدة النهار، مواطن الشيخ حليم في بعقلين الأستاذ مروان حماده، لكي «يدرِّبنا الشيخ حليم ويعلِّمنا فرائض الصلاة»، هو الذي طالما قام بها أُسوةً بالموحِّدين الملتزمين. وكان يوماً مشهوداً مشاركته سماحة المفتي المرحوم حسن خالد وأعيان المسلمين صلاة العيد. إذ كان الشيخ حليم تقيّ الدين مؤمناً بوحدة المسلمين بالعقيدة والسياسة. ولعلّ المحطَّتَين الأساسيَّتَين في عمله العامّ كانتا مشاركته في وضع الثوابت الإسلاميَّة وصلاته المشتركة في عيد الفطر.

وعندما اشتدَّ التأزُّم في الجبل نتيجة انتشار «ميليشيات القوَّات اللبنانيَّة»، تشاركنا مع الشيخ حليم تقيّ الدين في الدعوة إلى تنظيم مسيرةٍ ضمن إطار ما يُسمَّى «المكتب الدائم للمؤسَّسات الدرزيَّة»، وكان الشيخ أحد أركان هذه المسيرة التي انطلقت من دار الطائفة الدرزيَّة في بيروت إلى السرايا (الصنائع)، حيث مقرّ رئيس مجلس الوزراء. وفي طليعة المسيرة برزت المطالبة بدخول الجيش اللبنانيّ إلى مناطق الجبل، درءاً للفتنة التي لم تتأخَّر بالوقوع وأحدثت ما أحدثت من نتائج مأساويَّة على العيش المشترك القائم في الجبل منذ مئات السنين.

إقتنع الشيخ تقيّ الدين بضرورة حفظ صيغة العيش المشترك بين الموحِّدين الدروز والمسيحيِّين في الجبل، وتمثَّلت ضمانة هذه الصيغة وصيانتها دخول الجيش

اللبنانيّ إلى الجبل، لكنّ السلطة السياسيَّة لم تمكِّنه من ذلك، فوقع ما وقع من أحداثٍ استمرَّت نتائجها لغاية تحقيق المصالحة التاريخيَّة الكبرى بزيارة غبطة البطريرك مار نصرالله بطرس صفير إلى المختارة ولقائه وليد جنبلاط.

وقد برز الشيخ حليم من هذا التحرُّك قائداً يدعو إلى نبذ العنف وتحقيق الوحدة. وربَّما شكّل ذلك سبباً لاغتياله المفجع، لأنَّ المطلوب في تلك الظروف القاسية أن يبقى لبنان فريسة التفرقة والقسمة والحرب والعنف. وكلّ مَن دعا إلى التهدئة والمصالحة والوحدة تعرَّض للاغتيال أو محاولة الشطب، كما حدث فعلاً لرفيق دربه المرحوم المفتي حسن خالد، وقبله للإمام موسى الصدر.

أقيمت الصلاة عن روحه الطاهرة في دار الطائفة الدرزيَّة، وقد أمَّها سماحة المفتي الشيخ حسن خالد وإلى جانبه الإمام محمَّد مهدي شمس الدين. ورافقنا الجنازة في الطرق الوعرة لتعطّل الطريق الرئيسيّ بين بيروت وبعقلين، واستقبل الشوف ابنه البارّ العائد إليه بعد أن أبلى البلاء الحسن، لينام قرير العين في تراب بعقلين الذي احتضنه غير بعيدٍ عن كمال جنبلاط. ولا أنسى هذه المناسبة الوحيدة التي شاهدتُ فيها سماحة شيخ العقل المرحوم الشيخ محمَّد أبو شقرا يَؤُمُّ صلاة الجنازة شخصيّاً.

هذا كلّه أتى تقديراً لعطاء الرجل، وتقديمه دمه بسخاءٍ خدمةً لوطنه ولأبناء عشيرته ولوحدة المسلمين. فكان بحقٍّ، الرجل التقيّ والعاملٍ بحِلْم. رحم الله سماحة الشيخ حليم تقيّ الدين.

ملحق 3

العِرفان في مسلك التوحيد*

كتاب العلاَّمة الدكتور سامي نسيب مكارم «العِرفان في مسلك التوحيد (الدرزيَّة)»، الصادر عن مؤسَّسة التراث الدرزيّ في لندن، سنة 2006، يهدف، بحسب المؤلِّف، إلى تعريف القارئ بمسلك التوحيد (الدرزيَّة)، وبخاصَّةٍ في بُعده العرفانيّ الإسلاميّ من جهة، وإلى تعريف المنتمي إلى هذا المسلك بحقيقة العقيدة التوحيديَّة من جهةٍ أخرى. تميَّزت طريقته بالصدق والوضوح والعمق واتِّساع الرؤية، والسلامة والبلاغة في التعبير، مستنداً إلى المفاهيم العرفانيَّة وفق عقيدة التوحيد، وإلى القرآن الكريم والحديث الشريف وتعاليم الأولياء الموحِّدين وأقوال نخبةٍ من العلماء وكبار أهل العرفان، بحيث يشكِّل هذا الكتاب وسيلةً للتواصل والتفاهم بين مختلف العقائد والأديان. وهو من هذه الناحية، عبارة عن تعريفٍ بمناخ روحيٍّ صافٍ مفعمٍ بحبِّ الله الذي هو ذروة التوحيد، على ما جاء في تعريف الكِتاب.

ولعلَّ تدرُّج المؤلِّف في إصدار الكتب التي تعالج النواحي الروحيَّة والعرفانيَّة الإسلاميَّة والصوفيَّة والتوحيديَّة، يجعل هذا الكتاب تتويجاً لجميع مؤلَّفاته، وعلامةً مضيئةً في مناخ الجهل والتشويه لحقيقة معتقده بسببٍ من تلكؤ أصحاب المعرفة

* تعليق على كتاب د. سامي مكارم، **العِرفان في مسلك التّوحيد**، لندن 2006، نُشر في جريدة النّهار بتاريخ 25 شباط 2007.

ويبقى على المرء تقبُّل هذه النعمة أو عدم تقبُّلها.

يسرد المؤلِّف مقطعاً من «فصوص الحِكَم» في تجلِّي اللَّه الذي هو الوجود، كما يتكلَّم على تجلِّي اللَّه على مرآة قلوب أولئك المتحقِّقين فيدركون حقيقة الوجود، ويتيقَّنون أنَّ هذا الوجود الذي هو تجلِّي اللَّه ليس قائماً بذاته، بل قائمٌ باللَّه، وفي الله، وللَّه الواحد الأحد، فيمثِّل الكونُ انعكاسَهُ كانعكاس الأصل صورةً في المرآة: «اللَّه لطَّف ذاته فسمَّاها حقّاً، وكثَّف ذاته فسمَّاها خلقاً».

وتماثل المشاهدة مماثلةً لا تزيد على ما هو عليه المشاهد من تهيُّؤ عرفانيٍّ، وإلاَّ صُعق وخرَّ. هذه المشاهدة اليقينيَّة التي ينعم بها المُحِبّ العارف إنَّما هي انعكاسٌ للنور الإلهيّ، كما الصورة داخل المرآة انعكاسٌ لأصلها خارج المرآة. غير أنَّ الصورة في المرآة ليست إلاَّ تشبيهاً لا ينطبق بكلِّيَّته على صورة التجلِّي الشهوديّ، بل يُقرّ بها إلى الإفهام تقريباً. هذا التسارّ بين سرّ المشاهد وسرّ الحقّ هو هذا الانفعال النسبيّ التائق إلى عرفان العارف الفاني في وعيه لنسبيَّته والدوران حولها بالواحد الأحد. إنَّه انفعال الكلمة بالمعنى. هو تواصل هذا السرّ الناسوتيّ والسرّ اللاهوتيّ، وهما بالحقيقة سرٌّ واحدٌ، وإن بديا اثنين، إنَّما هو وحدة المعنى والكلمة. والناسوتيَّة لغةٌ مشتقَّةٌ من الناس من جمع الإنسان، لا من مفرده، والجمع هو «شهود الأغيار باللَّه»، فكلَّما صَفَت هذه المرآة من «أناها» زاد المشاهد تهيُّؤاً وتقبُّلاً ومعرفةً. وإذا بهذا الإنسان الذي استحال حبّاً يوقن أنَّ مثل التجلِّي الوجوديّ هو من الواحد الأحد كمثل الدائرة في نقطة مركزها ﴿وإذا قضى أمراً فإنَّما يقول له كُن فيكون﴾[1]. فالمحبَّة في المفهوم التوحيديّ هي استشعارٌ بالاتِّحاد بنقطة البيكار في دورانها العشقيّ حولة النقطة الأساسيَّة... والموحِّد الحقّ لا يكره أحداً. حتَّى الشِّرير مهما تمادى في الشرّ، إنَّما يتبرَّأ من شرِّه... وكيف يكرهه ووجوده قضت به الحكمة الإلهيَّة... ولكن، وجبت على الموحِّد المقاومة والمجاهدة، فلا يخضع لظلمٍ ولا يرضخ لعدوانٍ ولا يستسلم لشرّ، حبّاً للخير وانتصاراً له.

---

1. سورة البقرة، 117.

فمعرفة العلَّة الأُولى ومعرفة علل الكائنات هي أمر اللَّه وإرادته وقضاؤه وقوله ﴿إنَّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كُن فيكون﴾[2].

أمَّا شروط التوحيد السبعة فيذكرها المؤلِّف، وهي: الصدق، وحفظ حقوق أخيه الإنسان، وهدايته على الخير، وإرشاده على العدل، وإعانته على قيامه بما هو حقٌّ وصلاح، ومخاطبته بالتي هي أحسن، ولا يصل المرء إلى التوحيد الحقّ إلاَّ بالتخلِّي عن عبادة العدم وعن السير في طريق البهتان والظلمة والغيبة عن الوجود الحقّ. فإذا تَمَّ له ذلك حقَّق التبرُّؤ من الإبليسيَّة التي تعيقه عن التوجُّه إلى الحقّ. وإن حقَّق هذه الخصال دخل حالةً من السلام الداخليّ نقلته إلى حالة من الرضى، إذ يكون قد أَيقن أنَّ اللَّه في وحدانيَّته هو الخير المحض، وأنَّه حقٌّ وخيرٌ وجمالٌ فيُسلم ذاته إليه، إذ يدرك أنَّه في ملكوت اللَّه العالّ لكلّ علَّة الموجود الواحد الأحد الذي لا غير له ولا حدّ.

تلك دعوة المؤلِّف إلى الموحِّدين لإدراك كُنه معتقدهم «فيستمعون القول فيتبعون أحسنه»، فلكلّ أُمَّةٍ شرعةٌ ومنهاج. وهي دعوة الناس جميعاً كي يُنعموا النظر ويروا كيف تتنـزَّل عليهم جواهر العَرَض من العالم الأسمى، فجعلهم اللَّه مساقطَ الوجود الحقّ فتشوَّقوا إلى الكمال وعشقوا جماله وجروا في بحار المشاهدة وقد امتلأوا رضًى.

ولعلَّ الكتاب يُكسب قارئه سدرة العرفان فينتشي بالمعرفة الدينيَّة الحقَّة، فتُشرق قلوب العارفين بنور اللَّه. تلك محصَّلة هذا الكتاب الذي فيه من الجواهر الثمينة والمعرفة العميقة والإضاءة على مسلكٍ حاول الجاهلون تشويه صورته دينيّاً، كما حاول بعض الطغاة تشويه سيرة أتباعه التاريخيَّة. في هذا المنحى، نبارك للمؤلِّف قدرته على الفهم ورغبته في العطاء حتَّى لا تبقى المعرفة أسيرة الانعزال، بل تنتشر في فضاء العالم سراجاً منيراً يهدي المؤمنين إليه، فإنَّ خير الزاد التقوى.

2. سورة يس، 82.

ملحق 4

كمال جنبلاط، رجل الحوار مع الشباب*

في الذكرى الثلاثين لتغييب كمال جنبلاط، لا يسعنا إلاّ أن نستذكر القائد الوطنيّ والعربيّ الذي سقط في سبيل الدفاع عن سيادة لبنان واستقلاله وقراره الحرّ.

ولعلّ جوانب كثيرة من حياة الراحل الكبير قد أصبحت معروفةً نتيجة الجهد الذي بذله وليد جنبلاط والحزب التقدّميّ الاشتراكيّ والدار التقدُّميَّة وسائر المهتمِّين في نشر وإصدار العديد من الكتب والمؤلَّفات والمخطوطات. وقد أتاحت هذه الإصدارات لجيل ما بعد كمال جنبلاط أن يتعرَّف إليه عن كثب. وعلى الرغم من وفرة الكتب التي عالجت جوانب متعدِّدة من شخصيَّة الراحل الكبير وفكره، إلاّ أنَّ جوانب كثيرةً لا تزال قيد البحث والتنقيب للكشف عن سرّ هذه الشخصيَّة الاستثنائيَّة التي يجتمع فيها النُّبل والوداعة، الفكر والروح، القوَّة والتواضع، الرِّفعة ومحاكاة أبسط الناس، الذكاء والمرح في قالب فريد عزَّ نظيره.

وأنا كنتُ مِمَّن أُكرمتُ بالتعرُّف إليه شخصيّاً، والتقرُّب منه في أُولى سنوات دخولي معترك الشأن العامّ، وكنتُ لا زال حينها طالباً في الجامعة. ولعلّي أكشفُ في هذه السطور بعضاً من جوانب هذه العلاقة التي بدأت سنة 1969 واستمرَّت حتَّى استشهاده.

---

* شهادة شخصيّة نُشرَت في كِتاب باقٍ... في ضمير الأحرار والأوفياء، باقٍ... في ذاكرة التاريخ والإنسان بمناسبة مرور ثلاثين سنة على اغتيال كمال جنبلاط. الدار التقدّميّة.

كمال جنبلاط هو تلك المنارة، وذلك المثال الذي يطمح كلّ شابٍّ إلى التقرُّب منه والسعي لمعرفته في مواقفه السياسيَّة أوَّلاً، وفي حرصه على الانتباه لنبض شرائح واسعة من المجتمع، لا سيَّما فئة الشباب منهم، وهو الزعيم الذي لم يَحُلْ انتماؤه إلى عائلة سياسيَّة عريقة تمتدّ آثارها وأدوارها عبر مئات السنين، من أن يكون زعيماً شعبيّاً عابراً للطوائف والمناطق. ولئن تولّى المناصب الوزاريَّة أو النيابيَّة فإنَّما كان ذلك من قبيل السعي للمشاركة في السلطة السياسيَّة لهذه الدولة، ممثِّلاً شريحةً عربيَّةً لعبت ولا تزال دوراً بارزاً في صنع ما أسماها الأب يواكيم مبارك الفكرة اللبنانيَّة، وما وصفها البابا الراحل يوحنَّا بولس الثاني فيما بعد، بأنَّ لبنان هو رسالة في التعدُّد والحرِّيَّة.

ولم تكن رسالة النيابة بالنسبة إليه سوى أن «يشعّ حوله هذا الاكتناه وهذا التكريم للشخصيَّة البشريَّة من حيث هي غايةٌ بحدّ ذاتها، وللحرِّيَّات العامَّة التي ترتكز عليها: الحرِّيَّة الشخصيَّة، حرِّيَّة المناقشة، حرِّيَّة الاجتماع، حقّ تأليف الجمعيَّات، حقّ العمل، حقّ العيش،... هي أن يستوعب النائب بعقله وقلبه، وينشر حوله وبين أترابه ومواطنيه مبادئ الحقّ الطبيعيّ في الحياة والحرِّيَّة والسعي وراء السعادة، مبادئ هي فوق متناول الدولة والسلطة البشريَّة بصورةٍ عامَّة... وأن يحافظ على هذه الحقوق» ...

لقد فَقَدَ الموحِّدون الدروز دورهم السياسيّ البارز بعد انتقال حكم الإمارة من المعنيِّين إلى الشهابيِّين. ونتيجةً للدعم الفرنسيّ للموارنة، في القرن التاسع عشر، وانحياز الدولة العثمانيَّة لمسايرة الدول الغربيَّة فيما سُمِّي عهد القناصل، انحسر النفوذ الدرزيّ بحيث دخل الموحِّدون الدروز مرحلة الانتداب الفرنسيّ وهم أكثر ضعفاً ووهناً. وقد تعزَّز هذان الضعف والوهن طيلة فترة الانتداب، نتيجة السياسة المنحازة التي انتهجتها فرنسا المنتدِبة لمصلحة الموارنة تحديداً، على حساب العنصر الإسلاميّ. كما جاء إعلان دولة لبنان الكبير ليؤكِّد حقيقة هذا الضعف السياسيّ نتيجة الضعف الديموغرافيّ، حتَّى إذا ما تسلَّم كمال جنبلاط مقاليد الزعامة من ابن عمّه المرحوم حكمت جنبلاط، وفي ظلّ الوالدة صاحبة العصمة السيِّدة نظيرة

جنبلاط، عشيَّة الاستقلال وخلال مرحلته، كان الموحِّدون الدروز في حالةٍ من الضعف على كلّ الصعد. وإذا شكَّلت هذه العناصر مجتمعةً حالةً فريدةً في تقهقر الوضع السياسيّ، لعب كمال جنبلاط الدور الأبرز في استعادة هذا الدور المفقود بما يفوق أهمِّيَّةً دور الطائفة التي يمثِّل، في توزيع السلطة وتركيبها. ولعلَّ وليد جنبلاط ينخرط في هذا السياق أيضاً، بالرغم من أنَّ اتِّفاق الطائف قد حلَّ محلَّ الثنائيَّة السُّنِّيَّة-المارونيَّة التي أنتجتها صيغة 1943، بحيث هدف إلى ضمان انخراط جميع الطوائف اللبنانيَّة في هذه الصيغة الوفاقيَّة الجديدة. وقد عمد مَن امتلك سلطة الحلّ والربط، ولا سيَّما الدور السوريّ الذي مارس وصايةً على مرحلة تطبيق الطائف، إلى تقسيم الطوائف اللبنانيَّة إلى فئتَين: فئة الطوائف الأساسيَّة التي أَسميتُها في غير مناسبة «الطوائف العظمى»، وفئة «الطوائف المهمَّشة»، والموحِّدون الدروز من هؤلاء. يلعب وليد جنبلاط اليوم، دوراً كدور كمال جنبلاط في تلك الحقبة، تفوق أهمِّيَّته دور مَن يمثِّلهم، وهذا مردّه إلى الشخصيَّة الفذَّة التي يتمتَّع بها الزعيمان كلٌّ على طريقته ووفق أسلوبه الخاصّ.

ولعلَّ أبرز المحطَّات التي أثَّر بها كمال جنبلاط وطبعت الحياة السياسيَّة اللبنانيَّة بطابعه كان تأسيس الحزب التقدُّميّ الاشتراكيّ سنة 1949، والثورة البيضاء ضدَّ حكم الرئيس بشارة الخوري سنة 1952، والثورة ضدَّ حكم الرئيس كميل شمعون سنة 1958، والعمل على منع التجديد له. أمَّا مرحلة الرئيس فؤاد شهاب الذي حاول بناء مؤسَّسات الدولة اللبنانيَّة على قواعد حقوقيَّةٍ وقانونيَّةٍ عصريَّةٍ، فقد أتاحت لكمال جنبلاط أن يبرز فيها كرجل دولةٍ مسؤولٍ ومشاركٍ في بناء مؤسَّسات الدولة. وفي ظلّ سيطرة حكم المخابرات في عهد الرئيس شارل حلو، وخوفاً من استدراج لبنان إلى محور النماذج التي شهدتها المنطقة العربيَّة، ولوقف انجرار لبنان للدخول في منظومة الأنظمة الاستبداديَّة الشموليَّة التي تتعطَّل فيها الحياة الديمقراطيَّة ويُقضى على دعائم العيش المشترك، وظنّاً منه أنَّ الرئيس الراحل سليمان فرنجيِّه قد يضع حدّاً لتدخُّل العسكر في السياسة، أيَّده كمال جنبلاط، هو العاشق للحرِّيَّة والمناهض لحكم المخابرات. وفي موازاة عمله

الرسميّ كوزير ونائب، ولدى ملاحظته أنَّ مؤسَّسات الحكم لم يعد باستطاعتها أن تلعب دور الناظم للحياة السياسيَّة، وعشيَّة الانزلاق في الحرب الداخليَّة، أسَّس الحركة الوطنيَّة وقادها. وقد ضمَّت قوًى وأحزاباً وشخصيَّات، غير معتمدة على التمثيل الطائفيّ سعياً لتكوين كتلة تاريخيَّة عابرة للطوائف والمناطق، تستطيع إنقاذ الوضع اللبنانيّ من التخبُّط في مستنقعات الطائفيَّة البغيضة، أسوةً بالكتلة التاريخيَّة التي ضمَّت الدستوريِّين والكتلويِّين وأنتجت الاستقلال سنة 1943، وبالكتلة التاريخيَّة التي جمعت النهج والحلف، ونجحت في وقف تدخُّل الأجهزة في العمل السياسيّ. هكذا شكَّلت الحركة الوطنيَّة قاعدةً وطنيَّةً بعيدةً عن الطائفيَّة، هدفها إصلاح النظام السياسيّ الطائفيّ ووقف الممارسات البشعة التي أدَّت إلى تعطيل الحياة الديمقراطيَّة وأحلَّت محلَّها المواجهات في الشارع. وقد قال يوماً: «لو كنتُ حرّاً مختاراً لتركتُ السياسة جانباً ونبذتها حتَّى من تفكيري».

لقد قام وليد جنبلاط بإعادة قراءة تلك المرحلة كما قام بها الحزب التقدُّميّ الاشتراكيّ، ونحن جميعاً مدعوُّون لإعادة قراءة هذه المرحلة ونقدها من أجل الاتِّعاظ من تجاربها دروساً للأجيال القادمة حتَّى لا تنزلق في المواجهات والتناحر كما يحدث راهناً.

والعبرة من سرد هذه الوقائع الإشارة إلى أنَّه عندما أُتيحت لكمال جنبلاط فرصة المشاركة في بناء مؤسَّسات الدولة على عهد الرئيس فؤاد شهاب، ظهر رجل دولة. وعندما رأى أنَّ الحكم انتقل بعدها إلى أصحاب «التفاهة السياسيَّة» كما كان يصف أفراد الطبقة السياسيَّة، كان لهم بالمرصاد بقامة القائد الوطنيّ والزعيم الشعبيّ.

لقد تعرَّفتُ إلى كمال جنبلاط يوم كان وزيراً للداخليَّة في مكتبه في السرايا – السرايا الكبير الذي ضمَّ قبل ترميمه وتجديده مكاتب وزارة الداخليَّة – بمناسبة توجيه دعوةٍ إليه لإلقاء محاضرةٍ في كلِّيَّة الحقوق في الجامعة اليسوعيَّة بصفتي الطالبيَّة آنذاك. ولم تكن الجامعة في تلك الفترة، مرحِّبةً بفتح منبرها لكمال جنبلاط بما أنَّها شكَّلت معقلاً لما سُمِّي بـ «الحلف». إلاَّ أنَّ بعض الشباب المنفتحين، ولم

يكونوا كثرة في تلك الأيَّام، فاتحوني بأمر توجيه الدعوة، مفترضين أنِّي على علاقة بالزعيم، لكوني درزيّاً. لم أرغب حينها في تخييب آمالهم ولم أَبُح لهم بأنَّه لا يعرفني، فرتَّبتُ موعداً عن طريق أحد معاونيه، وزرناه في مكتبه في الوزارة. شكَّلت هذه الزيارة مناسبةً للتعرُّف إليه. غير أنَّ اهتمام كمال جنبلاط بي شجَّعني على تدعيم هذا الاتِّصال بأن أطلب إليه مرافقته من منـزله في فرن الحطب إلى الجامعة، يوم المحاضرة. وهكذا كان. وألَقى رجل الدولة محاضرةً ركَّز فيها على الحرِّيَّات العامَّة، ودور الشباب في بناء الوطن، والابتعاد عن التحزُّب والتطرُّف، والتعلُّق بالديمقراطيَّة خاصَّةً في تعاطي الشباب فيما بينهم. وكم نحن بحاجةٍ إلى مثل هذا الدرس في ظروفنا الحاضرة!

وتوالت زياراتي له برفقة بعض الأصدقاء من الجامعة. وخلالِ سنة 1972، وفي عزّ خلافه مع أركان الحلف والرئيس صائب سلام، طلب اتِّحاد الطلبة في الجامعة دعوة كمال جنبلاط مجدَّداً لإلقاء محاضرة.

ويوم الموعد المقرَّر، لاحظتُ حركةً غير اعتياديَّة في الجامعة، من قبل بعض الخلايا الحزبيَّة الفاعلة، وتواجداً لعناصر قوى الأمن في المحيط. ثمَّ بدأت تظهر في حرم الجامعة وفي محيطها، صورٌ للرؤساء صائب سلام وسليمان فرنجيِّه وكميل شمعون وزعيم الكتائب الشيخ بيار الجميِّل. أيقنتُ حينها أنَّ الظرف السياسيّ الملتهب لا بُدَّ وأن ينعكس على أجواء المحاضرة. فسعيتُ للحديث مع بعض أركان الحركة الطالبيَّة الممثِّلة لبعض الأحزاب المسيطرة في الجامعة، فأكَّدوا لي أنَّ هذه الحركة هي حركةٌ احتجاجيَّةٌ ومحدودةٌ، ولن تؤثِّر على سير المحاضرة. وأبلغتُ مرافقي كمال جنبلاط بما يجري فطلبوا منِّي وضع «المعلِّم» في صورة ما يحدث. عرضتُ عليه الأمر فأجابني «إنَّني مدعوٌّ ولا أستطيع إلاَّ أن أُلبِّي الدعوة». حضر الزعيم في الموعد المحدَّد، ومحيط الجامعة يعجّ بالطلاَّب، حاملين صور بعض الرموز السياسيَّة التي ناصبت الخصومة لكمال جنبلاط. أمَّا قاعة الاحتفالات الكبرى في الجامعة فغصَّت بالجمهور. دخل كمال جنبلاط القاعة على صوتِ الصيحات المستنكرة، بالإضافة إلى بعض الهتافات المؤيِّدة. وعندما بدأ رئيس اتِّحاد

الطلاَّب كلمته تعالت صيحات الاستهجان والاستنكار، ثمَّ دعا المحاضر إلى إلقاء محاضرته. قام الراحل الكبير وتوجَّه نحو المنصَّة، حاول الطلاَّب منعه، وعندما أصرَّ افترشوا الأرض لمنعه من التقدُّم. حاولنا مراراً وتكراراً لكن دون جدوى. وأذكر أنَّ أحد مرافقيه قال له «إذا بتريد يا معلِّم، منـزيحهم»، فأجابه: «هؤلاء طلاَّب والتعامل معهم يجب أن يكون بالحُسنى»، محذِّراً من استخدام العنف بوجه أيٍّ كان. تراجع كمال جنبلاط ليأخذ مكانه في مقدِّمة الصالة، بعدما تعذَّر عليه الوصول إلى المنبر، وطلب منِّي إحضار الميكروفون ليتوجَّه إلى الطلاَّب من مقعده. وعندما بدأ الحديث قطعوا الشريط فتعطَّل الميكروفون. عندها قرَّرنا أنَّه، نظراً للاستحالة، يجب الخروج من القاعة والتوجُّه إلى مركز رابطة العمل الاجتماعيّ في فردان. فحضر جمعٌ غفيرٌ من الطلاَّب المستنكرين أعمال شغب زملائهم، واستمعوا إليه في صفائه ونضوجه ورغبته في فتح حوار مع الشباب الرافض دون حقدٍ أو ضغينة، مطلقاً عليها اسم «أرباب الرفض الجديد»، هو الذي اعتبر أنَّ الأُسسَ الأوَّليَّة للديمقراطيَّة الحديثة هي حرِّيَّة الإنسان في المعنى الحاليّ لهذه الكلمة، والمساواة الطبيعيَّة أو الجوهريَّة L'égalité naturelle.

تكرَّرت تجربة الالتقاء بأشخاص على خصومةٍ معه من حيث انتمائهم وتوجُّههم السياسيّ. ففي يوم من الأيَّام، دعا أحد أصدقائنا جمعاً من النخبة المسيحيَّة المعترضة على سياسة كمال جنبلاط، إلى لقاءٍ في منـزله، وذلك عشيَّة انفجار الوضع في نيسان 1975. ونظراً لحدَّة النقاش وتعطُّل الحوار مرَّاتٍ عديدة، واستعمال بعض العبارات القاسية أحياناً، خشيتُ أن يلومني على ترتيب مثل هذه الاجتماعات ذات الجوّ العدائيّ الخالص. وفي وقتٍ انتابني هذا الشعور، رأيته راضياً عن الجلسة وما دار فيها، معتبراً أنَّها «كسرت الجليد».

ولا يفوتني أبداً أن أُدرج ضمن هذا السياق، وجهاً آخَر لهذه العلاقة الشخصيَّة يوم كنتُ رئيساً لرابطة العمل الاجتماعيّ، وهي رابطةٌ تضمّ الجامعيِّين الموحِّدين الدروز، وتنظِّم سلسلةً من المحاضرات والندوات حول شعار «المعرفة الدينيَّة للموحِّدين كافَّة». وكان كمال جنبلاط من أبرز المشاركين فيها، في مركز الرابطة

ودار الطائفة. ولا أزال أحتفظ بنسخ عن محاضراته بصوته، حيث يبدو محلّقاً في روحانيَّته واطّلاعه على المعارف الإنسانيَّة والفلسفيَّة، مبحراً بين الفلاسفة، متحدّثاً عنهم بانسياب كبير وسهولة، وخاصَّةً في تحديد دور كلٍّ منهم ومدى تأثيره على العقيدة التوحيديَّة «فالعلاقة قائمةٌ إذاً في ما أخذه مسلك الحكمة الدرزيّ التوحيديّ مباشرةً من مصر، وفي ما استقاه من حكماء بلاد الإغريق»...

هو كمال جنبلاط المحاور الهادئ والمستوعب، الحالم والعنيد في مواقفه، الوديع مع الجيل الجديد الذي ما انفكَّ يطالبه بأن يلعب دوره في الحياة الوطنيَّة، كما دعا النُّخبة أيضاً لتلعب دروها، نابذاً العنف وإن «كان يفضّله أحياناً على الاستسلام والتخاذل».

العِلم والعمل لديه متكاملان، أُسوةً بأولياء الموحِّدين النسَّاك الذين يعتبرون أنَّ اكتمال العِلم بالعمل هو الغاية والرسالة. وآمن بـ «طلب وجهٍ للحقيقة أعمق وأشمل وأقرب لوحدة الحقّ في هذا الوجود الظاهر بما يؤذن بعهدٍ عقليٍّ وروحيٍّ جديد، فتزول أزمة الكفر والتكفير من النفوس، وتتلاقى فيه المسيحيَّة بحبِّها المتكامل في نبعة أصالتها الإنجيليَّة بالإسلام المتجدِّد في انفتاحه على ماضيه الأوَّل وحكم خلفائه وسماحة قرآنه... فتزول عميقاً من النفوس مجاري التمييز والتفريق ومصادره... لأنَّ مركب أزمة الكفر والتكفير النفيس تكون قد غادرتنا جميعاً إلى غير عودة»... إنَّه مدرسةٌ في الأخلاق والوطنيَّة والقيادة.

بعد تغييبه منذ ثلاثين سنة، ومضيّ تلك الحقبة السوداء، فهم اللبنانيُّون سبب غيابه ألا وهو الاستئثار بلبنان، وحكمه، وتجريده من نُخَبه الوطنيَّة القائدة. لذا، اعتُبر اغتيال كمال جنبلاط إنهاءً لمرحلة الاعتراض والمقاومة والسعي لإقامة نظام حُكم تقدُّميٍّ وليبراليٍّ منفتح، وإيذاناً ببدء مرحلة التبعيَّة والاسترهان والخذلان.

وعند بزوغ ربيع لبنان، على إثر استشهاد الرئيس رفيق الحريري، وتجمُّع اللبنانيِّين في 14 آذار 2005، استعاد كمال جنبلاط رسالته في حفظ الهويَّة العربيَّة لبلده، وضمان سيادته واستقلاله وقراره الحرّ، على قواعد الحرِّيَّة والديمقراطيَّة والعيش المشترك. وانطلاقاً من حرصه على الشباب، طمح إلى تحويل لبنان مكاناً

بإمكان الشباب اللبنانيّ أن يُبدع فيه، ويحيا حياةً كريمةً منفتحةً على ثقافات الشرق والغرب. كما حرص على صيغة التوافق بين اللبنانيّين، وإن اهتمَّ بإقامة نظام حُكم يحفظ للطوائف خصوصيَّتها، وللدِّين حيِّزه الخاصّ، وللدولة الواحدة الجامعةً إشغالها الحيِّز العامّ على قاعدة إلغاء الطائفيَّة السياسيَّة في مرحلةٍ أُولى، وصولاً إلى العلمنة الكاملة لاحقاً. لكنَّ هذه العلمنة بنظره، ليست ضدَّ الدين على ما يفسِّرها البعض، بل علمانيَّة تحترم الأديان والمعتقدات.

إنَّ نضال كمال جنبلاط على مدى عشرات السنين، وقد عمَّده بدمه الزكيّ الطاهر، يرتكز على إقامة مشروع الدولة على قاعدة التنوُّع وحفظ الخصوصيَّات، نابذاً الطائفيَّة ومآسيها في التفرقة وإدخال الوهن إلى المجتمع اللبنانيّ الفريد. لقد افتتح كمال جنبلاط مآسي لبنان، وفي كلّ يوم تتجدَّد أفكاره لتنتصر، فيُزهر ربيع لبنان مجدَّداً، وإن بثمنٍ باهظٍ دفعه كمال جنبلاط بدمه مع سائر الشهداء الذين شكَّلوا قوافل طويلة.

رحم الله كمال جنبلاط، وكم نفتقده في أيَّامنا هذه، هو القائل «وهل من شيءٍ أشرف من العبور فوق جسر الموت إلى الحياة التي تهدف إلى إحياء الآخرين، وإلى إعطاء قضيَّتهم قوَّة الانتصار مع الزمن، وإلى ترسيخ مثال الصمود والتضحية في نفوس المناضلين». هذه هي وصيَّة كمال جنبلاط.

لعلَّ في هذه الوصيَّة عبرةٌ للأجيال.

ملحق 5

إجتماع الجمعيَّة الدرزيَّة الأميركيَّة في دورينغو*
كلمة باسم المكتب الدائم للمؤسَّسات الدرزيَّة

حضرة رئيس الجمعيَّة الدرزيَّة الأميركيَّة،
حضرات مدراء فروع وأعضاء الجمعيَّة،
أيُّها الحفل الكريم،

بكلِّ فخرٍ واعتزازٍ أقفُ في هذا الحشد الجامع لأتحدَّث باسم المكتب الدائم للمؤسَّسات الدرزيَّة في لبنان.

تحيَّةً لكم أيُّها الأفاضل، من الإخوة والأخوات، وتحيَّةً لجمعيَّتكم الزاهرة، وتحيَّةً لمؤتمركم الذي أصبح محجّاً للموحِّدين الدروز يقصدونه من مختلف بقاع الأرض، بفضل المكانة التي حقَّقتها جمعيَّتكم في خدمة أبناء الجالية في الولايات المتَّحدة، وتعاونها الطيِّب لخدمة الأغراض العامَّة للموحِّدين الدروز في لبنان وخارجه، وبخاصَّةٍ خلال سنوات المحنة الرهيبة التي بلغت أوجها في الأعوام 1982 و1983 و1984. وكنَّا نحن في بيروت، على اتِّصالٍ شبه يوميٍّ بمسؤولي الجمعيَّة، منسِّقين معهم ومقدِّرين لنشاطاتهم ومعجبين بحيويَّتهم. وقد استمرَّت تلك العلاقات المميَّزة على مدى السنين التالية، ولا بُدَّ من استمرارها مستقبلاً.

---

* كلمة ألقيت في اجتماع الجمعية الدرزية الأميركية، دورينغو، كولورادو 1987.

إخواني، لقد شاء الله، مولانا الذي لا مولى لنا سواه، أن نحضر هذا المؤتمر المنعقد في مدينة دورينغو بولاية كولورادو، في هذا البلد العظيم المضياف، الأخ عفيف خضر والأخ زياد حمادة عن المكتب الدائم، والأخ عصام مكارم عن مؤسَّسة الرعاية، والأخ جهاد الزهيري عن معالي الزعيم وليد جنبلاط. وأنا، وإن كنتُ أحضر هذا الجمع للمرَّة الأولى، فإنِّي لستُ غريباً عن هذا النشاط، إذ إنِّي مع رفاقي في المجلس الدرزيّ للبحوث والإنماء كان لنا شرف التعاون مع الجمعيَّة الدرزيَّة الأميركيَّة ومثيلاتها في العالم، بالدعوة إلى المؤتمر الدرزيّ العالميّ الذي كان مقرَّراً عام 1981. وبعد نكبة الاجتياح الإسرائيليّ عام 1982، درج المكتب الدائم للمؤسَّسات الدرزيَّة على إيفاد ممثِّلين عنه، سنويّاً، لحضور هذا المؤتمر. ويشرِّفني أن أكون اليوم في عدادكم، وأن أُكلَّف بالتحدُّث باسمهم.

لطالما كانت فكرة المؤتمرات عزيزةً على قلوبنا لأنَّها تمثِّل إطاراً للاجتماع والحوار وبحث المشاكل والوصول إلى النتائج العمليَّة، هذا إلى جانب البديهيَّات الأساسيَّة مثل حفظ العلاقات بين الإخوان، واستمرار الصداقة والألفة، ونقلها إلى الأجيال الجديدة.

وإذا كان مؤتمركم السنويّ يشكِّل نموذجاً يُحتذى به، فإنَّ توقنا كان دائماً لتطوير الفكر المؤسَّسيّ على قواعد سليمةٍ بحيث تتجمَّع جميع القوى الحيَّة للموحِّدين الدروز ضمن إطار مؤتمر عالميٍّ دائم، له أمانةٌ عامَّةٌ دائمةٌ، وضمنه هيكليَّةٌ تنظيميَّةٌ تتيح للمؤسَّسات والجمعيَّات والروابط والقوى الحيَّة التعبير عمَّا يجول في خاطرها، سعياً لجمع الكلمة والموقف في العالم أجمع. نحن أبناء مذهب التوحيد أعطينا منذ ألف عام، أمانةً في أعناقنا لحفظ المبادئ الدينيَّة والخلقيَّة والاجتماعيَّة التي نادى بها أجدادنا، وأُوصينا بالشورى والعمل المشترك.

وإذا كانت فكرة المؤتمر قد عطَّلتها بعض الظروف الخاصَّة غير الخفيَّة على الكثيرين منكم في حينه، بالرغم من نجاح المؤتمر التحضيريّ الأوَّل في شباط 1980، فإنَّ سعينا الدائم ما زال يتَّجه لتأسيس هذه الفكرة على أُسسٍ لا تنجح الظروف المعطِّلة في تقويضها.

إنَّ معالجة قضايا الانتشار الدرزيّ في مختلف أصقاع الأرض ليست قضيَّةً سياسيَّةً، بل قضيَّةٌ حضاريَّةٌ واجتماعيَّة. فالموحِّدون الدروز لا سياسة لهم إلاَّ الدفاع عن الحقّ العربيّ في كلّ مجال، وحمل مشاعله ضمن مؤتمراتٍ وجمعيَّاتٍ، أو على الأصعدة الفرديَّة كما يحفل تاريخنا.

ترانا اليوم نواجه مشكلةً تطرحها ظروف الحياة المستجدَّة، فنحن لم نعُد عشيرةً تحمي الثغور الإسلاميَّة من غزوات الإفرنج، بل أمسينا فئةً منتشرةً في العالم يتوجَّب على أبنائها حفظ تراثهم القوميّ والحضاريّ بشكلٍ لا يتعارض مع أنظمة البلاد التي حلُّوا فيها. ولم نعُد فئةً منغلقةً في معتقداتها على الرغم من سموّ تلك المعتقدات التوحيديَّة، بل أضحينا جماعةً عليها أن تقاوم تحدِّيات العصر وتنقل أفكارها إلى العالم على ضوء الفكر الحديث. ولا يمكن أن يتوفَّر النجاح لهذا العمل إلاَّ ضمن العمل المؤسَّسيّ الجماعيّ والحوار الديمقراطيّ الواعي والعمل المنظَّم.

إنَّ استمرار وجود الموحِّدين الدروز في الشرق، وتمكنهم على الرغم من قلَّة عددهم، من تحقيق الإنجازات العسكريَّة والحضاريَّة الرائعة على مدى قرونٍ طويلة، حصل بفضل اعتماد العقل والمنطق والشورى وروحيَّة التضحيَّة الخارقة التي لا يمكن أن تصدر عن جهلٍ أو تردُّد، بل عن إيمانٍ بحقٍّ مقرَّر، وتمسُّكٍ بعروبةٍ أصيلةٍ نالت دائماً إعجاب المؤرِّخين والشعراء. ولم تكن انتصارات الموحِّدين الدروز العسكريَّة في معارك السنوات الأخيرة إلاَّ مثالاً على التراصّ الاجتماعيّ من القمَّة إلى القاعدة.

معشر الإخوان، وكما سبق أن توقَّعنا في كلماتٍ أُلقي بعضها في مؤتمراتكم السابقة، فإنَّ الموحِّدين الدروز وظَّفوا انتصاراتهم للمصلحة القوميَّة واللبنانيَّة، ساعين إلى تطوير النظام اللبنانيّ وإخراجه من حال التسلُّط اللاديمقراطيّ إلى حالٍ أكثر تقدُّميَّةً تتبنَّى آمال المواطنين في وطنٍ حرٍّ متحرِّرٍ قائم على العدل والمساواة. ولنا كلّ الثقة بالقيادة الدرزيَّة المعقودة اللواء للزعيم الوطنيّ وليد جنبلاط لاستمرار الكفاح حتَّى تحقيق هذا الهدف.

يشدُّنا إلى مؤتمركم التوق إلى رؤية جمعيَّتكم تقوم بدورٍ رائدٍ في مضمار تأطير

العمل المؤسَّسيّ على صعيد الموحِّدين الدروز في العالم، المنتشرين في بقاع الأرض كافَّة. وإذا وجَّهنا نداءَنا لمؤتمركم من أجل تحقيق هذه الغاية فلأنَّ وجودكم في هذا البلد العامر بمُثُل الحرِّيَّة والديمقراطيَّة يفسح في المجال أمام حرِّيَّة القول والتعبير. فإذا كان هذا شأن هذه البلاد، فإنَّنا ولا شكّ ننظر بالكثير من الأمل لجمعيَّتكم أن تبادر بدون إبطاءٍ في إعادة فتح الملفَّات التي سبق للمجلس الدرزيّ للبحوث والإنماء أن طرحها أثناء التحضير للمؤتمر الدرزيّ العالميّ الذي كان مقرَّراً انعقاده في صيف عام 1981. وقد سعى هذا المجلس، ومن ثَمَّ المكتب الدائم للمؤسَّسات الدرزيَّة إلى تطوير هذه الأفكار.

أمَّا المواضيع التي ينبغي إعطاؤها العناية اللازمة لبحثها فهي:

- الملفّ الدينيّ الذي يُعنى بجعل العقيدة في متناول عامَّة الموحِّدين وليس خاصَّتهم فقط، لكي يبقى للموحِّدين الدروز هوِّيَّةٌ في خضمّ الظروف التي يعيشون فيها.
- الملفّ التاريخيّ الذي يحوِّل تاريخ الموحِّدين الدروز مادَّةً سهلةً يستسيغها النشء الطالع بحيث يجعل مآثر الآباء والأجداد دروساً في البطولة والشهادة، ويُزيل الظلم الذي أَوقع بعضُ المؤرِّخين أبناءَ عقيدتنا به، بصفتهم بُناة الوطن وحُماته وركناً ضامناً لوجوده واستقلاله.
- الملفّ التنظيميّ للسعي إلى تأطير العمل المؤسَّسيّ الذي أَشرتُ إليه سابقاً، عن طريقٍ أمانةٍ عامَّةٍ دائمةٍ تجمع الروابط والمؤسَّسات والجمعيَّات في الوطن الأُمّ والاغتراب، ضمن بوتقةٍ واحدةٍ منظَّمةٍ لحشد الطاقات وسهولة الاتِّصال ومواجهة الأعداء في الداخل والخارج. ولتحقيق هذه الغاية نتمنَّى أن تصدر عن مؤتمركم توصيةٌ بتأليف لجنةٍ تحضيريَّةٍ للإعداد لهذا المؤتمر، مع تحديد أهدافه وجدول أعماله والصيغة التنفيذيَّة المقترحة.
- الملفّ الاقتصاديّ-الاجتماعيّ، وهو ما بدأ به إخوانكم في الوطن الأُمّ في سعيهم لمواجهة آثار المحنة القاسية عن طريق المؤسَّسات التي اهتمَّت برعاية عائلة الشهيد والمعاق والجريح والمريض. من هنا، ندعوكم بإلحاحٍ

إلى تقرير الخطوات العمليَّة في دعم المؤسَّسة الدرزيَّة للرعاية الاجتماعيَّة التي تمثِّل بنظرنا أملاً مضيئاً في ليل لبنان الحالك، بهدف مساعدة المتضرِّرين من آثار المحنة اللبنانيَّة التي طال أمدها، وكذلك من أجل إنجاز مشروع المؤسَّسة الصحِّيَّة للطائفة الدرزيَّة في عين وزين.

- الملفّ الثقافيّ-الإعلاميّ الذي يجسِّده يوميّاً المكتب الدائم للمؤسَّسات الدرزيَّة في تصدِّيه لكلّ ما يقال وما يُكتب، عن طريق المتابعة اليوميَّة للأحداث اللبنانيَّة والعربيَّة والعالميَّة، وتوثيقها. كما يعمل عليه المجلس الدرزيّ للبحوث والإنماء الذي يرعى الإنتاج الفكريّ عن طريق إصدار الكتب التي تُضيء سراجاً منيراً في معركتنا الحضاريَّة. ومن هذا المنبر، ندعو مؤتمركم لدعم صندوق المكتب الدائم لكي يتمكّن من متابعة رسالته بالزخم الذي ترغبون فيه.

- أمَّا الملفّ السياسيّ والعسكريّ، ولو أنَّ جمعيَّتكم لا تتعاطى به مباشرةً، فإنَّ لكلّ واحدٍ منكم، على مستواه الشخصيّ، دوراً مهمّاً في دعم الموقف السياسيّ والعسكريّ بما تتوافر لديه من إمكانيَّات ليس على الصعيد المادِّيّ فحسب، بل وخصوصاً على صعيد شرح الموقف الدرزيّ العامّ المنسجم مع الموقف الإسلاميّ الموحَّد والمتلاقي مع جميع القوى الوطنيَّة بزعامة وليد جنبلاط والحزب التقدُّميّ الاشتراكيّ. وليس أدلّ على أهمِّيَّة هذا الموضوع من الزيارات المتكرِّرة التي قام بها الأستاذ وليد جنبلاط والاتِّصالات المتعدِّدة معكم، أفراداً وجمعيَّة، وما طالبكم به المكتب الدائم مراراً وتكراراً، في السعي لإيجاد صيغة عملٍ متقدِّمة تأخذ بالاعتبار الإمكانيَّات المتوافرة لديكم ضمن القوانين والأنظمة التي ترعى وجودكم، والمهامّ الملقاة على عاتقكم كمواطنين موحِّدين دروز يعنيكم ما يجري في وطنكم الأمّ مباشرة. من هنا، نطالب جمعيَّتكم بالتجاوب مع كلّ مسعًى تقوم به القيادة الدرزيَّة لا لتوفير الجهد عنكم، بل لتأطير عملكم ضمن صيغة تحقِّق الآمال المعقودة عليكم وعلى الإمكانيَّات المتاحة لكم عن طريق الاتِّصالات التي

يمكنكم القيام بها في عاصمة القرار الدوليّ الأُولى، بما يعني وضع إخوانكم في الوطن الأمّ، وتأثير ذلك على مستقبلكم ومستقبل أولادكم.

ومن ناحيةٍ ثانية، وقد اطّلعنا اليوم، وفي ما مضى من أعمال مؤتمراتكم، على الهموم الدينيَّة التي تواجهكم في الحفاظ على هوِيَّتكم، وأنَّكم فتحتم باب النقاش للعديد من الآراء والتفسيرات الدينيَّة الواردة إليكم من الخارج ومن بين ظهرانيكم، نعتقد جازمين أنَّ النقاش الحرّ لا بُدَّ أن يُتيح بلورة الأفكار. إلاَّ أنَّ موضوعاً بمثل هذه الأهمِّيَّة لا يتقرَّر بصورةٍ إفراديَّةٍ من قبل أيّ شخصٍ أو هيئةٍ مهما علا شأنه أو شأنها في الوطن الأمّ والاغتراب، بل يتقرَّر من خلال صيغةٍ مسكونيَّةٍ معيَّنةٍ تُتيح توحيد المفاهيم الدينيَّة، وتضع حدّاً للاجتهادات الشخصيَّة، لأنَّ أيَّ عملٍ غير منظَّم ضمن هذه الأفكار يُضيف بُعداً انشقاقيّاً على أحوالنا، وهذا ما لا يقصده أيٌّ منَّا، لا سمح الله. لذا، نطالبكم بالبقاء متعاونين ومتحاورين وقابلين لأيّ مسعًى وواضعين الأمور عند نطاقها المحدود حتَّى يحين موعد التحضير لهذه الصيغة المسكونيَّة التي لها وحدها حقّ تطوير المفاهيم وتوحيدها.

معشر الإخوان، الوحدة هدفنا والاتِّحاد رائدنا، وبنو معروف لم يعتدوا يوماً على أحد، بل هم دائماً وأبداً شوكةٌ في عيون أعدائهم وحربةٌ تُغرز في خاصرتهم. وحربهم التي خاضوها ودفع إخوانكم الشهداء الأبرار ثمناً لها من حياتهم وشبابهم ومستقبلهم لكي يبقى لكم وطنٌ ولطائفتكم كرامةٌ، أتت دفاعاً عن النفس وحفاظاً على الأرض والعَرْض.

أيُّها الإخوان، إن طال حديثنا فلأنَّ شؤوننا وشجوننا تستوجب انتهاز جميع الفرص لإيضاح موقفنا في وطنكم الأُمّ الذي لا يزال يرزح تحت وطأة الانشغال في الدفاع عن النفس، متناسياً ولو مؤقَّتاً، سائر وجوه الحياة المدنيَّة العاديَّة التي تنعمون أنتم بها في ربوع هذه البلاد العظيمة التي هي نبراسٌ لِمُثُل الحرِّيَّة والديمقراطيَّة والعدالة، وإن كانت هذه المُثُل لا تمارس في منطقتنا الشرق أوسطيَّة. ويقيننا أنَّ لبنان لا بُدَّ له أن يخرج منتصراً، في آخر المطاف، على جميع العوائق التي تحدّ من طموحه وتقدُّمه وتطوُّره الديمقراطيّ. ولئن كان هذا

شأن الأوطان دائماً، أن تنبعث منِ جديدٍ من بين الرماد كطائر الفينيق، فلأنَّ فيٍّ وطنكم رجالاً إذا أرادوا أراد والله من وراء القصد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ملحق 6

كلمةٌ وجّهها ممثّل طائفة الموحّدين الدروز إلى السينودس الخاصّ بلبنان*

قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني،

أصحاب النيافة والغبطة والسيادة،

الإخوة والأخوات،

يُشرّفني أن أُمثّل طائفة الموحّدين الدروز لدى اجتماعكم الموقّر المنعقد تلبيةً لدعوة صاحب القداسة البابا يوحنّا بولس الثاني الذي يعتبره كلُّ اللبنانيّين قُطباً روحيّاً وصديقاً كبيراً لهم، إلى أيّ طائفةٍ انتموا. ليس صدفةً أن يعلّق الفاتيكان الأهمّيّة الكبرى على التجدُّد في لبنان. فصاحب القداسة عبّر عن أهمّيّة لبنان بإعطائه صفة «الرسالة». وبالفعل، لبنان هو أكثر من بلد، إنّه رسالةٌ ذات أبعادٍ إنسانيّة.

منذ الدعوة الأُولى إلى هذا السينودس التي تعود إلى عام 1991، تابعتُ عن كثب الأعمال التحضيريّة على مدى شهور، غير غافلٍ الأهمّيّة التي اكتسبتها الدعوة الموجّهة إلى جميع ذوي النوايا الحسنة. فالدعوة إذاً ليست موجّهةً إلى اللبنانيّين عامّة، ولا إلى المسيحيّين على وجه الخصوص، لكنّها موجّهة إلى ذوي النوايا

* الفاتيكان 1995.

الحسنة كلّهم. فالموضوع إذاً له بُعدٌ إنسانيّ.

في الوقت المخصَّص لي سأتناول ثلاثة مواضيع: تعميق الوفاق الوطنيّ، وإعادة النظر بالدور المسيحيّ في لبنان، وبعث العلاقة بين الموحِّدين الدروز والمسيحيِّين.

1. تعميق الوفاق الوطنيّ

إنَّنا نشارك بحماس هذا التجدُّد في الوعي الكامل للقضيَّة اللبنانيَّة، والإيمان بلبنان متنوِّع مع التأكيد على مبدإ المواطنيَّة الذي يجب أن يدعم ولاء جميع اللبنانيِّين لوطنهم وانتماءهم إليه.

فعلى الرغم من كلّ ما عشناه وكلّ ما سمعتموه عن لبنان ورأيتموه، فإنَّ نقاط الالتقاء بين اللبنانيِّين تتجاوز إلى حدٍّ بعيد نقاط الاختلاف. فجميع اللبنانيِّين يعانون من المشاكل الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة نفسها... ويطمحون من غير وعي منهم أحياناً، إلى الأهداف عينها: فهم إذاً «واحدٌ» في مواجهة حاجاتهم اليوميَّة المعيشيَّة والصحِّيَّة والاقتصاديَّة، إلاَّ أنَّهم يبقون مختلفين في إدارة القضايا المتعلِّقة بأحوالهم الشخصيَّة.

لقد شكَّل اتِّفاق الطائف قاعدةً انتقاليَّةً في التأسيس لنظام سياسيٍّ جديد. لذا، نحن نعتقد أنَّه من المفيد المشاركة الجماعيَّة في النقاش السياسيّ للوصول إلى قانونٍ انتخابيٍّ يلبِّي طموحات الطوائف اللبنانيَّة المختلفة، مع الأخذ بعين الاعتبار لخصوصيَّتها. وإنَّنا نُطلق دعوةً إلى جميع اللبنانيِّين، وإلى المسيحيِّين بصفةٍ خاصَّة، للمشاركة في الانتخابات المقبلة، حتَّى لا تقع البلاد في الموقف الذي نجم عن المقاطعة سنة 1992.

إنَّنا نأمل، وفي أقرب فرصة، أن يصبح بالاستطاعة معالجة الاختلافات ضمن نطاق مجلس الشيوخ الذي يمثِّل الطوائف اللبنانيَّة ضمن احترام المناصفة بين الطوائف الإسلاميَّة والطوائف المسيحيَّة، وحيث يُنتخب الممثِّلون على قاعدة النظام الانتخابيّ الطائفيّ.

ومن جهةٍ ثانية، فإنَّ نقاط الاتِّفاق تُعالَج ضمن نطاق مجلس النوَّاب الذي

يضمن التمثيل الوطنيّ غير الطائفيّ، وحيث يُنتخب الممثِّلون على قاعدةٍ وطنيَّةٍ غير طائفيَّة. وهذا ما يمنح الأقلِّيَّات عنصراً إضافيّاً للطمأنينة من جهة، ويشكّل خطوةً في سبيل إلغاء الطائفيَّة السياسيَّة اللبنانيَّة، من جهةٍ أُخرى.

نعتقد أنَّ هذه الخطوة هي حتميَّةٌ للانتقال من النظام الطائفيّ البحت إلى نظام يسمح بتعزيز الوفاق الوطنيّ، ويمنح لبنان مِنْعَةً للتخلُّص من أمراضه الداخليَّة. هذا الانتقال لا يمكنه أن يتحقَّق بدون مشاركةٍ فعليَّةٍ من جميع اللبنانيِّين على وجهٍ عامّ، ومن المسيحيِّين على وجهٍ خاصّ.

2. إعادة النظر بالدور المسيحيّ في لبنان

إنَّنا نرحِّب بإطلاق مبادرة تجديد الكنيسة المسيحيَّة في لبنان. فهذا التجديد ضرورةٌ تؤكِّدها دعوة قداسة البابا لعقد هذا السينودس. نحن نعتبر، وللأسف، أنَّ بعض التشكيلات السياسيَّة وبعض التيَّارات داخل الكنيسة نفسها قد ساهمت في إيصال مسيحيِّي لبنان، وبالتالي كلّ اللبنانيِّين، إلى الطريق المسدود. ولكن، من البديهيّ القول إنَّ هذا العامل ليس وحده المسؤول عن مأساة لبنان.

من غير المفيد تقديم كشف حساب هذا الخطّ السياسيّ الذي أَوصل البلاد كما تعلمون جميعاً، إلى مأساةٍ حقيقيَّة. فكلّ تطرُّفٍ يبرِّر نقيضه ويعطيه شرعيَّة، والاثنان يتغذَّيان من بعضهما البعض: تهجير سكَّان، هجرة، مذابح، بؤس،...

هذا الهذيان الجماعيّ - وأرجو أن تتفهَّموا صراحتي - قد قاد البعض إلى حدّ خوض حرب تشهير وتشويش إعلاميٍّ طالت مقدَّسات الطوائف، وبخاصَّةٍ طائفة الموحِّدين الدروز. فتَمَّ نشر كتب ومطبوعاتٍ تطال عقائد الموحِّدين الدروز وعلاقاتهم بالمسلمين، وتُظهرهم وكأنَّهم في تناقض مع إخوانهم المسلمين. ومن نافل القول، تذكيركم هنا بأنَّ الموحِّدين الدروز هم مسلمون. نعتقد أنَّ هذا الانحراف السياسيّ لم يكن بأيّ حالٍ ليحصل على حصريَّة تمثيل المسيحيِّين.

هذا الوضع الانتحاريّ الذي عاشه لبنان على مدى حوالى عشرين سنة، يستلزم إذاً، صحوةً حقيقيَّةً للوعي المسيحيّ، وللبنانيِّين عموماً. وهو ما يبرِّر أهمِّيَّة مبادرة

قداسة البابا في دعوتنا جميعاً للمشاركة في التفكير حول هذه المسألة.

نحن الموحِّدون الدروز نعتقد، وهذا الاعتقاد نابعٌ من حياةٍ مشتركةٍ طويلةٍ معاً - وأنا نفسي كنتُ طالباً في جامعة القدِّيس يوسف - أنَّ هذه التصرُّفاتِ السياسيَّة لم تكن تليق بالتراث الروحيّ والاجتماعيّ والسياسيّ والثقافيّ لإخوتنا المسيحيِّين في لبنان.

إنَّنا نعتبر وجود المسيحيِّين في لبنان ضرورةٌ للعالم العربيّ وللبنان. فدورهم ومساهمتهم في النهضة الثقافيَّة العربيَّة أمرٌ لا يُنكر. لا، بل أقول إنَّنا ننظر إلى موقع المسيحيِّين ودورهم على أنَّهما مركزيَّان في عمليَّة نهوض لبنان. فإنَّ تاريخنا المشترك قد أوصلنا إلى بناء صداقةٍ متبادلةٍ ووفاق، وكان أحياناً صعباً، لكنَّه ما احتمل يوماً الطلاق.

3. بعث العلاقة بين الموحِّدين الدروز والمسيحيِّين

لا أُخفي عنكم حين أُذكِّر بأنَّ الموحِّدين الدروز هم أقلِّيَّة. هذه الكلمة العزيزة على قلوب مواطنينا المسيحيِّين، هي أيضاً مصدر قلقٍ بالنسبة إلينا. فنحن إذاً، نشاطركم تطلُّعاتٍ واحدة.

لقد كانت مراحل الوفاق في تاريخنا، وما نتج عنها من آثار أكبر وأهمّ من مراحل الأزمات. ودون أن أُطيل الاستشهاد بالتاريخ، لأنَّ هدف هذه الجمعيَّة هو المشاركة في التأسيس للمستقبل، فإنِّني أُريد أن أُذكِّركم ببعض المحطَّات الجديرة بالاعتبار، والتي تساعدنا على فهم عمليَّة نشوء الطائفيَّة في العلاقات بين مختلف الجماعات المشرقيَّة. فعلى سبيل المثال، الأمير فخر الدين الذي تربَّى، إلى حدٍّ كبير، في حضن عائلةٍ مارونيَّة - آل الخازن - كان مؤسِّس الوجود المسيحيّ في الجبل الدرزيّ. وحين أُجبر بالقوَّة على التنازل عن السلطة، وجد ملجأً له عند آل مديشي في توسكانة. وعند وفاة آخر أمراء آل معن الموحِّدين الدروز، اجتمع وجهاء الموحِّدين الدروز وعيَّنوا أحد الشهابيِّين خلفاً له، وهو أميرٌ لا ينتمي إلى طائفة الموحِّدين الدروز... والأمثلة عن التسامح والتعاون كثيرة.

أمّا النـزاعان اللذان وضعا الموحّدين الدروز والمسيحيّين في مواجهة بعضهما البعض (1860 و1983)، لا يمكن أن يمحيا المكتسبات الأساسيّة للجماعتَين.

ولكن، لبناء المستقبل ينبغي أن نتمتّع بالموضوعيّة ونعترف بالأبعاد الداخليّة لمأساة عام 1983، في الجبل. وأتمنّى أن لا تصدمكم الكلمات حين أقول إنّ قسماً من المسيحيّين قد خرق عن وعي وإرادةٍ، التوازن السياسيّ بين الموحّدين الدروز والمسيحيّين في الجبل. وخاض المُوحِّدون الدروز حرباً دفاعيّةً مشروعة. وجرت الأحداث على أرض أجدادهم حيث سبق أن عاشوا، ولأجيالٍ وأجيال، بوئامٍ وانسجامٍ مع المسيحيّين.

واليومَ، يعمل القادة الموحّدون الدروز بصدقٍ وإخلاص، وتدعمهم طائفة الموحِّدين الدروز بأكملها، مستخدمين الوسائل التي أعطتها الحكومة اللبنانيّة للمشروع، على العودة الكريمة والسريعة لجميع المسيحيّين إلى الجبل.

واليوم، مخاوف الموحِّدين الدروز كأقلِّيَّة، شبيهةٌ بمخاوف المسيحيّين. وتتركّز اهتماماتهم على حفظ خصوصيّتهم في إطارٍ من الحرِّيّة التامّة. غير أنّ وضع الموحّدين الدروز كأقلِّيّةٍ لم يطوِّر لديهم عقدة الخوف من الأكثريّة، رافضين كلّ انعزالٍ ثقافيٍ أو اجتماعيٍّ أو سياسيّ.

لقد ناضل الموحِّدون الدروز لتأكيد عروبتهم وهوِّيّتهم اللبنانيّة مع جميع الوطنيِّين اللبنانيِّين. ونعتقد أنّ هذا الشعور بالانتماء الوطنيّ يساعدنا على تجاوز وضع الأقلِّيّة، وعلى مشاركة الأكثريّة التطلّعات السياسيّة والثقافيّة نفسها. من هذا المنظار، نحن والمسيحيُّون والمسلمون في خندقٍ واحدٍ ضدّ كلّ أنواع الأُصوليّة لأنّنا نشاركهم تشخيص الأخطار التي تهدِّدنا، وبخاصّةٍ «الأُصوليّة الشرقيّة، والعلمنة الملحدة الغربيّة». نحن كشرقيّين نتمسّك بروحانيّةٍ عاقلة.

خاتمة

في هذا الشرق المعقَّد، علينا التمسُّك بالأفكار البسيطة، لأنّ خطر الانحراف كبيرٌ للغاية. لذا، فإنّنا لسنا متشائمين.

نحن نثق بمستقبل لبنان مع كلّ الطوائف، مع كلّ اللبنانيِّين، وكلّ إصحاب الإرادات الطيِّبة. لبنان، وكما تقول وثيقة العمل الخاصَّة بالسينودس، ليس بلداً فحسب، بل هو أكثر من وطن، إنَّه مساحة حرِّيَّة.

ختاماً، أقول لكم يا إخوتي، إنَّ اللهَّ خلقنا مختلفين، ولم يكن صعباً عليه أن يخلقنا متشابهين. ويتمثَّل التحدِّي المطروح علينا في أن يُغني هذا الاختلاف حياتنا بدل أن يكون مصدر نزاع.

ونحن على ثقة، ونتطلَّع أن تشاركوننا هذه الثقة، أنَّ حقّ الاختلاف مثل حقّ التشابه هو حقٌّ أساسيّ، وكما يقول أندره فروسَّار، ينبغي النضال للدفاع عن هذا الحقّ باعتباره فتحاً للحضارة وضمانةً للسِّلم بين البشر.

ملحق 7

حِرْزُ الموحِّدين
الشيخ أبو حسن عارف حلاوي*

الشيخ أبو حسن عارف حلاوي، هو ركن الهيئة الروحيَّة وشيخها، والزعيم الروحيّ للموحِّدين في لبنان وسوريا وفلسطين وسائر أقطار العالم. لقد استوى على تواضعه وعفافه على رأس هذه الشريحة العربيَّة فتقدَّم على أقرانه ببساطته، وجعل من حياته شُرْعةً ومنهاجاً، ولطَّفها بالروحانيَّة، واستمع القول فاتَّبع أحسنه. تنـزَّل عليه جواهرَ التوحيد من العالم الأسمى، وتشوَّق للكمال، فلم يؤثره لنفسه، بل شارك الناس فيه، ما يُرى وما لا يُرى، بين العَرَض والجوهر واللطيف والمركَّب، ففاض بنورٍ من عنده وزاد سمُّواً حتَّى أضحى نبراساً مضيئاً وسراجاً منيراً في لطفه وبساطته.

وليس غريباً أن يتحلَّق الموحِّدون الدروز من لبنان وسوريا وفلسطين والعالم، حول رمزٍ من رموزهم امتاز بالوداعة والتقوى، وحاز إجماع الموحِّدين من كلِّ المشاربِ والأنحاء، فبادلهم بالتواضع والحنوّ والإيمان، مكرِّساً حياته في صدق اللسان وحفظ الإخوان.

الشيخ الجليل، الرمز الدينيّ، العارف باللهَّ، المتقشِّف والعفيف الذي يحار المرء

---

* صحيفة النهار، في 16 تشرين الثاني 2003.

عند رؤيته لأنَّ في طبيعته شيئاً من العلوّ والسموّ، وفي وجهه قبسٌ من نور إلهيّ، وفي فكره إشعاع من روحانيَّةٍ لطيفةٍ تجسَّدت في كثيف جسمه فاستحال رقيقاً خفيفاً بسيطاً، تكاد لا تسمع وطأة قدمَيه ولا ترى له ظلاً ولا تلحظ حركته إلاَّ من خلال وعيك أنَّك في حضرة شيخ جليل غير كلّ الرجال والمشايخ والأعيان. إنَّه ظاهرةٌ فريدةٌ في تاريخ الموحِّدين الدروز المعاصر. عاش ما زاد على المئة والأربع سنوات في حركةٍ دائمةٍ لجمع الناس وتوحيد كلمتهم وتكريس وحدة صفِّهم خلال أيَّام السِّلم وأيَّام الحرب، لا فرق، وخصوصاً من أجل تثبيت إيمانهم العرفانيّ. محبَّته بالغةٌ وعفَّته واضحةٌ ولفتته ناجزة: التضامن في سبيل خير العمل، والتُّقى في سبيل ربح الآخرة قبل وبعد بالإيمان أنَّ لهذه الشريحة العربيَّة تاريخاً وتراثاً يجب الحفاظ عليهما بالمُهَج والأرواح، لأنَّ للموحِّدين الدروز رسالةً هي في حفظ التوحيد إلى يوم الدِّين، وفي السياسة إبقاء شعلة الإسلام والعروبة مرفوعةً لكي نبقى أُمناء لخطّ الآباء والأجداد. وإنَّ لنا رسالةً في المستقبل هي تجديد الإسلام بالانفتاح وتوفير فرص الحداثة لكي يستمرّ وينمو، وفي الداخل حفظ الجار. والجميع يستذكر دوره في الحرص على العيش المشترك خلال الأحداث، ومباركة عودة المهجَّرين كي يعود النسيج الوطنيّ إلى الالتحام.

لقد طبع هذا الشيخ الجليل والإمام القدوة عصرَهُ، فرافق أحداثاً كبيرةً عاشها الوطن وعاشها بنو معروف. وكان شعور الجميع أنَّ هذا الشيخ الفاضل يشكِّل حِرزاً يحمي ويردّ كَيْد المعتدي، ويحفظ الكرامة ووجود الموحِّدين.

لقد مثَّل طوال هذه السنوات، تراثاً روحيّاً، وأثرى برؤيته أقرانه ومعشره بالخالد من الموروث، ناقلاً إلى الأجيال حكمة الكبار الذين أسَّسوا وتوزَّعوا فوسعت دعوتهم الدِّين والدنيا. هو من الأولياء المقدَّس أمرهم، حامل الأمانة التوحيديَّة وسليل النعمة الربَّانيَّة والمتَّصل بسرِّه بالحضرة الإلهيَّة. على رأسه تاج العرب وفي عباءته فيء الإيمان والثبات والعزَّة التوحيديَّة. هو تجسيدٌ لشرح الأمير السيِّد عبدالله التنُّوخيّ، وصِنْو الشيخ الفاضل، ومتمِّم مكارم الأخلاق، ورمز العمل الصالح والبُعد عن المعاصي، والزاهد إلاَّ في سعيه لمرضاة الله تعالى.

ملحق 8

محمَّد خليل الباشا المشعُّ بنوره*

أعزُّ ما يكون إليٍ قلبي أن تُتاح لي فرصة الكتابة عن العلاَّمة المرحوم الأستاذ محمَّد الباشا رحمه الله. هو الصديق القديم للمرحوم والدي. تفتَّحت عيوننا على صداقته التي تعمَّقت مع السنين لتنتقل إلينا بعد وفاة الوالد رحمه الله. لا يمكن الإحاطة بمزايا محمَّد الباشا وصفاته وكفاءته في سطور معدودة. هو الإداريّ البارع الذي خدم الإدارة اللبنانيَّة ردحاً طويلاً من الزمن، وكان فيها مثالاً للعطاء بسخاء، وللاستقامة والخبرة. وقد ترك مثله مثل أعلام الإدارة اللبنانيَّة، أثراً لم تمحُهُ السنون، ولا الأحداث التي أصابت هذا القطاع حتَّى ما قبل الحرب وأثناءها وبعدها.

إنصرف المرحوم محمَّد الباشا طوال حياته، إلى تتبُّع المعارف والتعمُّق بالفلسفة ومتابعة اللُّغة، ونهل من مصادر المعرفة حكمةً بالغة، ورؤيةً واضحة، بحيث إنَّه شكَّل في كتاباته علامةً فارقةً في كيفيَّة مواءَمة حبّ الاطِّلاع وحبّ العطاء، فكان غزير الإنتاج متنوِّعه. لم يحصر علمه بمادَّة، ولا بحثه بعلم، بحيث جاء هذا الإنتاج الغزير انعكاساً لشخصه المتنوِّع في تركيبةٍ سمحاء، وطَلَّة أنيسة، ومعشر حلو، وأخلاقٍ دمثة، وحضورٍ مُحبَّب. لقد زادته المعرفةُ تواضعاً، واكتسابُ اللُّغةَ

---

* شهادة شخصية، بمناسبة صدور كتاب في ذِكراه د. **محمد خليل الباشا، سيرةٌ وفِكر**. المؤلف د. رياض حسين غنّام، 2003.

فصاحةً، فكان متديِّناً بانفتاح، ومنفتحاً بإيمان.

كتب عن الأعلام والمشاهير، وهو في عدادهم، في كتابه «معجم أعلام الدروز». كتب عن التوحيد وخصائصه، والتقمُّص ومظاهره. وهو مؤمنٌ دون انغلاق، وأصيلٌ أُسوةً بالمجدِّدين في حكمة بني معروف، وسليلٌ روحانيٌّ لمسالك العرفان، ووريثٌ شرعيٌّ لحكمة القدماء. نقَّب وسعى إلى الفهم والاستزادة. جدَّد في طرح المفاهيم، مؤصِّلاً للمصادر والمنابع. لم ينغلق على قضايا وطنه ولغته الأُمّ فقط، بل انفتح على المعارف الأجنبيَّة فكانت له إطلالات ترجم من خلالها كتباً وأبحاثاً أغنت المكتبة العربيَّة، ودقَّق باللُّغة ومعاجمها، وحقَّق مخطوطاتٍ لا سيَّما السجلّ الأرسلانيّ الذي يتضمَّن سجلاً للتاريخ اللبنانيّ والعربيّ في حقبةٍ كان الموحِّدون الدروز فيها أُمراء بلاد الشام، واستخلص من كلّ ما كتب معتقداً خاصّاً به.

عرفتُه عن كثب، وعاشرتُه عن قرب، ناجحاً في عائلته، أميراً في تصرُّفه، عميقاً في فكره، شيخاً في حكمته. وهو قبل وبعد، يعرف كيف يعطي بسخاءٍ ولا يحتفظ لنفسه بما يعرف حتَّى يُمكِّن جيل الشباب خاصَّةً، من الاستفادة من معارفه ونتاج علمه وبحثه.

رحم اللهُ الشيخ محمَّد الباشا الذي نفتقده في هذا الظلام الدامس، لأنَّه كان مُشِعّاً بنوره، شغوفاً بعطائه، شفَّافاً في روحانيَّته، صامتاً في معاناته، دائم الفرح الذي لا يستشعره إلاّ المؤمنون.

ملحق 9

إحياء مسلك التوحيد*
الأمير السيِّد جمال الدين عبدالله التنُّوخيّ

بادئ ذي بدء، أودُّ أن أُحيِّي الحيويَّة التي تمتاز بها لجنتكم الكريمة، وسعيها الحريص والدؤوب على تقديم الجديد إلى مدعوِّيها.

ويزيدني شرفاً أن أُحيِّي حضوركم، وقد اجتمعتم هنا لاكتساب المزيد من المعرفة عن الآخَر المختلف.

في إطار سلسلة المؤتمرات التي تناولت شخصيَّاتٍ لبنانيَّةً تاريخيَّة، وبناءً على طلب اللجنة المنظِّمة، أَنتهز هذه المناسبة لأعرض أمام حضوركم الكريم، شخصيَّةً في غاية الأهمِّيَّة، سواء على المستوى التاريخيّ أو على مستوى المسلك الدرزيّ، ألا وهي الأمير السيِّد جمال الدين عبدالله التنُّوخيّ.

لكان الأمر أسهل لو أنِّي اخترتُ شخصيَّةً لبنانيَّةً درزيَّةً أُخرى، فالشخصيَّات التاريخيَّة كالأمير فخر الدين الثاني وسلطان باشا الأطرش، وتلك المعاصرة ككمال جنبلاط تتبادر سريعاً إلى الذهن. بيد أنَّ اختيار شخصيَّة الأمير التنُّوخيّ شكَّل تحدِّياً لي ومعضلةً، في آن: يكمن التحدِّي في أنَّ معظم اللبنانيِّين من غير الموحِّدين الدروز لا يعرفون الشخصيَّة التي أُقدِّمها، وأحياناً الموحِّدون الدروز أنفسهم لا

* محاضرة أُلقيت بتاريخ 15 كانون الثاني 2007 في معهد السيدة للآباء اليسوعيين، الجمهور.

يعرفونها؛ أمَّا المعضلة فهي في تقديم عملٍ غير أكاديميّ، حيث إنَّنا لسنا في صدد عرض درسٍ تعليميّ. وما يزيد المعضلة تعقيداً أنَّ المراجع والمصادر حول الأمير التنُّوخيّ في اللُّغة الفرنسيَّة، اللغة التي أتوجَّه بها إليكم الآن، نادرة.

والحال هذه، قبلتُ التحدِّي الصعب، على أمل أن يُغنينا هذا الاختيار جميعاً.

أمَّا الطريقة التي سأَعتمدها فهي التالية: أوَّلاً، سأتناول شخصيَّة الأمير والإطار التاريخيّ حيث ولد وعاش وذاع صيته. ثانياً، سأتحدَّث عن أعماله والتجديد الذي بثَّه على الصعد الأخلاقيَّة والشرعيَّة والمذهبيَّة. وفي الختام، سأحاول أن أُقيِّم هذا البحث وفقاً لميزان النجاح والإخفاق.

ولكن، قبل أن أُباشر في عرض موضوعي، لا بُدَّ من الإشارة إلى أنِّي، وبمناسبة عيد الأضحى منذ أسبوعَين، أجريتُ حواراً مثيراً للاهتمام مع عددٍ من مشايخ الموحِّدين الدروز، تمحور حول التجديد الذي قام به الأمير السيِّد على صعيد العقيدة والمسلك الدرزيَّين. يبدو أنَّ المشايخ المتمسِّكين بأُصول الدعوة يميلون إلى استخدام تعبير آخَر غير التجديد، ألا وهو إحياء العقيدة الدرزيَّة. والإحياء من وجهة نظر الأمير، يأتي لأنَّه عاين تراخياً في إيمان الناس وأخلاقهم بعد مرور خمس مئة سنةٍ على الدعوة. فعمل على إيضاح هذه العقيدة، وعلى الالتزام بالمسلك واتِّباعه. لذا، سأعتمد من الآن فصاعداً، تعبير «إحياء» عوض «تجديد».

أوَّلاً، الأمير

ولد الأمير السيِّد جمال الدين عبدالله التنُّوخيّ في عبيه، في القرن التاسع للهجرة (حوالى سنة 1417 م.). هو سليل أُسرةٍ نبيلةٍ عريقةٍ تعود في أُصولها إلى آل بُحتر وآل تنُّوخ. والنعمان بن المنذر ابن ماء السماء، أحد أجداده، كان من أعظم ملوك الحيرة أبناء قحطان جَدّ العرب. أمَّا والدته الأميرة ريما فتتحدَّر من العائلة نفسها. سُمِّي عبدالله، واتَّخذ لقب جمال الدين فيما بعد.

أبصر الأمير السيِّد النورَ في بيتٍ عربيٍّ أصيلٍ ينتمي إلى طبقةٍ اجتماعيَّةٍ وسياسيَّةٍ راقية، في العاصمة السياسيَّة للإمارة البحتريَّة التنُّوخيَّة. وعلى الرغم من ولادته

في عائلةٍ عربيَّةٍ نبيلة، إلاَّ أنَّه ترعرع بكنف عائلة والدته على إثر فقدان والده وهو بعد يافع.

ومنذ طفولته، تميَّز بذكاء حادٍّ وقدرةٍ استثنائيَّةٍ على التعلُّم، فتفرَّغ لدراسة العلوم والسِّيَر الدينيَّة، حائزاً صيتاً حسناً في أعين رجال الدين الذين اكتشفوا فيه قدراتٍ مثاليَّةً ومؤهِّلاتٍ استثنائيَّة.

حكَم التنُّوخيُّون لبنان طوال القرون الوسطى، في مناخ سياسيٍّ شائك. وكانوا من أوائل الذين استجابوا لدعوة التوحيد والرسالة الدرزيَّة.

ففي الواقع، تشكَّلت قبيلة تنُّوخ من ثلاث عائلاتٍ عربيَّةٍ مسيحيَّة: بحراء، وتغلب، وتنُّوخ، التي منها التنُّوخيُّون الذين استوطنوا شماليَّ سوريا وغربيّ لبنان، في نواحي بيروت، منذ بداية الفتوحات العربيَّة. إهتدَوا إلى الإسلام عام 165 للهجرة (741 م.)، ومن ثَمَّ اعتنقوا العقيدة الدرزيَّة مطلع القرن الحادي عشر، غير أنَّهم ما انفكُّوا، وعلى الرغم من كلّ شيء، يدافعون عن هوِّيَّتهم العربيَّة وانتمائهم إلى الإسلام.

في القرن الحادي عشر (408 هـ. / 1017 م.)، وفي مصر الفاطميِّين، نشأت دعوة التوحيد. هذه الحقبة وتلك التي تلتها، طبعتها خصومةٌ بين الخليفة الفاطميّ وخليفة بغداد اللذين تصارعا سياسيّاً ودينيّاً، مراهنَين على إحكام السيطرة التامَّة على العالم العربيّ. وفي قلب هذا الصراع، عانت بلاد الشام من وطأة أطماع جيرانها الأقوياء، فشكَّلت للفاطميِّين بوَّابة عبورٍ إلى بغداد، كونها ممرّاً لا مفرَّ منه وسط العالم الإسلاميّ. فتنازع السيادة على بلاد الشام، على التوالي، السلاجقة، والصليبيُّون الذين وصلوا إلى سوريا في أواخر القرن الحادي عشر، والمغول، والتَّتَر، حتَّى وصول المماليك إلى السلطة.

يُظهِّر المشهد الذي استعرضناه الأوضاع الشائكة في العالم العربيّ حيث عمَّت الفوضى والحروب والانقسامات. وتُتيح لنا هذه النبذة التاريخيَّة فهماً أعمق لانعكاسات هذا الوضع الصعب على الموحِّدين الدروز الذين ما شكَّلوا بعد جماعةً مستقلَّة. وبالإضافة إلى تأثير هذه الفوضى على الصعيد الاجتماعيّ، فقد تبنَّى أتباع الدرزيَّة أنفسهم مفاهيم كثيرةً غريبةً عن مذهبهم.

في خضمّ الحالة الراهنة، اعتُبر الأمير السيِّد مرسلاً من اللَّه، وعَظُم قدره نظراً لحكمته وتميُّزه، فتقاطر الناس من كلّ حدب وصوب للاستنارة بنصائحه. فحثَّ الناس على بناء الجوامع وترميمها، وأمر بتلاوة القرآن بحسب القواعد والأُصول، كما دعا إلى نبذ الحرام، واكتساب الخصال الحميدة.

وكرَّس لتلاميذه يوماً في الأسبوع ليعظهم ويعلِّمهم المسلك الدرزيّ، فيصيروا مؤهَّلين بدورهم لنشر الدعوة والوعظ في قراهم. وشملت طيبته الفائقة الجماعات الدينيَّة الأُخرى لأنَّه اعتبر أنَّ البشر أجمعين هم أبناء اللَّه.

نجاحه الباهر هذا، وسِعَة علمه أثَارَا حسد الأشرار وغضبهم، غير أنَّه لم يسعَ إلى معاكستهم، بل اختار أن ينتقل إلى بلاد الشام من أجل نشر حكمته وإسداء النُّصح إلى رجال الشريعة ورجال العِلم. أقام في هذه البلاد اثنتي عشرة سنةً مكتسباً احترام الجميع وتقديرهم.

إمتلك الأمير السيِّد مكتبةً غنيَّةً جدّاً حوت حوالى 340 مخطوطاً، وكانت له مؤلَّفات عديدة. أمَّا أشهر أعماله فعُرف تحت اسم «شرح الأمير السيِّد»، وهو مؤلَّف من 14 مجلَّداً.

ويحتلّ في تاريخ بني معروف صدارة مَن وهبوا إرثهم إلى مؤسَّسةٍ خيريَّة، وهو مَن أسَّس مؤسَّسة الأوقاف الدرزيَّة.

ثانياً، عمل الأمير في إحياء المسلك التوحيديّ

في البداية، سأعرض عمله في مؤسَّسة الأوقاف الدرزيَّة، ثمَّ سأنتقل إلى إحياء المسلك الدرزيّ.

1. مؤسَّسة الأوقاف الدرزيَّة

لفت انتباه الأمير السيِّد ازدياد عدد الأشخاص الراغبين في التعلُّم، إلاَّ أنَّ معظمهم لم تتيسَّر لهم سُبُلٍ العيش. فأثار هذا الوضع قلقه من أن يضحي الناس فريسةً للجهل والفساد والأمِّيَّة، وتملَّكه صراعٌ بين إرادة إرواء عطش هؤلاء الناس

إلى العِلم من خلال تأسيس مدارس في القرى وما يستتبع ذلك من مصاريف ورواتب للمعلِّمين، وبين ترك الوضع الاجتماعيّ والدينيّ يسير نحو الهاوية. وهذا ما لم يرضَ به أبداً.

وحال تعيينه زعيماً روحيّاً على جماعته، انصبّ اهتمامه على قِيَم المجتمع الذي يعيش فيه، معتبراً أن كلَّ إصلاح لا بُدَّ أن يمرَّ بالتربية في المدارس والجوامع، وبدعوة الناس إلى سلوك السبيل الروحيّ.

ومن أجل تسديد المصاريف الباهظة المترتِّبة على هذ المشروع، قرَّر الأمير السيِّد أن يهب أملاكه، فنقل ملكيَّة ثروته إلى مؤسَّسة الأوقاف، وسمَّى المستفيدين من حقّ الانتفاع، بموجب وثيقة مصدَّقة من المحكمة الشرعيَّة. فإن قرأنا هذه الوثيقة، نستشفّ جُوداً لا مثيل له، وتجرُّداً كاملاً عن الأمور المادِّيَّة، واستعداداً للعطاء قلَّ نظيره.

فمثلاً، يعبِّر الأمير السيِّد عن رغبته في تكريس منازله لإقامة الطلاَّب الذين يرتادون المدرسة، وبخاصَّة الأيتام منهم، وفي وهب حقّ الانتفاع من أملاكه للفقراء والبؤساء حتَّى يسدُّوا عوزهم. وأشار إلى الغاية من هباته: تعليم القرآن، وترميم الجوامع، وإقامة ينابيع ماء. كما حدَّد فئات الأشخاص والشروط الاستثنائيَّة التي تخوِّلهم الاستفادة من هذه الهبات: البؤساء والأيتام المسلمين بغضّ النظر عن أصولهم أو انتماءاتهم، والأرامل اللواتي لم يتزوَّجن ثانيةً، والأسرى والمسجونين.

2. إحياء المسلك التوحيديّ

كما هو معلوم، يجد المسلك الدرزيّ جذورَهُ في عقيدة الانتظار المهدويَّة الإسماعيليَّة، ويرتبط بشخص الخليفة والإمام الفاطميّ الحاكم بأمر الله وسلطته (386-411 هـ. / 996-1021 م.). عام 408 هـ. (1017 م.)، نظَّم الداعية الفاطميّ الإسماعيليّ «الأخرم» أوَّل حملةٍ تدعو إلى أُلوهيَّة الحاكم. رفضت الدعوة الرسميَّة في القاهرة هذه الفكرة، واغتيل الأخرم بعد بضعة أشهرٍ على نشوء حركته.

وعام 410 هـ. (1019 م.)، خرج داعيةٌ آخَر فارسيّ الأصل، يُدعى حمزة بن عليّ ليقود تلك الحركة ويهب الدعوة صورتها اللاَّهوتيَّة الكلاميَّة النهائيَّة. طوَّر حمزة دعوةً قويَّةً متماسكةً، وساعده في ذلك عددٌ كبيرٌ من الأتباع والدعاة من القاهرة، حتَّى أمسى بالتالي المؤسِّسَ الفعليَّ للمسلك الدينيّ التوحيديّ.

هنا، تجدر الإشارة إلى شخص ثالث ألا وهو الدَّرَزيّ، وهو تلميذٌ سابقٌ لحمزة. ما لبث أن صار خصماً منافساً لمعلِّمه، طامحاً إلى استلام قيادة مسلك الحاكم الجديد. فانضمَّ إليه الكثير من أتباع حمزة، على الرغم من أنَّه عمل بصورةٍ مستقلَّة عن رؤسائه، لا بل في تعارضٍ معهم. وكان أوَّل مَن أعلن أمام الملإِ ألوهيَّة الحاكم. إختفى أثره بشكلٍ غامضٍ سنة 410 هـ. (1019 م.)، بعد أن أدانته السلطة الرسميَّة والدعوة الفاطميَّة وحمزة. ومن المرجَّح أنَّه اغتيل بأمرٍ من الخليفة.

لم تتوقَّف الدعوة الرسميَّة في القاهرة للحظةٍ عن نقض العقائد التوحيديَّة الجديدة ودحضها. فتعرَّض أتباع المسلك الذي دعا إليه حمزة للاضطهاد، وتحمَّلوا أقسى أنواع القمع. وبعد مرور قرونٍ عدَّة على هذا الوضع الملتبس، وجد الموحِّدون الدروز أنفسهم مرتبكين أمام التفسيرات المختلفة التي وضعها أتباع عقيدة حمزة الأصيلة.

على هذا المستوى بالذات، وفي هذا الإطار الدقيق، تبيَّن أنَّ عمل الأمير السيِّد أساسيّ، إن على صعيد الأخلاق أو على صعيد الأحوال الشخصيَّة الدرزيَّة أو على صعيد تنظيم المسلك التوحيديّ.

1. على صعيد الأخلاق

أَسهم بناء الجوامع وإعادة تأهيلها، بالإضافة إلى تأسيس المدارس التي فتحت أبوابها للجميع ومن دون أيّ مقابل، في نهضةٍ تربويَّةٍ حقيقيَّة. وعند استحالة بناء مدارس جديدة، أوفد الأمير السيِّد تلاميذه لتعليم الأُمِّيِّين، أطفالاً وبالغين. كما أرسلهم للقاء المشايخ والمسؤولين لتبادل المعارف المتعلِّقة بشؤون المسلك والعلوم الروحانيَّة.

وأَوصى الأمير السيِّد ببعض قواعد السلوك، وحرص على الالتزام بها هو نفسه قبل غيره. فحرَّم الكذب، والقَسَم الكاذب، والسخرية، والزِّنى، والقتل، والكحول، والرِّبى، وبخاصَّة اتِّباع الحكومات دون أيّ معارضة. كما نصح بعدم ارتداء الملابس الفاخرة، والاستمتاع المفرط بمكاسب زائلة، وحثَّ على التصرُّف بتواضع، وعلى عدم الاعتراض على مشيئة الله، لا سيَّما عند فقدان أحد الأقارب. وفي المحَصِّلة، رسَّخ أُسس تسامح دينيٍّ يؤمِّن العدالة الاجتماعيَّة.

أمَّا على المستوى الدينيّ، فقدْ شدَّد على مبدإ العدالة طوال حياته وفي كتاباته - وبفضله تباهى الموحِّدون الدروز دوماً بأنَّهم سيف الإسلام - فأرسى نظاماً اجتماعيّاً للموحِّدين الدروز يقدِّم «خير الجماعة» على كلّ الاهتمامات والمصالح، في تحقيقٍ لفكرةٍ أطلقها النبيّ محمَّد نفسه.

يتحدَّر الموحِّدون الدروز من سلسلة انشقاقاتٍ حصلت في الإسلام، ويعتبرون أنفسهم مستودع الإرث التاريخيّ والدينيّ للحركات الشيعيَّة والإسماعيليَّة. من هذا المنطلق، هم يعترفون بشخص الإمام، المؤتمن الوحيد على الرسالة الإلهيَّة. وقد تشكَّل دور الإمام بوحيٍ من بعض الديانات القديمة الغنوصيَّة والأسراريَّة، وخاصَّةً المسيحيَّة. من بين هذه الديانات، تمثِّل الغنوصيَّة المعرفة الصحيحة للحقائق الإلهيَّة، وتتأسَّس على ثنائيَّة الخير والشرّ. وهي تقوم على البحث عن حقيقة الخير التي لا تُدرك إلاَّ من خلال حياةٍ طاهرةٍ متجرِّدةٍ عن المادَّة ورغبات الجسد. كما تعتبر الغنوصيَّة أنَّ خلاص الإنسان هو في إدراك الحقائق الإلهيَّة إدراكاً لا يشبه معرفة المؤمنين العاديِّين، لا بل يتخطَّاها. على غرار الغنوصيَّة، وبهدف التميُّز عن السُّنِّيَّة التي تحترم المعنى الظاهر للقرآن وتأخذ به، طوَّرت المذاهب الشيعيَّة، وبخاصَّةٍ الإسماعيليَّة، مبدأً يعتبر أنَّ المعنى الخفيّ أو الباطن في القرآن هو المعرفة الصحيحة للحقائق الإلهيَّة.

من وجهة نظر الشيعة عامَّةً، والإسماعيليِّين خاصَّةً، الإمام وحده دون سواه هو المؤهَّل لتأويل هذا المعنى الباطن، ويتمتَّع بالصفات التي تخوِّله قراءة القرآن على مستوياتٍ متعدِّدة. وبصفته المرشد والهادي إلى معرفة الله الحقَّة، وجب على

الإمام أن ينقل الرسالة الإلهيَّة ويشرحها للأتباع، بحسب المرتبة الروحيَّة لكلّ واحد، وقدرته على الفهم. وبالنسبة إلى الموحِّدين الدروز، الأمير التُّنوخيّ هو هذا الإمام. لذا، عندما يذكرون اسمه، يضيفون «قدَّس (الله) سرَّه».

2. على صعيد الأحوال الشخصيَّة

وجَّه الأمير السيِّد رسالةً ثقافيَّةً إلى معاصريه من أبناء المسلك، يحثُّهم فيها على تتميم «الشرط الملزِم من الإمام». فينبغي على كلّ درزيٍّ أو موحِّدٍ، مسؤولٍ عن موحِّدة، أن يعتبرها مساويةً له، فيتقاسم معها كلّ ما يملك.

لاحظ الأمير السيِّد، وقد عاش بين أبناء طائفته وعرف أوضاعهم الاجتماعيَّة، أنَّ الكثيرين منهم ينبذون نصّ الإمام، ويتحاشون تطبيقه متجاهلين حقوق الزوجة، معاملين إيَّاها بغير واجب المساواة الذي أمرهم به الإمام. وبما أنَّه لم يتوفَّر نصٌّ مكتوبٌ يتناول مسألة العلاقات بين الزوج والزوجة، ويحدِّد حقوق كلٍّ منهما وواجباته، عكف الأمير التُّنوخيّ على صياغة تشريع يلتزم العدل والمساواة. فأرسى التشريع على قاعدةٍ دينيَّة، وواجبٍ فرضه الله، وركنٍ من أركان اليقين، عنينا بها الرضى المتبادل والاختيار الحرّ لدى الزوجين. واستحال هذا الشرط أساسيّاً من أجل التفاهم والتوافق والانسجام والحبّ والمودَّة والتسامح والعفو بين الزوجين.

ودون أن نفصِّل شرائع الزواج، نودّ أن نؤكِّد هنا، أنَّ هذه المؤسَّسة، أي العائلة، هي الوسيلة الأساسيَّة لصِلة الرجل بالمرأة. فالزواج يجسِّد التزامهما باحترام واجباتهما تجاه بعضهما البعض، وحرصهما على إتمامها. وهو يحمل في ذاته التشريعات التي تحدِّد إطار العلاقة بين الزوجين، والتي إن أُغفلت، لا يعود الزوجان بمأنٍ من ظلم الشريك الآخَر وتعدِّياته، ولا يبقى الزواج وسيلةً للتعاون والمشاركة في حمل أعباء الحياة الزوجيَّة والاجتماعيَّة.

من جهةٍ أخرى، وجَّه الأمير اهتمامه وتفكيره نحو موضوعاتٍ أُخرى في الأحوال الشخصيَّة. فقد حدَّد الوصيَّة على أنَّها كلّ ما نأمر بتنفيذه «نوصي به»،

وكلّ ما نتركه «نورِّثه» في حياتنا وبعد موتنا. وقد ترك للموحِّد الدرزيّ الحرِّيَّة الكاملة والمطلقة في أن يُورِث أملاكه مَن يشاء، سواء أكان وارثاً مباشراً أم غير مباشر، موحِّداً درزيّاً أم غريباً، أم من طائفة أخرى.

وبما أنَّ الأمير كان يلتزم دائماً بكلّ ما يأمر به بغية تقديم قدوةٍ صالحة، حرص على إيراث بيتٍ وأراضٍ وقسم من محصول الزيتون وعائدات الزيت إلى أشخاصٍ لا يحقّ لهم ذلك، إلى عائلةٍ مسيحيَّةٍ من آل سركيس.

كلّ ما سبق يُبرز البُعد الرؤيويّ الذي تميَّز به هذا الأمير الذي قلّ نظيره: فمنذ 600 سنة، قال بأنَّ المرأة مساويةٌ للرجل، في حين لم يعتبر المجتمع الأوروبيّ، على سبيل المثال، النساء أهلاً للمسؤوليَّة؛ ومنح الحرِّيَّة الكاملة في ما خصّ الوصيَّة والإرث، بموجب قاعدةٍ لا مثيل لها في شريعة أيّ مذهب آخَر، وفي وقتٍ منعت سائر المذاهب انتقال الملكيَّة إلى أشخاصٍ ينتمون إلى طائفةٍ أُخرى، إلاَّ في حالة المعاملة بالمِثْل.

3. على صعيد تنظيم المسلك التوحيديّ

تركَّز عمل الأمير السيِّد، بصورةٍ أساسيَّة، على تنظيم المسلك التوحيديّ وإحيائه. ودون التوسُّع في هذا الموضوع، سأكتفي بذكر العناوين الأساسيَّة التي طالتها عمليَّة «الإحياء» هذه:

- وضع نظام تقييمٍ روحيٍّ على المستويَين السلوكيّ والمعرفيّ، استناداً إلى المعنى الظاهر.
- إيضاح مسألة علاقة المسلك الدرزيّ بسائر المدارس الفقهيَّة الإسلاميَّة.
- إعادة تفسير مفاهيم العقيدة الدرزيَّة، بصورةٍ عامَّة، من خلال شروحاته وتأويلاته.
- تأسيس منهاج ثقافةٍ شاملة، من خلال طريقته في التأويل.
- التأكيد على إمكانيَّة بلوغ الموحِّد الدرزيّ الكمال وسط المجتمع والعالم، وليس بالانعزال عنهما.

- التشديد على التوازن الداخليّ للموحِّد إزاء سلوكٍ خارجيٍّ جامد.
- وذُكر في سيرته أنَّ الدول في عصره، ميَّزت بين التعلُّم المدرسيّ، والحفظ، والعِلم. وهذا يعني أنَّه أطلق نهضةً ثقافيَّةً رسَّخت دعائم الإصلاح الروحيّ والاجتماعيّ.

خاتمة

في يومنا هذا، يعتبر الموحِّدون الدروز الأمير السيِّد إماماً عظيماً، ورفيقاً لله. لذا يكرِّمونه ويُجِلُّونه كأحد أوليائهم. فلا أحد سواه بين معاصريه تمتَّع بحدَّة ذكاء تؤهِّله نشر رسالة الاجتهاد. فلقد دعا إلى انفتاح الاجتهاد وتحريره لأنَّه اعتبر أنَّ كلَّ شريعةٍ يجب أن تُؤوَّل وفقاً لشروط زمان تطبيقها ومكانه، أي وفق تطوُّر عادات وأفكار عصرها ومحيطها.

وللأسف، لا يميل الموحِّدون الدروز اليوم أبداً إلى ابتكار تأويلاتٍ جديدة، ولا حتَّى يتقبَّلون هذه الفكرة البسيطة. فهل ينبغي أن ننتظر مجيء إمامٍ جديدٍ بأهمِّيَّة الأمير السيِّد ليدفعهم إلى مواجهة الحداثة؟

بالنسبة إليّ، إنَّ طائفةً غنيَّةً بإرثها التاريخيّ والروحيّ، يجب ألاَّ تخاف من التجديد.

فكرٌ منغلقٌ كهذا أَلا يُغذِّيه هذا الشرق حيث يتغلغل بقوَّة، الفكرُ الأُصوليّ والمتشدِّد، مُجهضاً كلّ محاولة تجديد؟!

أَوليست المسألة قبل كلّ شيءٍ آخَر، مسألةَ أقلِّيَّاتٍ في هذا الشرق المعقَّد حيث ينبغي أن نتوجَّه إليه بأفكارٍ بسيطة؟!

ملحق 10

توفيق عسّاف رجلٌ بألف رجل*

غداة قانا، رحل الشيخ توفيق عسّاف لملاقاة ربِّه، حاملاً في ذاكرته وحشيَّة العدوّ الإسرائيليّ وغدره بالآمنين الذين صدَّقوا أنَّ اللجوء إلى القوَّات الدوليَّة هو جسر العبور إلى السلامة من لؤم العدوّ وهمجيَّته.

وبقدر تألُّمه لصورة المجزرة الرهيبة التي ستبقى في وجدان اللبنانيِّين، حملت هذه الذاكرة أيضاً الفرح بتضامنهم في مواجهة المحنة.

وها إنَّ سنةً قد مضت على فقد هذا الرجل الذي بَكَته القلوب قبل العيون، وأَجمع على التنويه بمزاياه وخصاله جميع اللبنانيِّين إلى أيّ طائفةٍ أو منطقةٍ انتموا، فاستحقّ راحة الضمير لأنَّه أدَّى واجبه على أحسن ما يكون أداء الواجب.

ويوم استقبله أبناء بلدته عيتات، وأهل منطقته، لدى وصول جثمانه إلى المطار، وحملوه على الراحات، استقبلوا ابنهم البارّ العائد إليهم، ورجلهم المثال الذي جسَّد لهم قدوةً، وللوطن عَضُداً في ساعات المُلِمَّات. وقفوا خاشعين لعودة الفارس الذي لم يعرف الراحة مدَّة حياته، وهو يجاهد في سبيل الناس الجهاد الحسن، دفاعاً عن لقمة عيشهم وقضاياهم. لقد احتضنه تراب قريته الوديعة تحت السنديانة العتيقة التي أَلقت بفيئها على العزيز المفقود.

«كم رجلٍ يُعدّ بألف رجل، وكم رجلٍ يمرّ بلا عداد». فماذا عسانا نقول لابن

---

* صحيفة النهار، بتاريخ 10 أيار 1997.

القرية التي لم تَسَعْهُ بلاده فسعى إلى الاغتراب ليحقِّق طموحه في العمل والثروة.

إستقبلته في الاغتراب أحداث فلسطين منذ الثلاثينيَّات، فقاوم وكابد حتَّى عُرِف في بيته وبين إخوانه بحَمْله راية الدفاع عن القضايا العربيَّة. ولمَّا لم يطل المقام به في الاغتراب عاد إلى وطنه فوجده معانياً آثار الانتداب ومصاعب تأسيس دولة الاستقلال، فسعى كما سعى سواه إلى المساهمة في إرساء القاعدة الأُولى للنهضة الاقتصاديَّة في لبنان المستقلّ، فشملت مساهماته القطاعات الإنتاجيَّة كافَّةً، من عمرانيَّةٍ وتجاريَّةٍ وصناعيَّةٍ ومصرفيَّة. وفي كلّ مشروعٍ يتأسَّس، وكلّ شركةٍ تعمل، مثَّل للموظَّفين والعمَّال الأبَ الصالح والوالدَ العطوف، يفهم الموظَّف والعامل، ويتعاطى معه بتواضع الواثق، وكِبَر النفس، وطيب القلب، حتَّى إنَّه طيلة الخمسين سنةً التي قضاها على رأس المؤسَّسات التي أنشأها، لا يذكره أحدٌ من العاملين معه إلاَّ بالخير والتنويه والولاء.

لم تشغله أعماله عن قضايا وطنه وأُمَّته. فكان في طائفته صاحب الرأي، هو الذي اقتصر تمثيلها عليه في أصعب الظروف، وخاصَّةً في مرحلة ولادة وثيقة الوفاق الوطنيّ (1989)؛ وفي وطنه ما برح الجنديَّ المجهول المدافع عن قضاياه، ولا سيَّما في أحلك محطَّاته، وخصوصاً في رفضه الانسياق في إقرار اتِّفاقيَّة 17 أيَّار، ومناهضته لها؛ وشكَّل في أُمَّته المؤمن بالعروبة والعلاقة الأخويَّة مع سوريا، ولم يَحِد.

ما راجعه مُراجعٌ إلاَّ ولبَّى، ولم يُطرق بابه إلاَّ وانفتح، ولم يُطلب لحاجةٍ إلاَّ وسدَّها، معنويّاً وماديّاً. وها إنَّ المؤسَّسات الإنسانيَّة والاجتماعيَّة والثقافيَّة والصحِّيَّة والرياضيَّة التي اعتمدت عليه وعلى أمثاله الأريحيِّين، تأسف أيضاً لفقده، فقد عوَّدها، وبدون طلب، على مدّ يد المساعدة إليها على قدر استطاعته، إلاَّ أنَّه ما تخلَّف يوماً عن المساعدة.

نفتقدك يا أعزَّ الرجال وقدوتها، في ذكرى غيابك نستذكر معك الأيَّام الحلوة التي زيَّنتها بحضورك، والعِبَر التي علَّمتها لجيلٍ من بعدك: قلبٌ كبيرٌ وعقلٌ راجحٌ وإرادةٌ لا تلين، صلبةٌ كصخر جبل لبنان، شامخةٌ كشموخ جباله، قويَّةٌ حتَّى العنف

أحياناً. ولمَّا تعب هذا القلب الكبير وضعف الجسد، لم تتعب الإرادة فحمل جسده الوهن بسبب العمر والمرض، ما لا قِبَلَ له على تحمُّله، «فإذا كانت النفوس كباراً تعبت من مُرادها الأجسام». فقضى في تلك الليلة المظلمة الموحشة التي محاها ببياض عطائه الذي لا ينضب، بالقرب من رفيقة دربه وعمره، وابنته التي أَعزَّها بعزِّه وحملها في وجدانه وعاطفته كما لم يحمل أبٌ ابنته يوماً.

رحمك الله يا شيخ توفيق، والعزاء بالشباب الذين خلَّفت وهم يحملون بعدك الراية في كلّ مناحي حياتك الغنيَّة، وبالأصدقاء والمحبِّين الذين تركت، وبالأعمال المباركة التي تحكي قصَّة ذلك الفتى النازل من القرية الوديعة إلى رحاب العالَم والإنسانيَّة.

ملحق 11

Beyrouth le 20 novembre 1995

S.E. Le Nonce Apostolique
Monseigneur Pablo Puente

Suite a votre demande, nous vous prions de prendre note que Monsieur Abbas Al Halaby assistera comme representant de la Communaute Druze au Synode qui se tiendra le 26 Novembre 1995 au Vatican en reponse a l'invitation de sa Saintete le Pape Jean -Paul II.

Nous saisissons cette occasion pour vous renouveler l'assurance de notre haute consideration .

Walid Jumblatt
W. Jumblatt

تفويض من الاستاذ وليد جنبلاط باعتماد الاستاذ عبّاس الحلبيّ ممثلاً للموحّدين الدروز في «السينودس لأجل لبنان» موقع بتاريخ 20 تشرين الثاني 1995.

ملحق 12

Beyrouth le 20 novembre 1995

.E. Le Nonce Apostolique
Ionseigneur Pablo Puente

uite a votre demande, nous vous prions de prendre note que Monsieur Abbas Al Halaby ssistera comme representant de la Communaute Druze au Synode qui se tiendra le 26 Jovembre 1995, au Vatican en reponse a l'invitation de sa Saintete le Pape Jean -Paul II.

Jous saisissons cette occasion pour vous renouveler l'assurance de notre haute onsideration .

Talal Arslane

تفويض من الأمير طلال أرسلان باعتماد الاستاذ عبّاس الحلبيّ ممثلاً للموحدّين الدروز في «السينودس لأجل لبنان» موقع بتاريخ 20 تشرين الثاني 1995.

المصادر والمراجع

- أبو اسماعيل، سليم (1945)، **التشيّع الفاطمي الإسماعيلي- الدروز- وجودهم مذهبهم وتوطنهم**، مؤسسة التاريخ الدرزي.
- أبو خزام الشيخ د. أنور (1995)، **إسلام الموحدين**، دار اليمامة.
- أبو زكي، د. فؤاد (1997)، **الأمير السيد جمال الدين عبدالله التنوخي سيرته وأدبه**.
- أبو صالح د.عباس بالاشتراك مع مكارم، د.سامي، **تاريخ الموحدين الدروز السياسي في المشرق العربي**، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء.
- أبو مصلح، حافظ وملاعب، فارس حليم ويحيى، أنيس (1999)، **التنوخيون: تاريخ وحضارة**، المركز العربي للأبحاث والتوثيق.
- الأطرش، فؤاد (1974)، **الدروز: مؤامرات وتاريخ وحقائق**.
- أبي راشد، حنا (1991)، **حوران الدامية**، مطبعة الفكر العربي، بيروت، طبعة ثانية.
- الباشا، د.محمد خليل (1994)، **الإنسان وتقلبه في الآفاق**، مؤسسة نوفل، بيروت.
- الباشا، د. محمد خليل (1982)، **التقمّص وأسرار الحياة والموت في ضوء النص والعلم والاختبار**، دار النهار.
- الباشا، د. محمد خليل و غنّام، د.رياض حسين (2000)، **السجل**

الأرسلاني، مكتبة نوفل.

- الباشا، د. محمد خليل (1990)، **معجم أعلام الدروز**، الدار التقدمية، بيروت.
- البعيني، د. حسن أمين (1991)، **دروز سورية ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي**، المركز العربي للأبحاث والتوثيق.
- البعيني، نجيب (1992)، **أمير البيان شكيب أرسلان ومعاصروه**، الدار الجامعية.
- الدبيسي، يوسف سليم (1992)، **أهل التوحيد «الدروز» وخصائص مذهبهم الدينية والاجتماعية**، 5 أجزاء.
- تقي الدين، أديل حمدان، **الشيخ حليم تقي الدين**.
- تقي الدين، د.حليم (1981)، **الأحوال الشخصية عند الموحدين الدروز وأوجه التباين مع السنة والشيعة مصدراً واجتهاداً**، سيفي برس.
- تقي الدين، حليم ونصر، مرسل (1983)، **الوصية والميراث عند الموحدين الدروز ومنه مثال في تقسيم الإرث ومقارنة مع المذاهب الإسلامية الأخرى**، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والأنماء.
- تقي الدين، حليم (1979)، **قضاء الموحدين الدروز في ماضيه وحاضره**، مطابع لبنان الجديد.
- تقي الدين، زين الدين عبد الغفار (1999)، **النقط والدوائر**، دار إشارات للطباعة والنشر.
- جنبلاط، كمال، **حقيقة الثورة اللبنانية**، دار النشر العربية، 1959.
- حسين، د. محمد كامل (1962)، **طائفة الدروز: تاريخها وعقائدها**، دار المعارف بمصر.
- حمزة، نديم نايف (1984)، **التنوخيون أجداد الموحِّدين الدروز ودورهم في جبل لبنان**، دار النهار للنشر.
- زهر الدين، د.صالح (1994)، **تاريخ المسلمين الموحدين الدروز**، المركز

العربي للأبحاث والتوثيق.

- شيبلر، بريجيت (2004)، **أنتفاضات جبل الدروز"حـوران": 1850-1949**، دار النهار، بيروت.
- الصدّي، نبيه محمد (1993)، **مذهب التوحيد "الدرزيـة" في مقالات عـدّة**، دار العلم بدمشق.
- طليع، القاضي أمين (1971)، **مشيخة العقل والقضاء المذهبي الدرزي عبر التاريخ**، المطبعة الأنطونية في بيروت.
- عابد، د. مفيدة (2001)، **التنوخيون في لبنان: مواقفهم السياسية وتحالفاتهم العسكرية ودورهم الديني والحضاري**، مطابع دويك.
- عبد الخالق، نايف (1993)، **شمائل المسلمين الدروز ودلائل الآيات والرموز**، مكتبة الجيل الطالع.
- العريضي، الشيخ أبو صالح فرحان سعيد، **مناقب الأعيان**، منشورات مدرسة الإشراق، عاليه.
- عنان، محمد عبد الله (1983)، **الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية**، مكتبة الخانجي في القاهرة ودار الرفاعي في الرياض.
- غيث، الشيخ بهجت (1998)، **معارج الروح في مرايا التوحيد**، منشورات الضحى.
- فلاح، سلمان حمود (1980)، **فصول في تاريخ الدروز**، دار الصالح للطباعة والنشر.
- مكارم، د.سامي نسيب (1966)، **أضواء على مسلك التوحيد**، دار الصياد، بيروت.
- مكارم، د.سامي (1980)، **مسلك التوحيد**، بيروت.
- مكارم، د. سامي (2004)، **التقية في الإسلام**، منشورات مؤسسة التراث الدرزي، لندن.
- مكارم، د.سامي (2006)، **أضواء على مسلك التوحيد (الدرزية)**، دار

صادر، بيروت.

- مكارم، د.سامي 2006، **العرفان في مسلك التوحيد (الدرزية)**، مؤسسة التراث الدرزي، لندن.
- المولى، د. سعود (1990)، **الأمير شكيب ارسلان: بنو معروف أهل العروبة والإسلام**، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء.
- النجار، عبدالله (06 آذار 1974)، **إمامة العقل في مذهب الموحدين الدروز**، محاضرة في رابطة العمل الاجتماعي.
- النجار، عبدالله، **مذهب الموحدّين الدروز**.
- نصر، الشيخ مرسل (2004)، **معالم الحلال والحرام عند الموحدين «الدروز»**.
- نصر، الشيخ مرسل (1416هـ)، **الموحدون الدروز في الإسلام**، الدار الإسلامية، بيروت.
- نويهض، عجاج (1963)، **التنوخي الأمير جمال الدين عبدالله والشيخ محمد أبو هلال المعروف بالشيخ الفاضل**، دار الصحافة، طبعة ثانية.
- هشّي، د. سليم حسن (1985)، **دروز بيروت: تاريخهم ومآسيهم**، دار لحد خاطر، بيروت.
- اليحيى، أنيس (2001)، **الشيخ بشير جنبلاط وتحقيق وصيته**، دار الفنون، بيروت.

تاريخ الدروز في آخر عهد المماليك حسب رواية حمزة بن أحمد بن سباط في كتاب صدق الاخبار، دار العودة، بيروت.

- أبو صالح د. عباس (1984)، **التاريخ السياسي للإمارة الشهابية في جبل لبنان**، منشورات المجلس الدرزي للبحوث والإنماء، بيروت، 1984.
- **سجل سرائر الأول والآخر**.
- **الصحف الموسومة بالشريعة الروحانية في علوم اللطيف والبسيط والكثيف**.

- **مجموعة قصص النبيين - منشأ السيد الأمير قدس الله سرّه**، مجموعة للشيخ الفاضل رضي الله عنه.
- **مذكرّات لسلطان باشا الأطرش القائد العام للثورة السورية الكبرى 1925-1927**، صاغها يوسف سليم الدبيسي وصلاح قاسم مزهر.
- **مشيخة العقل**، لباب العلوم، المؤلف الشيخ محمد أبو شقرا 1980.
- **مناهل الحكماء والأولياء ومآثر الأعلام الموحدين**، منشورات المركز العربي للأبحاث والتوثيق، 1997.

المراجع الفرنسية والانكليزية

- ABOU ZEKI Nadine (2006), *Introduction aux épîtres de la sagesse : L'ésotérisme druze à la lumière de la doctrine de Çankara*, Editions l'Harmattan.
- ABU-IZZEDDIN Nejla (1993), *The Druzes: A New Study of their History, Faith and Society*, Leyden, (2nde édition avec corrections).
- BETTS Robert Brenton (1988), *The Druze*, New Haven, 1988.
- DUPONT Marie (1994), *Fils d'Abraham: les Druzes*, Edition Brepols.
- FANDI Talal et ABI-SHAKRA Ziyad (2001), *The Druze Heritage. An Annotated Bibliography*, Beyrouth, (avec une introduction de Kamal SALIBI).
- HATEM Jad (2006), *Dieu en guise d'homme dans le Druzisme*, Edition de l'Orient.
- HICHI Sélim Hassan (1973), *La communauté druze: son origine et son histoire*, Beyrouth.
- HITTI Philipp Khuri (1928), *The Origins of the Druze People and Religion. With Extracts of their Sacred Writings*, New-York, (les arguments avancés sur les origines ethniques des Druzes sont toutefois peu convaincants et restent à revoir).

- JOUMBLATT Kamal (1978), *Pour le Liban*, (propos recueillis par Philippe LAPOUSTERLE), Paris.
- FIRRO Kais (1992), *A History of the Druzes*, Leyden, New-York et Köln.
- KHURI Fuad (2004), *Being a Druze*, the Druze Heritage Foundation.
- MAKAREM Sami Nasib (1974), *The Druze Faith*, Delmar.
- MUAKASA Sahar (2004), *Comprehensive Bibliography of the Druze religion*, PHD, Druze Research & Publications Institute.
- NAJJAR Abdallah, *The Druze*, American Druze Society.
- BOURON Narcisse (1930), *Les Druzes: Histoire du Liban et de la montagne haouranaise*, Paris.
- DANA Nissim (2003), *The Druze in the Middle East, their Faith, Leadership, Identity and Status*, Sussex Academic Press, Brighton, Portland.
- RAMADAN Tariq, *Muhammad: vie du prophète*, Edition Presses du Châtelet, 2006.
- *The Tawhid Faith: Fundamental Beliefs*, prepared and edited by Committee on Religion Affaires, American Druze Society 1985-1990.


دار النهار